حكاوي الأغاني

اسم الكتاب: **حكاوي الأغاني**

اسم المؤلف: **ندى أشرف رمزي**

تدقيق لغوي: **هاجر جابر**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٥٨٥٨**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٥٨٦٤٠٤**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه
للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

ندى أشرف رمزي

حكاوي الأغاني

(مجموعة قصصية)

إبهار
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى أفراد عائلتي، أبي وأمي وأختي، الذين لولا إيمانهم بي لما أصبحت ما أنا عليه الآن.

إلى زوجي الذي لولا تشجيعه لي لما انتهيت من هذه المجموعة القصصية بعد عامين كاملين من التوقف.
إلى ابنتي، جميع الآباء يريدون أن يفخروا بأبناءهم، أما أنا فلا أريد أن أفخر بكِ فحسب، ولكني أريدك أنتِ أن تفخري بي أيضًا، لذا أعدِك أن أبذل قصارى جهدي لأكون دائمًا أهل لذلك.

إلى كل من مروا بحياتي، كل من ألهمني، وكل من لقّنني درسًا في الحياة دون أن يدري، لولاكم لما كتبت حرفًا واحدًا.
وأخيرًا، إلى نفسي، بعد كل هذه السنوات، بعد الصبر واليأس، بعد الأمل والإحباط، وبعد النجاح والإخفاق، ابتسمي، لقد فعلتِها.

مقدمة

ما زلت أذكر حين كتبت قصتي الأولى منذ سبع سنوات، كانت تحمل عنوانًا آخر بدلًا من "في شي عم بيصير"، ولكن منذ البداية كانت الأغنية جزءًا من الأحداث، وتكرر الأمر في القصة الثانية والثالثة، فأنا لم أقصد في بادئ الأمر أن أوغل الأغاني عمدًا بين أحداث القصص، ولكن هكذا وجدتها جميعًا تحمل الطابع ذاته، ربما لأنني كنت أشعر دائمًا أن كل قصة تحمل جزءًا مني، شيئًا من روحي، ولطالما كانت الأغنيات جزءًا لا يتجزأ من أحداث حياتي كافة، تأتيني في البداية كخلفية أو ربما موسيقى تصويرية، وكأنها تثبت وجودها وتعلن نفسها شاهدًا على الأحداث، لتعود فيما بعد وتجعلني كلما استمعت إليها أسترجع كل شيء مهما مرت

السنوات، الأحداث التي انقضت والأشخاص الذين شاركوني بها، فأبتسم، أو أبكي، أو أدرك أن ما من شيء يبقى على حاله، مثلكم جميعًا، فأنا أكاد أجزم أن لكل شخص ثمة أغنية تستطيع أن تعيده سنوات إلى الماضي، إلى شخص بعينه، وقصة دون غيرها تظل أحداثها تمر أمام عينيه بكل تفاصيلها كلما استمع إلى الأغنية وباغتته كلماتها، لذا أكملت مجموعة "حكاوي الأغاني"، والتي وجدتها تعبر عني بشكل كبير، كما أتمنى أن تجدونها معبِّرة عنكم أيضًا، لكل أغنية حكاية، ولكل حكاية خبايا لا يعرفها سوى أصحابها.

"في الحقيقة كل رواية ناجحة، هي جريمة ما نرتكبها تجاه ذاكرة ما، وربما تجاه شخص ما، نقتله على مرأى من الجميع بكاتم صوت، ووحده يدري أن تلك الكلمة الرصاصة كانت موجهة إليه."

أحلام مستغانمي.

إلى أولئك الذين ظنّوا أنهم بالعشق قد امتلكوا القلوب، وأحسنوا ترويضها، ونسوا أن كل مروَضٍ يأتيه يوم ويتمرّد.

في شيء عم بيصير

مضى أكثر من أربعة عشر يومًا على آخر لقاء بينهما، لم يحادثها خلالهم سوى مرة واحدة، يخطر ببالها كثيرًا ولكن كلما زاد شوقها، ازداد أكثر عنادها، أبدا لن تحادثه، وإن حادثته ماذا تقول؟ أتشكي منه إليه؟ أيكون هو الداء والدواء؟

أخطأت منذ البداية حين قبلت بقوانين لعبته، اللعبة التي أحسن إتقانها منذ أكثر من عام عندما بدأت صداقتهما، وأساءت هي تقدير الخسارات فيها.

تذكُر جيدًا يوم التقته للمرة الأولى، كان قد جاء برفقة اثنين من أصدقاءها، رامي وشريف، ولكنه كان قليل الكلام، يستمع لأحاديث الأصدقاء الساخرة، وابتسامة هادئة لا تفارق وجهه، تُرى ما سبب الحزن الذي تخفيه ابتسامته الهادئة؟ وما سر الغموض الذي يكمن بعينيه العميقتين؟

أخذت تتضارب الأسئلة بذهنها وهي تتمتم بأغنية فيروز " في شي عم بيصير" التي كانت تتردد في أرجاء المكان، كان ذلك حين التفت إليها وبدأ بالحديث:

- شكلِك بتحبي فيروز.
- أوي، عرفت منين؟
- أبدًا بس حسيتِك مركزة أوي مع الأغنية.
- صوت فيروز كفيل إنه يخلي أي حد مهما كان مشغول يركز معاها، انت بتحبها؟
- ومين ما بيحبهاش! إيه أكتر أغنية بتحبيها لها؟
- عندي ثقة فيك.
- ابتسم قائلًا: وأنا كمان، أنا عمر.
- فابتسمت مصافحة: عاليا.

استمر حديثهما وكأن كل منهما وجد بغيته، لم يكن ما قالاه سبب هذا الشعور، ولكن ما قالته أعينهما كان كافي، فثمة شيء بعينيه مثيرًا للاهتمام، وثمة شيء بعينيها يدعوه للاقتراب، وكأنها طوق النجاة.

في تلك الليلة رأته بمنامها، كان ينظر إليها وابتسامته الهادئة تعلو وجهه ويعلو معها صوت فيروز بالأغنية التي كانت تستمع إليها حين بدأ بالحديث:

"بتمرق عليّ كتير بتحبني
بتسأل علي كتير بتخصني

بعرف ها الحكي، حافظة ها الحكي
كل الحكي حلو ومع إنه حلو
ليش بيضلو إحساسي يقلي لأ
في شي بدو يصير، في شي عم بيصير"

التقت به بعد عشرة أيام في النادي، كانت جالسة بمفردها، وبيدها كتاب، بدا وكأنه استحوذ على تفكيرها، وما لبث أن رآها عمر حتى اقترب مصافحًا وجلس إليها:

- بتقري إيه؟
- رواية لنور عبد المجيد اسمها "صولو".
- دي بتحكي عن إيه؟
- ناس ساكنين في نفس العمارة وكل واحد فيهم عنده مشكلة مختلفة عن التاني، بس اللي بيجمعهم هو الوحدة، وعشان كدة اسمها صولو.
- وانتِ؟
- أنا إيه؟
- لما بتبقي قاعدة لوحدك كدة، مش بتحسي بوحدة؟
- لأ خالص بالعكس، أنا اللي بختار أبقى لوحدي عشان أنا عايزة كدة، مش عشان دي حاجة مفروضة عليّا.
- يعني ما بتحسيش بوحدة؟
- لعلمك الوحدة مش مرتبطة بوجود الناس أو عدمه، يعني مثلًا في ناس كتير بتبقى لوحدها وعايشين مبسوطين، وناس تبقى دايمًا

رامية نفسها وسط الناس بس مش لاقيين نفسهم، عاملين نفسهم مبسوطين، ودي أبشع صور الوحدة.

- وانتِ إيه فيهم؟
- قالت ضاحكة: أنا أحسن من الاتنين.
- فمازحها قائلًا: يا سلام على التواضع!
- ابتسمت قائلة: حفهمك قصدي، أنا الحمد لله عندي أهل وصحاب بيحبوني وبحبهم، مهمين جدًا في حياتي وجزء كبير أوي منها، لكن في النهاية كل واحد فيهم عنده أولوياته وحياته الخاصة، عشان كده لازم أتعود أبسط نفسي، حتى لو كنت لوحدي زي دلوقتي كدة.
- حلو أوي إنك تبقي وخداها ببساطة كدة.
- أفهم من كدة إنك بتحس بوحدة؟
- بصراحة، معظم الوقت.
- ليه؟
- أنا معنديش اخوات، سافرت أمريكا بعد ما خلصت ثانوي، درست هندسة هناك واشتغلت، وبعد سبع سنين من إقامتي هناك، ماما تعبت وفضّلِت إننا نرجع، وفعلًا طلبت نقلي لفرع الشركة في مصر، كمان ما بقاش فاضلّي حاجة هناك.
- ليه ما عندكش صحاب هناك؟
- كان عندي.
- ووالدك؟

- نظر إليها معاتبًا، ثم قال: منفصلين من زمان.
- فارتبكت قائلة: أنا آسفة، رامي وشريف صحابك من زمان؟
- دول صحابي اللي طلعت بيهم من الدنيا، كنا مع بعض في المدرسة من واحنا صغيرين، حتى وأنا مسافر كنا دايمًا على اتصال، وانتِ تعرفيهم من زمان؟
- من أول ما دخلنا الجامعة تقريبًا، احنا شلة كبيرة أوي زي ما انت شوفت.
- بس أنا حاسك غيرهم مش عارف ليه!
- غيرهم ازاي يعني؟
- يعني مش واخدة كل حاجة هزار زيهم.
- لأ عادي احنا مش مختلفين كتير زي ما انت متخيل، أنا بس بحب إني كل فترة أخصص وقت لنفسي، بعيد عن ضغط الشغل والزحمة ووجع الدماغ.

قالتها وعلت ضحكتها، أخذ يتأمل لمعة عينيها الضاحكتين وابتسامة ثغرها، ثم ضحك هو الآخر قائلًا:

- وأنا شكلي كدة جيت وجبت معايا وجع الدماغ اللي انتِ هربانة منه.
- لأ خالص، بالعكس.
- نهض، ثم مد يده إليها مصافحًا: مبسوط أوي إني شوفتك.
- وأنا كمان.
- رحل ثم التفت إليها بعينيه متوسلًا: حاشوفك تاني؟

- فابتسمت وكأنها تطمئنه: أكيد.

كان ذلك اللقاء بمثابة إشارة بدء لصداقة قوية جمعت بينهما، بدأ يحادثها كثيرًا، ويظهر أمامها أينما كانت، يشاركها كل ما تحب ويدعمها لتحقق كل ما تتمناه، بدا معها أكثر انطلاقًا وإقبالًا على الحياة، وكأنه سجين قد وجد لتوّه من أطلق سراحه.

وبدأت هي تعتاد وجوده بحياتها، تفتقده في غيابه، وما يلبث أن يحادثها حتى تقص عليه كل ما فاته، إن غضبت يكون أول من تشكو إليه، وإن فرحت يكون أول من يقتسم معها فرحتها، بدأ غموضه ينقشع عنها شيئًا فشيئًا، صارت تفهمه من عينيه دون أن تنبث شفتيه بكلمة، تفهم كل ما وراء نظراته، وما يلبث أن يحدث موقف بين أصدقائهما حتى ينظرا لبعضهما في مكر وينفجرا ضاحكين، فقد أصبح كل منهما يعي تمامًا فيمَ يفكر الآخر.

وعلى الرغم من محاولته التمسّك بما تبقّى من غموضه أمامها، إلا أنه لا يشعر بنفسه إلا وقناعه يسقط عنه؛ ليجد نفسه يبوح بكل أسراره، كل ما هو مضحك وكل ما هو موجع، ما يتمنى أن تعود أيامه وما يهرب منه ويخشاه، أخبرها عن أبيه الذي بالكاد يذكر ملامحه، عن تدليله له، وعن انفصاله عن أمه عندما كان في الخامسة، عن اشتياقه لأبيه رغم كل ما حدث، وعن استحالة تعبيره عن مشاعره أمام والدته التي يقدّسها؛ حتى لا يجرح مشاعرها.

أخبرها عن "سارة" صديقته بالجامعة التي وصل عشقه لها حد الجنون، وعن اكتشافه بعد أربعة أعوام من حبه لها أنها على علاقة بأقرب صديق له.

أخبرها كيف فقد ثقته بكل من حوله، وعن القوانين الرادعة التي وضعها لنفسه في تعامله مع الآخرين، ولكن ما لبثت هذه القوانين أن انهارت عند قدميها وأمام عينيها، عينيها اللتان أصبحتا يوم بعد يوم ليست مصدر بهجته فحسب، بل ملجأه وملاذه.
أصبح يعترف لها كم يغار عليها ويشتاقها، كم يعشق صوتها وتربكه ضحكتها، كم يغريه خجلها وتضيعه براءة عينيها.

وأصبحت هي تعي تمامًا مدى أهميته بحياتها، تحب كل تفاصيله، وتعشق رفقه بها وتدليله لها في بعض الأحيان، كان لها رجل عمرها، وكانت له كل شيء.
باتت تعرفه أكثر من نفسه، تستطيع أن تتوقع ردود أفعاله، حتى تتوقع متى يختفي ومتى سيظهر.

تلك كانت كارثتها الكبرى ومصيبتها الفادحة، ما يلبث أن يشعر أنه قال أكثر مما ينبغي، وأظهر ضعفه أمامها أكثر مما يجب، حتى يختفي، وكأنه يعاقب نفسه ويعاقبها، نعم يعاقبها؛ لأنها أصبحت تعرف عنه أكثر من اللازم، حتى عيوبه ونقاط ضعفه، بل أصبحت هي نفسها أكبر نقاط

ضعفه، ويعاقب نفسه على اختراقه لقوانين عاهد نفسه ألا يعبث بها إنسان، ليعود كما كان دائمًا، هادئ وغامض، تحادثه فلا يجيبها، ثم يحادثها بعد أن يكون قد غلبه الشوق، مدعيًا انشغاله بعمله.

في ذات مرة، قررت أن تبتعد عنه وتقطع كل صلة تجمعها به بعد أن كان قد نفذ صبرها، ولم تعُد تحتمل غيابه وتقلب مزاجه أكثر من ذلك، ولكن ما لبثت أن بدأت تستعيد نفسها من جديد، حتى جاءها صوته ليحادثها مرة أخرى.

- أجابت جامدة: أيوة.
- رد في صوت يرتعش: عاليا.
- أفندم.
- أنا واقف في الشارع اللي ورا بيتك، انزلي حالًا لازم أشوفك.
- قالت وقد بدأ القلق ينتابها: في إيه مالك؟
- صمت قليلًا ثم أجهش بالبكاء قائلًا: ماما ماتت يا عاليا، ماتت.

لا تذكر ماذا قالت، بل لم تبدل ثيابها، فنحيبه أفقدها صوابها، ما أن رأته أمامها، حتى ألقى بنفسه بين ذراعيها، لم تشعر بنفسها إلا وهي تضمه إليها بكل ما أوتيت من قوة، اعتصرته بين ضلوعها كما اعتصر حزنه قلبها، أخذت دموعها تبلل وجنتيه، لتمتزج بدموعه الساخنة التي أخذت تهبط بلا توقّف، بينما هو يزداد التصاقا بها، وكأنه يود لو يختبئ بداخلها.

- أردف قائلًا: خليكِ جنبي يا عاليا، اوعي تسيبيني، أنا مبقاش ليا حد في الدنيا غيرك.
- جففت دموعها ثم نظرت إليه وأخذت تتحسس وجهه في رفق: عمري ما حاسيبك يا عمر.
- قال مستعطفًا: توعديني؟
- أوعدك.

منذ اليوم الذي قطعَت فيه ذلك العهد على نفسها وهي تبذل كل ما بوسعها لتنفذ بنود ذلك العهد، نعم، ستخرجه من محنته، عينيه زائغتين، وجهه يزداد شحوبًا، وجسده يزداد نحافة ووهن، لن تتركه هكذا، إنه حقه عليها، هو علّمها ذلك، فلم تلجأ إليه يومًا وخذلها ولم يجدها يومًا عابسة إلا واستخدم كل الطرق ليرسم البسمة على شفتيها ويرى السعادة تملأ عينيها، وعلى الرغم من اختفاءه عنها في بعض الأحيان، إلا أنها تعلم جيدًا أنه لم يقصد به يومًا إيذاءها، تعلم أنه لا يرتاح في البُعد مثلها وربما أكثر، ولكن إنه مرضه اللعين، مرضه الذي تنتظر أن يتعافى منه يومًا ما، فقد كانت ترى أن عمر يستحق الانتظار، أن تمهله قليلًا من الوقت ليشفى من هواجسه، بل هو يستحق أن تعاني من أجله.

منذ وفاة أمه وهي لا تفارقه ولا يفارقها، تطمئن عليه باستمرار وعلى أحوال عمله، تشجعه ليتقدم ويثبت جدارته ويفخر بها إن حققت نجاحًا، أصبح أكثر تعلقًا بها أضعاف ما كان، يحادثها يوميًا ولا يغفو قبل أن يطمئن عليها، ويتحدث إليها ليكون صوتها آخر ما سمع.

تذكُر عندما انشغل كل منهما في عمله ولم يرَها لمدة أسبوع حادثها قائلًا:

- مش كفاية كدة بقى ولا إيه؟ لازم أشوفك النهاردة.

وما إن قابلته وجلست إليه حتى نظر في عينيها قائلًا:

- انتِ مش بس وحشتيني، أنا أدمنتك.
- احمر وجهها خجلًا وضحكت قائلة: يا كداب.
- أنا بموت في الضحكة دي.
- إيه كل حاجة فيا بقت حلوة النهاردة فجأة؟
- مش فجأة يا عاليا، أنا من يوم ما شوفتك وانتِ أحلى واحدة في عينيا.
- زاد ارتباكها، ثم سألته قائلة: واشمعنى بتقول الكلام ده دلوقتي؟
- أمسك بيدها قائلًا: عشان انتِ بقيتي أحلى حاجة في حياتي، عشان وقفتي جنبي في موت أمي، عشان قويتيني ورجعتيني عمر اللي أعرفه ومتصالح معاه، عشان استحملتيني واستحملتي غموضي وغيابي في ساعات كتير، مع إنه والله كان بيبقى غصب عني.

شد على يدها ثم انحنى وطبع على يدها قبلة طويلة، ثم رفع وجهه إليها ونظر بعينيها قائلًا: عشان بحبك يا عاليا.

قالها وعلا صوت أنفاسه، كل ملامح وجهه كانت تبتسم، وكل شيء فيها كان ينتفض، كانت تسمع دقات قلبها بوضوح، كم انتظرت ذلك

اليوم وكم أرغمته هواجسه أن يغلق قلبه على حبه لعاليا خوفا من جرح جديد، جرح لن يكون له سوى الضربة القاضية.

أخذت تتحسس موضع قبلته على يدها تاركة الذكريات تعصف بها وتفاصيل عام كامل تمر أمام عينيها، نعم، خرج من أزمته وعاد يختفي من جديد، عاد لطبيعته التي لطالما أرهقتها وآلمت قلبها، تحبه وتعلم أنه مغرم بها، ولكن أي حب هذا؟ أي حب الذي يخذل ويضعف؟ أليس من المفترَض أن يكون الحب الحقيقي سند وقوة؟

لم يترك لها يومًا خيارًا، دخل حياتها دون استئذان، واقتحم قلبها دون أن يطرق بابه، وها هو الآن عاد ليختفي دون أن يترك خلفه أي إنذار بالرحيل، أخذت تتساءل تُرى أتستمر في صبرها، أم تقتل كل ما تبقّيَ بداخلها تجاهه؟ أتبقى على عهد قطَعَته على نفسها يومًا ولم تحظَ في المقابل بشيء سوى أنها أصبحت حبيسة هواجسه الحمقاء، أم تتحرر منه ومن عهده؟

بقدر ما عرفها وفهمها، لم يعرف كم تصبح قاسية إن حاول أحد العبث بكبرياءها، حتى ولو كان هو، وإن كان قلبها النابض بحبه بين ضلوعها سيطيح بها يومًا، فلتسحقه ولو رغمًا عنها بدلًا من أن تشعر به يتهشم يومًا بعد يوم.

بهذه اللحظة سمعت هاتفها يدق، وإذا باسمه وصورتهما معًا تظهر على شاشته، أخذت نفسًا عميقًا ثم أجابت، لتسمع صوته الحاني يقول: وحشتيني.

– وانت كمان وحشتني.

- طيب إيه رأيك نتغدى مع بعض النهاردة؟ الساعة خمسة في نفس المكان كويس؟
- اتفقنا.
- خلاص يبقى أشوفك كمان شوية، بحبك.
- تنهدت قائلة: مش قد ما أنا بحبك يا عمر.

أخذت تختار ملابسها بعناية، نعم، ستذهب إلى موعدها وهي في كامل أناقتها، أبدًا لن يبدو الأرق على جفنيها، ولن تغسل الدموع عينيها، لن تسمح لكبريائها بالتخاذل ليس أمامه فحسب بل أمام نفسها، بقدر ما كانت تشتاق إليه وتتعجل لقائه، إلا أنها لن تبدو ضعيفة أمامه، ستخبره بكل ما يضيق به صدرها منذ أكثر من عام، وعلى الرغم من أن المواجهة لم تكن أبدًا من سماتها، إلا أنها لن تغادره دون أن تخبره بكل ما يدور بعقلها الذي كادت الأفكار أن تفتك به من كثرة التفكير فيه والحيرة من أمره، وتواجهه بكل ما يجوب بقلبها، قلبها الذي أصبح كبركان ازداد غليانه وأوشك على الانفجار.

دلفت المكان، وما لبث أن رآها حتى شهق ولمعت عيناه، تلاحقت أنفاسه واتسعت ابتسامته، كان كمن رُدَّت إليه روحه.

كان شعرها الأسود الطويل ينسدل فوق ظهرها، تطيره نسمات الهواء ليلامس وجهها ويلتصق بشفتيها فيبرز جمال عينيها الواسعتين، كم يحسد شعرها!! بسيطة هي ولكنها جميلة شهية، لم يحبها لجمالها فحسب، ولكن روحها كانت تضفي فوق جمالها جمالًا، لتزيده فوق عشقه عشقًا، لو تعلم كم يشتاقها! لو تعلم أن حبه لها قد تجاوز حدود

السماء، ولكن ما يزِده ابتعادًا عنها سوى حبه لها، يخشاها على نفسه ويخشى عليها من نفسه، كل ذلك كان يدور بذهنه وهي مقبلة عليه، أخذت تحدق به، وهي تتفحص كل ملامحه، تشتاق إليه بكل تفاصيله رغم كل ما حل بها بسببه.

- قطع شرودها قائلًا: بتبصيلي كدة ليه؟
- قوللي يا عمر، هو أنا عمري أذيتك؟
- نظر إليها في دهشة: إيه السؤال السخيف ده؟
- ولسة حسألك سؤال تاني أسخف، بتحبني يا عمر؟
- هو انتِ بجد بتسألي؟
- آه بسأل، وأرجوك رُد على سؤالي.
- لأ يا عاليا عمرك ما أذيتيني، وآه طبعًا بحبك، بحبك جدًا كمان.
- ولما انت بتحبني وأنا عمري ما أذيتك، بتإذيني ليه وأنا برضو بحبك؟
- قال وقد بدأ القلق ينتابه: قصدك إيه؟
- قصدي انت عارفه كويس يا عمر، وواجهتني وواجهت نفسك بيه قبل كدة، بتبعد عني ليه يا عمر؟ بتهرب مني ولا من نفسك؟
- انتِ مش فاهمة حاجة.
- طيب ما تفهمني، ده أنا بقالي سنة نفسي أفهم، حاولت كتير أفهم لوحدي بس ما عرفتش، وآخر ما تعبت جيتلك عشان تفهمني.

- وتفتكري أنا متعبتش؟ أنا جوايا اتنين بيحاربوا بعض، واحد مش عايز حاجة من الدنيا ولا بقى فيه حاجة تفرحه غير إنه يبقى معاكِ، والتاني كل ما يقرب منك يبقى عايز يهرب لآخر الدنيا.
- تهرب مني ليه؟ مش بتقول إن مفيش حاجة بتفرحك قد إننا نبقى مع بعض؟ إمتى حتتأكد إني مش زي حد ولا عمري حاكون؟ أنا بحبك يا عمر وعشان بحبك عمري ما حاوجعك، واللي وجعك، وجعك عشان عمره ما حبك، انت مش ضعيف يا عمر، والاتنين اللي بيحاربوا بعض بتوعك دول محدش حايقرر مين فيهم اللي حيغلب غيرك انت يا عمر.
- يعني إيه؟
- يعني انت إللي تحدد، بتحبني أكتر، ولا خوفك ورغبتك في الهروب مني أكبر؟
- مش خوف منك يا عاليا، قولتلك انتِ مش فاهمة حاجة.
- طيب ما تفهمني، إيه حفضل مش فاهمة حاجة كدة كتير؟
- أنا حكيتلك إن ماما وبابا انفصلوا وأنا عندي خمس سنين، بس ما حكيتلكيش إنها صحيت من النوم لقت ورقة طلاقها جنبها ومعاها رسالة اعتذار سخيفة بيقولها فيها إنه آسف وما كانش يستاهل حبها ده، وإنه سابها وساب ابنه وجري ورا واحدة تانية، حكيتلك إنها تعبت بعدها، بس ما حكيتلكيش إنها حاولت تنتحر مرتين وفضلت عايشة بعدها سنين عالمهدئات، حكيتلك إنها بعدها بقت بني آدمة تانية، بس ما حكيتلكيش إنها كانت عايشة

ميتة ومن ساعتها وهي ما بقتش عارفة تحب حد في الدنيا غيري، ولا حتى نفسها، كانت دايمًا تقوللي اوعى تسلم مفتاح قلبك لحد عشان ما يكسركش، كفاية أنا، وأديني أهو بقيت فعلًا زيها وعايش نفس هواجسها.

حتى سارة حكيتلك عنها كل حاجة، بس ما حكيتلكيش عن الشبه الكبير اللي بينك وبينها، ده أنا ساعات كنت بابصلك وكإني شايفها قدامي.

تنهد قائلًا ثم أكمل: مش قولتلك انتِ مش فاهمة حاجة.

- وانت بقى حبيتني عشان شبهها؟

- قاطعها قائلًا: لأ طبعًا، لو عالشبه يبقى كان المفروض أكرهك عشان انتِ شبهها مش أحبك، أنا حبيتك عشان انتِ عاليا، آه حاولت كتير أقاوم إحساسي بيكِ وأبعد عنك، بس لقيت إنك ما ينفعش ما تتحبيش يا عاليا، لقيتك طول الوقت في بالي، سيطرتي على تفكيري تمامًا، لقيت نفسي بسأل عليكِ كل الناس وبدور عليكِ في كل حتة، ولما قربتلك أكتر حبيت كل حاجة فيكِ، ضحكتك اللي بتخلع قلبي من مكانه، عينيكِ ولمعتها لما باعمل حاجة تفرحك، أنا ما بقتش قادر أتخيل حياتي من غيرك، بس كمان بقيت حاسس إن حبك ده عامل زي المرض اللي كل يوم بيتملّك مني أكتر من اليوم اللي قبله وخايف منه، خايف أتعلق بيكِ أكتر من كدة لا ييجي يوم وتضيعي مني وألاقي نفسي تاني لوحدي، احنا كل ما حبنا لحد بيكبر، كل ما الوجع لو جه بسببه

بيبقى أصعب، بحبك فوق ما تتخيلي بس خايف، خايف ألاقي نفسي اتوجعت حتى لو مش بقصدك، خايف ألاقي نفسي في يوم زي أمي، وفي نفس الوقت عارف إن ده صعب عليكِ وخايف عليكِ من نفسي، لا قادر أقرب منك ولا عارف ماحبكيش، وبعد كل اللي حكيتهولك ده ومش عايزاني أخاف، طيب ازاي؟

نظرت إليه وقد بدأت عينيها تترقرق بالدموع، لا تعرف أتبتسم لما قاله، أم تبكي حسرةً على حالها، ماذا تقول بعد أن مزج كلمات الحب بالفراق، ليكون كمَن دس السم بالعسل!

- بس انت كدة تبقى أناني يا عمر.
- نظر إليها محدقًا، فأكملت قائلة: أيوة أناني، انت مش عايز تعمل في نفسك اللي بقالك سنة بتعمله فيا، خايف تتعلق بيا؟ طيب ما أنا اتعلقت بيك، خايف تتوجع؟ اشمعنى أنا اتوجعت؟ خايف أضيع منك؟ ليه وهو انت كدة مش بتضيعني؟ وفوق كل دة تظهر وقت ما انت عايز وتختفي وقت ما انت عايز، وأنا المفروض إني ماحسش بحاجة، ماتوجعش، ماتجننش، وأول ما ترجع أفرح عادي ولا كإن حاجة حصلت! لأ يا عمر أنا مش بزراير، عايز تحبني بس من بعيد لبعيد، تفضل ساحبني وراك زي العامية لحد ما أوصل للخط الأحمر اللي انت مش عايزني أعديه، فتوقّفني وتسيبني وتمشي، انت اللي بتقرر كل حاجة، وأنا مش من حقي أي حاجة، بس تعرف أغرب حاجة إيه؟ إن ييجي اليوم اللي تجرح فيه حد كدة وانت أكتر واحد عارف الإحساس ده ومجربه.

ظل محدقًا بها لا يصدق ما يسمعه، أهذه عاليا؟ ماذا فعل بها؟ ألهذه الدرجة جرحها؟ أيكون كالدب الذي قتل صاحبه خوفًا عليه؟ للأسف عاليا لم تخطئ بحرف، كل كلمة قالتها كانت بمثابة طعنات تمزِق بها قلبه، ولكن هكذا هي الحقيقة، الحقيقة التي لم يظن يومًا أنها قد تكون مؤلمة لهذه الدرجة.

- كان ذلك حين هبت واقفة: أنا ماشية يا عمر.
- قبض على يدها في عنف ثم نظر إليها والدمع يتراقص بعينيه: مش حاتمشي يا عاليا.
- نفضت يده عنها في رفق وأدارت وجهها عنه حتى لا تنهار باكية: لأ حامشي يا عمر، والمرة دي أنا اللي حامشي وقت ما أنا عايزة، مش انت، ومش راجعة إلا لما تكلمني وتقولي مين في الاتنين بتوعك هو اللي غلب، بس لو طلع اللي بيخاف يبقى ما تكلمنيش أحسن يا عمر.
- قال في ضعف وقد بدأت دموعه تتساقط على وجنتيه: عاليا ما تسيبينيش عشان خاطري، انتِ وعدتيني.
- التفتت إليه قائلة: مش أنا اللي سايباك يا عمر، انت اللي دايمًا بتسيبني وترجعلي وقت ما انت عايز، خليني بقى آخد دورك ده شوية، على الأقل لحد ما تعرف انت عايز مني إيه، يا تكمل معايا (صمتت ثم أكملت في وهن) يا تسيبني في حالي يا عمر.

أخذت تدقق النظر إليه وتتحسس وجهه في تردد، وكأنها تود لو تحفر ملامحه بذاكرتها، تود أن تثبت لنفسها أنه حقيقي، وأن ما مر بها لمدة عام لم يكن وهمًا.

- قالت في صوت يختنق: نسيت أقولك أنا كمان إني بحبك أوي، وإني ما بحسش بالأمان إلا وانت ماسك إيدي، اسمي لما بسمعه منك بيبقى ليه طعم تاني، ولما بتوحشني أوي بفضل أتفرج على صورنا سوا لحد ما أنام، نسيت أقولك إني عمري لا حبيت ولا حاحب حد قد ما حبيتك وإنك حتوحشني، حتوحشني أوي يا عمر، بس سامحني بقى ما هو مش انت بس اللي بتخاف تتوجع، أنا كمان بخاف.

استقلت سيارتها، وما لبثت أن ابتعدت عنه حتى أجهشت بالبكاء، أخذت دموعها تنهمر على خديها، وبدأت تنتحب حتى شعرت أن روحها تخرج من جسدها، أخذ عقلها يردد حديثهما الأول، وما تلَته من أحاديث تحفظها كلها عن ظهر قلب، وتعلو بأذنيها أصوات ضحكاتهما، وأول مرة اعترف لها بحبه، تتذكر كيف كان ينتفض جسدها عند رؤيته، كيف كانت تضطرب نبضات قلبها عند سماع صوته، فيعلو نحيبها، بدأ الألم يتسلل من روحها ليحكم قبضته على جسدها، تعلم أنها جرحته، ولكنها جرحت نفسها معه حين واجهت نفسها بالواقع، الواقع الذي لطالما حاولت تجاهُله.

قد يجمعهما القدر مجددًا، وقد يصبح ذكرى خالدة بقلبها، قد يتغلب يومًا على خوفه ويعود ليضمد جراحها ويخمد النار التي أشعلها بقلبها،

وقد لا يفعل ويخذلها، كل الاحتمالات قائمة، ولكنها لا تستطيع أن تتوقع حدوث أمر بعينه، ولن تستطيع، فلطالما فاجأتنا الحياة بكل ما هو غير متوقع، بتلك اللحظة تذكّرت أغنية فيروز، تلك الأغنية التي كانت تستمع إليها يوم التقت به للمرة الأولى، ولكنها لم تكن تعلم آنذاك أنها ستكون اللعنة التي أصابتها، وأن هذه القصة ستكون يومًا قصتها معه.

منذ صغري وأنا مهتمة بالقضايا السياسية، أقرأ التاريخ وأتابع أنباء الحروب وأحداث الأراضي المحتلة، في البداية ظننت أنه حب المعرفة، ولكني أدركت فيما بعد أنني أصبحت كذلك؛ لأن ثمة قضية قد تملّكتني لدرجة جعلتني كلما وددت أن أكتب، لا أملك سوى أن أكتب عنها، إنها قضية اللاجئين.

ربما يعود ذلك إلى اعتقادي بأن ليس هناك أقسى من أن يفقد المرء كل ما لديه في آن واحد، بيته، عائلته، ووطنه، ليسير نحو المجهول، تاركًا خلفه حُطام ذكرياته، وبقايا أيامه، ولا يوجد أقوى ممن يستطيع أن ينجو بروحه رغم كل ذلك، وقد تشبث بما تبقّى لديه من فتات الأمل، عازمًا على أن يبدأ من جديد.

بهذه القصص الثلاث، أحيا ثلاث حيوات، بثلاثة بُلدان مختلفة، لثلاثة أشخاص مختلفين، ولكن ما يجمعهم، أن ثلاثتهم قد وضعتهم الحرب أمام حقيقة واحدة، وهي أن ما يفصلهم عن الموت، ما هو إلا ثوانٍ وبضعة سنتيمترات، ظنّوا مع كل رصاصة اخترق صداها آذانهم أن النهاية قادمة لا محالة، ليدركوا فيما بعد، أن من رحم الموت، تكون الحياة.

بمكن حبيتك

على أحد أرصفة محطة القطار بمدينة "نابولي" الإيطالية، وقفت وحدها في انتظار القطار الذي سيقلّها إلى مدينة "ميلانو" وقد بدأ الملل يتسلل إليها، أخذت تتلفت يمينًا ويسارًا، محاولة أن تتغلب على مللها عن طريق ممارسة هوايتها المفضلة، فهي تستمتع بمراقبة الأشخاص بالمطارات ومحطات القطار لقناعتها بأن وراء كل شخص بذلك المكان قصة يضيق بها صدره أو خاطر يجوب بنفسه، أخذت تتأمل الوجوه محاولة استنتاج القصص المخبأة خلف الابتسامات والأسرار التي تفضحها العيون رغمًا عن أنوف أصحابها.

ظلّت على هذه الحال حتى وقعت عيناها عليهما، شاب وفتاة في مقتبل العمر، وقد أمسك الشاب بباقة من الورود الحمراء قدّمها لفتاته التي جاء من أجل توديعها، ثم ما لبث أن أهداها إليها، حتى أخرج من جيب سترته علبة أنيقة تحتوي على خاتم من الماس الخالص، وركع بركبته على الأرض أمامها، أخذ ينظر إليها بعينين تفيضان بالعشق، ثم سألها

متوسلًا إن كانت تقبل الزواج منه، بدأ المشهد يلفت أنظار المحيطين بهم، والرؤوس تلتف نحو الفتاة في انتظار جوابها، ظلت الفتاة محدقة به في ذهول، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة، وتلوّن وجهها بلون الخجل، ثم ما لبثت أن هزت رأسها بالموافقة حتى هم الجميع بالتصفيق وتعالت الصيحات، بينما نهض الشاب وضمها إليه بقوة، وضاعا معًا في قبلة طويلة دون أن يعبأ أحد منهما بالزمان أو المكان أو العيون المحدقة بهما في فضول، وكأن الزمن قد توقف بهما عند تلك اللحظة ولم يعد يرى أيّ منهما بالعالم سوى الآخر.

أخذت تتلفت من جديد وقد بدأت تتابع ردود أفعال رواد المحطة على ذلك المشهد، ومن بين الوجوه الباسمة، وغير المكترثة، وقعت عينيها عليه، رجل إيطالي يبدو في بداية عقده الخامس، ذو شعر بني اللون، وقد بدأت بعض الشعيرات البيضاء تتسلل إلى رأسه ولحيته، له بشرة سمراء يتخللها حمرة وعينين خضراوتين، يرتدي سروالًا من الجينز وقميصًا أبيض، أخذ ينظر إليهما بحب كبير، وقد التمعت عيناه بنظرة أبوية حنونة واتسعت ابتسامته حتى برزت التجاعيد المحيطة بعينيه، أخذت تتأمل تفاصيل وجهه وصدق ابتسامته في إعجاب، فقد أصبحت تستطيع أن تفرق جيدًا بين الابتسامة الصادقة وشبيهتها الزائفة، شعرت بسعادته تنتقل إليها كعدوى، وسحر ابتسامته يسري بداخلها، لدرجة جعلتها تبتسم دون وعي منها، التفت إليها ليجدها محدقة به وهي تبتسم، خفتت ابتسامته قليلًا، وظل محدقًا بها للحظات، ثم هز رأسه محييًا إياها،

هزّت رأسها ترد التحية، وما لبثت أن استمعت لصوت نداء يعلن عن وصول القطار الذي سيقلّها لمدينة ميلانو، حتى اختفت من أمامه في لحظة واتجهت نحو القطار.

جلست بمقعدها في القطار، وقد أخرجت هاتفها تبحث عن قائمة المطربة "هبة طوجي"، فلطالما كانت تلجأ إليها بالرحلات والطرق الطويلة، يأخذها صوتها الدافئ وموسيقاها ذات الطابع الرحباني إلى عالم آخر، عالم يجعل السكينة تعرف طريق قلبها، والحياة تدب في أوصالها، تلك المشاعر التي ظلت لسنوات محرومة منها، ولا تستعيدها إلا باستماعها إلى هبة طوجي وأغنياتها.

لفت نظرها عنوان لأغنية لم تستمع إليها من قبل، كانت تحمل عنوان "يمكن حبيتك"، كادت أن تبدأ في الاستماع إليها، لكنها عدلت عن ذلك حين رأته يظهر أمامها من جديد، ذات الرجل الأربعيني الذي حيّاها قبل قليل إثر تحديقها به وابتسامها غير المقصود له، هم بالجلوس بمقعده الذي يبعد عنها بخطوات قليلة، وأخذ يتصفح جريدته تارة ويسترق النظرات إليها تارة أخرى، بينما كانت هي تتململ في مقعدها وقد سيطر عليها الارتباك إثر نظراته المُبهَمة إليها، كان ذلك حين نهض تاركًا مقعده، وهو ينظر بعينيها مباشرة، ليجلس بالمقعد المجاور لها، التفت إليها وظل محدّقًا بها للحظات، ثم ابتسم وعيناه تجوب بعينيها قائلًا:

- لماذا كنتِ تنظرين تجاهي وأنتِ تبتسمين؟
- أعتذر إن كان ذلك أزعجك، ولكن بين كل الوجوه التي ظلت تتابع المشهد عن بعد، لم أرَ كصدق ابتسامتك، رأيت وجهك يفيض بسعادة تنبع من قلبك، ومثل تلك الابتسامات لا تخطئها عيناي، شعرت بسعادتك تغمرني.

ترددت قليلًا ثم أكملت قائلة: واعذرني إن قلت لك إني كدت أحسدك على تلك الابتسامة، فقد ضلّت السعادة طريقي منذ زمن بعيد، ولم أعرف الابتسام منذ أعوام.

- لماذا وأنتِ تملكين ابتسامة يهتز لها القلب؟

شعرت بالخجل يعتريها إثر سماع تلك الكلمات التي لم تتردد على مسامعها منذ زمن مضى، ولكنها تظاهرت بعدم الاكتراث، وأردفت قائلة:

- هل لديك متسع من الوقت للاستماع؟
- لدينا خمس ساعات، احكِ ما تشائين.
- أنا من أصل سوري، نشأت بإحدى دور الأيتام بدمشق، لم أتساءل يومًا عن شيء بقدر ما تساءلت عن عائلتي، مَن والداي، أين ذهبا، لماذا تركاني، تُرى أي منهما أشبه؟ أسئلة كثيرة كانت تفتك برأسي كل ليلة ولكن دون جدوى، عندما أصبحت في العاشرة تبناني زوجان لم ينعم الله عليهما بنعمة الإنجاب، أحسنا تعليمي وتربيتي، وعندما أصبحتُ في الثالثة والعشرين من عمري تزوجت من ضابط بالجيش، أحببته كثيرًا رغم شدته في بعض الأحيان،

هكذا كانت حياتي حتى تبدل الحال منذ خمس سنوات عندما اندلعت الحرب بسوريا.

- بالتأكيد كان أمرًا صعبًا.
- أنت لا تعلم كيف تكون الحياة وأنت تحت القصف، أن تعتاد أصوات الرصاص والانفجارات لدرجة أنها لم تعد تؤثر بك أو تثير الذعر في نفسك، أن تلقي التحية على جيرانك اليوم وأنت لا تعلم إن كنت ستراهم في الغد وهم ما زالوا على قيد الحياة أم سيكون قد واراهم الثرى!
- وماذا عن عائلتك؟
- قاطعني والداي بسبب اختلافهم مع زوجي، ثم هربا إلى مصر ولم أعد أعرف عنهما شيئًا.
- وزوجك؟
- كان ذلك كارثتي الكبرى، أصبح متعجرفًا قاسٍ، وأصبحت أخشاه أكثر من أي شيء، أشعر بالطمأنينة في غيابه أكثر مما أشعر بها في وجوده، يرتعد جسدي عند سماع خطواته داخل المنزل، وأشمُ به رائحة الدم، لم أحتمل الحياة معه، وعندما طلبت الطلاق منه، كان ردّه أنه هو من تنازل حين تزوج لقيطة مثلي، لا يعلم لها أصل ولا من أين أتت، ورغم كل ما تعرضتُ له من إهانة، أصررتُ على الطلاق، وقد كان، ولكن بعد أن أجبرني على تبرئته من جميع مستحقاتي، تركت كل شيء خلفي وجئت إلى هنا عازمة على أن أمزق دفاتري القديمة وأبدأ من جديد، وحدي، عملت كنادلة في

أحد المطاعم في بداية الأمر، وحاليًا أعمل كموظفة استقبال في أحد الفنادق الصغيرة، ومن آن لآخر أدخر مبلغًا من المال لأكتشف مكان جديد وحدي أيضًا وهذا ما أتى بي إلى نابولي.

- ألا تسأمين وحدتِك؟
- أحيانًا، ربما أكون اعتَدتها، أو اعتادتني، لا أعلم، ولكن أن تشعر بالوحدة وأنت بمفردك أهون كثيرًا من أن تشعر بها وأنت بين أقرب الناس إليك.
- أعتذر، لم أكن أود أن أذكركِ بكل ذلك.
- لا تعتذر، أنا لم أنسَهم، أنا تناسيتهم فقط، أو بالأحرى أصبحت أتجاهل ذكراهم، كما أن المرء يحتاج أحيانًا أن يُذكّر نفسه بما حل به، أن يتحدث عن آلامه وما يضيق به صدره لعله يرفع عنه ولو قليلًا مما يحمله، وحتى لا ينسَ من يكون ولا يكرر سقطاته مرة أخرى، قد يخجل البعض من قصة كقصتي، ولكنني لا أجد فيها ما أخشاه، فأنا لم أختَر والداي، لم أختَر ظروفي، وما حدث لي يقلل من شأنهم وليس من شأني أنا، ألمي قد يكون أنهكني ولكنه لم يقضِ عليّ بعد، فأنا ورغم كل شيء ما زلت أؤمن ببداية جديدة.

أخذ ينظر إليها في ذهول يشوبه التقدير، ويتخلله الفخر، ولكنه لم يجد تفسيرًا مقنع لذلك الفخر الذي يشعر به إثر ما سمعه منها، فالإنسان عادةً يشعر بالفخر حيال شخص آخر في حالة واحدة فقط، وهي أن يكون ذلك الشخص منه.

ظل يتساءل، تُرى ممَّ خُلِقَت هذه المرأة، كيف لها أن تمر بكل ذلك وتظل بهذا القدر من القوة والصلابة؟! تتحدث عن نفسها بفخر شديد، ومع كل كلمة تتفوه بها لا تثير دهشته فحسب، بل وتثير إعجابه أيضًا.

أفاق من شروده بصعوبة ليعود ويسألها من جديد:

- ولكن أخبريني، لماذا لم تذهبي إلى إحدى البلاد العربية كما فعل الكثيرون؟
- البلاد العربية التي تتحدث عنها تلك تخذل أبناءها في اليوم مائة مرة، فماذا عساها تفعل باللاجئين؟ الوطن العربي يا صديقي مليء بالخيبات، وأنا من الخيبات قد اكتفيت.

خرجت من صدره تنهيدة عميقة، ثم أكمل قائلًا:

- تتحدثين عن الخيبات العربية وكأن العالم يخلو من الخيبات، فثمة خيبات الأوطان بريئة منها، يُلصقها بها الفاسدون ومحبي السلطة وهم المسؤولون عنها، لتصبح أوطاننا كبريء حُكِم عليه بالإعدام وهو لا يملك من أدلة براءته شيء، صدقيني الأمر يتعلق بنا نحن، ببني البشر وليس بالوطن العربي فحسب، توحّشت النفوس كثيرًا وتأصل بها الطمع والقسوة، كما أنكِ لو تحققتِ جيدًا ستكتشفين أن ما من إنسان بهذا العالم حياته تخلو من الخيبات، الملوك والأمراء، رغم كل ما ينعمون به من رغد العيش، قلوبهم لا تخلو من الأوجاع، ليس بالضرورة أن يكون سبب الخيبات، وطن خذل أبنائه، فالألم لا يفرق بين عربي وأجنبي، غني أو فقير، فعندما يطفح الكيل ويضيق الصدر بما يختلج به،

نتألم جميعًا ذات الألم، نبكي الدموع نفسها، ونصرخ ذات الصرخة.

ابتسمت لحكمته ورجاحة عقله، لا تعلم لماذا تشعر بكل هذا الارتياح وهي تتحدث إليه! فهي عادةً لا تودع ثقتها بأي شخص بسهولة، ماذا حدث لها؟ تحكي حكايتها وتعترف بخبايا قلبها التي لم تتحدث عنها منذ طوت تلك الصفحة ورحلت، لغريب لم تلتقِ به سوى منذ ساعات قليلة، ولكنها تشعر بألفة غريبة تجاهه لا تعلم مصدرها، ألفة تجعلها لا تمانع أن تسكب كل ما بداخلها أمامه دون خجل.

تجاهلت سيل الأسئلة الذي أخذ يتوالى على قلبها، بينما فشل عقلها في إيجاد إجابة لأي منها، وعادت تسأله:

– أتعني بذلك أن حياتك أيضًا مليئة بالخيبات؟

صمت قليلًا ثم عاد يكمل حديثه:

– منذ عامين، فقدت كل شيء، بعد أن كنت أنعم بحياة مستقرة، لديّ عائلة، زوجة وأبناء، أمتلك مصنعًا للأثاث وأحيا بمستوى اجتماعي جيد، فجأة تعرضت لأزمة مادية أطاحت بكل شيء، وفقدت إثرها مصنع والدي الذي أنشأه بكده واجتهاده، وتوليت أنا إدارته بعد تقاعده، تُوفي أبي إثر الصدمة التي لم يحتملها قلبه المريض، أما زوجتي فلم تتحمل ظروفي الصعبة وضيق يدي، وآثرت الانفصال عني، حتى أبناءي اختاروا أن يرحلوا برفقة والدتهم، أصبحت لا أملك قوت يومي، عملت لدى أشخاص كانوا بيوم من الأيام أحد عمال مصنعي، ظللت أعمل حتى بدأ

يتحسن وضعي تدريجيًا وأخيرًا أسست مشروعًا جديدًا بمساعدة أحد أصدقائي، ابتسامتي التي كدتِ تحسدينني عليها منذ قليل، كنت أظن أنها لن تعرف الطريق إلى ثغري مرة أخرى، فالابتسامة الصادقة لا تعني دائمًا حياة مثالية، خالية من الأوجاع، بل أحيانًا تكون ابتسامة من استطاع أن ينجو بنفسه رغم كل ما أصابه.

عاد برأسه إلى الخلف، وصدرت منه تنهيدة عميقة ثم ابتسم في ارتياح ونظر إليها وعلى وجهه ذات الابتسامة قائلًا:

- أتعلمين! لو كان أحد أخبرني من قبل أن سيأتي يوم، أقُص به قصتي على شخص لا أعرفه ولا يعرفني جيدًا، لم أكن لأصدقه.

أجابته معتقدة أنها أخيرًا وجدت تبريرًا مقنعًا لذلك الشعور الغريب الذي أخذ يتملّك منها شيئًا فشيئًا:

- معَك حق، وأنا مثلك، ولكن نحن كذلك، يسهل علينا أن نتحدث عما مررنا به للغرباء، على أن نتحدث عنه لمن يعرفوننا جيدًا، نصبح معهم أكثر جرأة ونحن نتحدث عن ماضينا وما نشعر به، ربما لأننا نعلم أنهم لن يكترثوا لأمرنا، لن يفشوا أسرارنا، لن يجلدوننا بأسواط انتقاداتهم ويسترسلون في إصدار أحكامهم علينا، بل سيفرغوا آذانهم ويلقوا من فوق عواتقهم كل ما استمعوا إليه بمجرد أن يصافحوننا موَدِّعين ويديروا ظهورهم إلينا، وهم على يقين أننا لن نلتقي بهم مرة أخرى.

ربما كانت وجهة نظرها صائبة، ففي أحيان كثيرة نجد غرباء قد يكونوا أكثر رحمة بنا ورأفة بحالنا عن أولئك الذين اقتسمنا معهم أيامنا

وشاركونا أحلامنا، ولكن رغم كل ذلك، لم يستطع أن يتجاهل قلبه الذي انقبض عندما سمعها تقول "لن نلتقي مرة أخرى" ولا عقله الذي وجده لحظتها يندد رافضًا كلمة "غرباء"، وبالرغم مما يقره المنطق بأنهما حقًا غرباء، إلا أن ذلك قد يكون بالنسبة لها فقط، أما هو، فقد كان الموقف بالنسبة له يختلف عنها تمامًا!

أجابها مباغتًا: لقد قلت لكِ شخص لا أعرفه ولا يعرفني جيدًا، ولكني لم أقل غرباء.

- ولكن، ألسنا غرباء؟
- هز رأسه نافيًا ثم أكمل قائلًا: وعندما التقيتِك اليوم أدركت أن القدر قد منحني أخيرًا الفرصة التي لطالما انتظرتها، لأتحدث معِك وأقُص عليكِ قصتي.
- ابتلعت ريقها وقد كست الدهشة ملامح وجهها وأطلّت الحيرة من عينيها، ثم تساءلت قائلة: وهل التقينا من قبل؟؟
- ابتسم وهو ينظر بعينيها الحائرتين، وقال: عندما رأيتِك تنظرين نحوي وأنتِ تبتسمين، ظننت أنكِ تذكرتيني.

قضب جبينها ونظرت إليه مستفهمة في انتظار ولهفة ليستأنف حديثه، فأكمل قائلًا: منذ عامين، أتى إلى المطعم الذي كنتِ تعملين به رجل في حالة يُرثى لها، أخبرِك أنه جائع ولكنه لا يملك ثمن الطعام، فما كان لكِ سوى أن قدّمتى له الطعام ودسستي النقود له بين الأطباق، النقود التي فاقت قيمتها ما أحضرتِ له من الطعام بكثير، أتذكرين ذلك؟

- نظرت إليه في شرود وأجابته وهي مُتلهّفة ليكمل حديثه: نعم.

- أشار إلى نفسه وذات الابتسامة تعلو شفتيه: إنه ماكث أمامك.
- ابتسمت غير مصدقة وهي تتأمله من جديد، كأنها لتوها قد رأته أو ربما بدأت تراه بنظرة مختلفة ثم سألته: أنتَ؟؟ ولكن كيف تذكرتني؟
- نحن لا ننسى اثنين، من أحببناهم بصدق وخذلونا، ومن مدّوا إلينا يد المساعدة دون أن ينتظروا منّا المقابل.

أكمل قائلًا: عندما تحسّنت أحوالي المادية، ذهبت إلى المطعم الذي كنتِ تعملين به، لأرُد لكِ ديني، فأخبروني أنكِ تركتِ العمل هناك ولا يعلمون إلى أين ذهبتِ ولا أين تسكنين، ومنذ ذلك اليوم وأنا أتمنى أن ألتقي بكِ ولو لمرة واحدة لأرُد لكِ ديني وأخبركِ بكل ما قصصته عليكِ منذ قليل، وبالرغم من أن علاقتي بكِ لم تتعدَ دقائق قليلة وبضع كلمات، إلا أنني كنت أرى أنكِ الوحيدة التي يحِق لها أن تعرف كل ذلك.

نظر لها في امتنان ثم سألها: لماذا فعلتِ ذلك من أجلي؟

- لأنني بيوم من الأيام كنت بذات الموقف، جئت إلى هنا وأنا لا أملك أي شيء، لذلك شعرت بكَ وبقلة حيلتَك، ربما لأنك ذكرتني بألمي، رأيت بكَ نفسي وكأنني أمام مرآة، ذات النظرة، ذات الكبرياء الكسير، لذا رأيت أن وجب عليّ مساعدتَك، حتى وإن كنت لا أعلم من أنتَ وإن كان يمكنَك رد ذلك الدين أم لا.

أمسك يدها، ثم نظر بعينيها، نظرة بدت لها مختلفة عن سابقتها، رأت بها بريق لم ترَه بكل هذا الوضوح منذ بداية حديثهما، بل لم ترَه من قبل سوى بعينين رجل عاشق.

انحنى برأسه وهو مغمض العينين، وطبع على يدها قبلة، بدا كخادم مخلص يقدم فروض الولاء والطاعة إلى ملكته، رفع رأسه وعاد ينظر إليها من جديد وهو ما زال ممسكًا بيدها، ثم قال: كل كلمات الشكر تعجز على أن توفّيكِ حقِك.

سرَت بجسدها رجفة عنيفة إثر قُبلته تلك، ولكن كانت مفاجأتها حين شعرَت أنها لا تود ليدها أن تفارق راحة يده، ولا لأصابعها أن تنفك عن أصابعه، بل ربما وجدَت بتلك اللحظة شعور بالراحة يسيطر عليها، ويخدّر أطرافها، لم تشعر به من قبل.

أردفت وهي ما زالت ممسكة بيده قائلة: أنا لا أرى فيما فعلته شيء يستدعي الشكر، لقد كنت مجرد أداة سخرها الله لك بتلك اللحظة لتفريج أزمتك، ليس أكثر من ذلك.

نظر إليها محاولًا أن يقاوم رغبته الجارفة في عناقها، ثم سألها محاولًا تغيير دفّة الحديث: إلامَ كنتِ تستمعين عندما جئت وقطعت خلوتك بنفسِك؟

- كنت على وشك الاستماع لأغنية مطربتي المفضلة، الجديدة.
- هل تمانعين أن نستمع إليها سويًا؟
- بالطبع لا.

ضغطت زر التشغيل وشرعا في الاستماع إلى الأغنية معًا، ولكن ما نطقت به هبة طوجي كان صدمتها:

"على المحطة لمحته اتطلع فيّ كتير
الهوى البعيونه طير شعري الحرير
العيون اشتاقوا يتحاكوا من دون كلام
ما قدرا اتلاقوا طاروا برف الحمام
لفتة غريبة فيها عشق وأسرار
أنا حدّه قريبة لكن شو اللي صار
هالدخنة عليت وسمعت صوت الصفير
المحطة بسرعة فضيت وصار يقوى الهدير
بين الدخان رُحت وفليت
مع صوت التران غبت اختفيت
ويا ريت حسيت
أنا ما سألتك اسمك انت من وين
أنا ما حكيتك وحدن حكيوا العينين
ببلاد غريبة رسمتك حبي اللي ضاع
يمكن حبيتك هارب مني لوين"

اتسعت عيناها في ذهول، ما هذا؟! وكأن كلمات الأغنية كُتبَت من أجلها، فقد صدرت الأغنية منذ أشهر، ولكن لماذا لم تتعثّر بها من قبل؟؟ لماذا لم تستمع إليها إلا الآن تحديدًا؟ لماذا تشعر بكل كلمة تخترق قلبها، لماذا اهتز كيانها بأكمله حين سمعت هبة طوجي تصرخ

"يمكن حبيتك" وكأنها تجبرها على مواجهة واقع تُصِرعلى أن تتهرب منه؟

بدأت تشعر بدمعها يتراكم بعينيها ويؤلم مقلتيها، ومع أول دمعة سقطت لتلمس وجنتها، تحسست وجهها ثم أخذت تنظر لأصابعها المبللة بدموعها، ووجدت نفسها تبتسم رغمًا عنها، كانت تظن أنها تجردت من كل المشاعر، الحب والكراهية، السعادة والألم، فهي لم تبكِ منذ اشتعلت الحرب بسوريا ولو لمرة واحدة، وكأن القصف الذي أطاح بالمنازل وهدمها فوق رؤوس أصحابها، أطاح بما تبقى لها من مشاعر ولم يترك لها سوى الحطام، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك ما يؤثر بها مهما حدث، ولكن بذلك اليوم أدركَت أن قلبها ما زال على قيد الحياة، وأن الحطام ما زال بإمكانها أن تنبض وتشعر من جديد، فهي لم تشعر بكل تلك المشاعر المتضاربة في آن واحد من قبل، كانت تبكي كل ما حدث لها بحياتها ولم تبكِه وقت كانت الدموع تجمدت بعينيها واحتل الجمود قلبها، بينما بدأت ابتسامتها تتحول إلى ضحكات إثر ذلك الشعور الذي تملّك من قلبها ليعيده إلى الحياة مرة أخرى.

التفت إليها ثم نظر إليها في ذعر: ماذا بكِ؟

- لا شيء، ولكن الأغنية...
- تروقني الموسيقى كثيرًا، ولكني لا أفهم ماذا تعني الكلمات.
- تسرد قصة اثنين، يشبهوننا كثيرًا، التقيا بالقطار و...
- وماذا؟

كادت أن تنطق بها "ووقعا في الحب"، ولكن كبرياءها منعها، وأنقذها عقلها، شرقية هي، لن تبوح بها ولو تأجج صدرها بنيران ذلك الحب، تجاهلت سؤاله، ثم عادت تنظر إليه وهي تبتسم قائلة:

- ولكن أخبِرني، أتظنها صدفة؟

ابتسم وقد فهم سؤالها، ثم هز رأسه نافيًا وأجابها:

- بل آمنت بالقدر الذي جمعني بكِ، أتعلمين، يقولون إن حياة كل شخص كالقطارالذي نستقله هذا، ومراحل حياته كالمحطات التي يتوقف بها القطار، كلما توقف القطار، تركه البعض ليحل محلهم ركاب آخرين يكملوا الطريق إلى المحطات التالية، وهكذا، ولكن حين التقيتك اليوم يا سيدتي، أدركت أن مقعدك بقطاري لطالما كان فارغًا، في انتظار قدومِك الجليل، فقد خلق لكِ ولكِ وحدك.

اتسعت ابتسامتها وتوردت وجنتيها، ثم عادت برأسها إلى الخلف ونظرت إليه قائلة: أتعلم؟ منذ طفولتي وأنا كلما ضاق صدري بألمه، أو طرقت السعادة بابه، أرقص، أما الآن! فأنا أشعر بمزيج من الحالتين، ولا أشتهي شيء بهذه اللحظة كما أشتهي الرقص، فقط لو لم أكن بالقطار..

نظر إليها وقد التمعت عيناه بالجنون المُحبب، ثم جذبها من يدها قائلًا:

- انهضي.
- ماذا ستفعل؟
- قال ببساطة: سنرقص.

- ماذا؟ مستحيل، ركاب القطار سيحدقون بنا.
- إذًا، أغمضي عينيكِ.
- وإن سقطت؟
- لن أدعِك تسقطين، فقط تشبّثي بيدي، وثقي بي.

كان ذلك حين رفع صوته موجهًا حديثه إلى ركاب القطار، وهو ما زال ممسكًا بيدها قائلًا:

- عذرًا، ولكن صديقتي تشتهي الرقص، يمكنكم الانضمام إلينا إن شئتم.

رفع صوت الموسيقى إلى أقصاه، وبالفعل أغمضت عينيها، وأطبقت أصابعه على يدها برفق، خاصرها، والتف ذراعها حول عنقه وأخذا يرقصان، مغمضة العينين هي، ولكنها تكاد تراه، تتخيل نظراته ولفتاته، أفاقت على صوته يهمس بأذنها قائلًا: انظري حولك.

فتحت عينيها، واتسع فمها من هول المفاجأة، فخلال دقائق قليلة، تحول القطار إلى حفل راقص، نهض الجميع من مقاعدهم، شبابًا وكهولًا، وأخذوا يرقصون جميعًا على أنغام الأغنية، نظرت إليه في ذهول غير مصدقة ما يحدث حولها، وما لبث أن أفلتها من يده، حتى أخذت تدور حول نفسها في خفة كفراشة، أغمضت عينيها من جديد، ورفعت عنقها إلى أعلى، بدأت تميل بخصرها يمينًا ويسارًا في رشاقة لا

مثيل لها، وتحرك ذراعيها من أعلى إلى أسفل، وكذلك يديها وأصابعها الراقصة التي بدت له كأصابع عازف ماهر.

أخذ يتأمل هذه المرأة الثلاثينية التي تتراقص أمامه، يتأمل عينيها الكحيلتين، طبع الحسن الذي يزين ذقنها، وشعرها الأسود الذي يقف عند حدود ظهرها ويتناثر حول وجهها في غجرية، لفت انتباهه الخواتم التي تلتف حول أصابعها الأنيقة، والخلخال الذي يعانق قدمها، بدت له كإلهة إغريقية، أو ربما كساحرة تتمتم بتعويذتها، التي تجعله لا يملك سوى أن يقترب منها أكثر وأكثر، وهو مسلوب الإرادة، ولكن بالرغم من رقصتها تلك، إلا أنه شعر بها، شعر وكأنها تتراقص فوق جروحها وتسحق بقدميها آلامها.

ما لبثت أن انتهت من رقصتها، وتعالت أصوات التصفيق من الركاب، حتى أمسك بيدها وانحنى للجميع في مشهد مسرحي، نظرت له ملء عينيها، ثم تشبثت به وهمست له ودموعها تبلل عنقه: أشكرك، أشكرك على كل شيء.

أمسك بوجهها بين كفيه، وأخذ يمسح دموعها برفق، ثم ضمها إلى صدره ويده تداعب خصلات شعرها الثائرة، شعرت لحظتها أن ما حُرمت منه طوال أعوامها الثلاثين من دفء وأمان وجدته بين ذراعي هذا الرجل، وأن دونًا عن كل البيوت التي تنقلت إليها وسكنتها، لم تشعر أنها وجدت بيتها إلا حين وجدته، ولكن سرعان ما تبدد ذلك الدفء حين التصق وجهها ببرودة الصليب المعدني الذي يتدلى من عنقه.

رفعت رأسها عن صدره، وعادت برأسها إلى الخلف، نظرت للصليب نظرة قضب لها جبينها، وكأنها تذكرت شيئًا هامًا، شيئًا نسَته تمامًا منذ التقته، رفعت عينيها تنظر إليه وقد بدا الارتباك على وجهه أيضًا، أخذت عينيها تتجول بعينيه، وكأنها تستغيث به، ولكنها لم تجد بهما ما يطمئنها، عادت إلى مقعدها تجر قدميها، وهو خلفها منكس الرأس، وكأنهما فارسين سقطا لتوّهما من فوق جواديهما، بعد أن كانا في أوج انتصارهما.

جلسا وقد أطبق الصمت عليهما، أخذ كل منهما يصارع أفكاره، هي، لا تصدق ما ارتكبته من جنون، تراقص غريبًا بقطار على مرأى ومسمع من الجميع، رغم كل ما بدأت تشعر به تجاهه، وما تظنه يشعر به نحوها، إلا أنها اكتشفت أن ثمة حاجز يفصل بينهما ليس بهَيِّن، وهو حاجز الدين، هي لا تعلم إلى أين تقودهما الأقدار، تريده بجانبها، أن يكون له بحياتها مكان، ولكن قطعًا لن يتخلى أي منهما عن دينه من أجل الآخر.

أما هو، فقد فهم آنذاك ما كان يدور ببالها، كان يعلم أن الأمر ليس من السهل تجاوزه، أو حتى تجاهله، ولكنه لم يشأ لقصتهما أن تنتهي، فامرأة كهذه لا يتعثّر بها المرء بحياته مرتين، وكم كان من الصعب عليه أن يفرِّط فيها بعد ما وجدها!!

ولكن ما لم يختلفا عليه، أنهما بلحظة تجردا من كل الاعتبارات التي قد تحول بين شخصين، ما دينهما، بماذا يؤمنان، وإلى أي أرض ينتميان، تجردا من كل ذلك، وتذكرا شيئًا واحدًا فقط، بِمَ يشعران، فما كان لهما سوى أن تركا لروحيهما العنان، لتخرج روح كل منهما من قفصها، تنعم

بحريتها وتكون على ما هي عليه ولو لمرة واحدة، دون أن تشوهها فكرة الاختلاف أو يؤثر عليها أي انتماءات.

استقر القطار بمحطته الأخيرة، نزل كل منهما شاردًا، ثم التفتت إليه قائلة:

- سررت برؤيتك كثيرًا، لا أعلم كيف أشكرك.
- إسعادك دَيْن، وجب عليّ أن أوفيه.
- ولكن ما فعلته معي اليوم فاق دَيْنك بكثير، فقد أصبحت أنا المدينة لك الآن.
- ابتسم قائلًا: يمكنك رد الدين إن شئتِ.
- كيف؟
- بأن تقبلي دعوتي على العشاء غدًا.
- نظرَت له بعينين يملأهما التمني، والتمنع: دعنا من المواعيد المُسبقة، فإنها تُفقِد الأشياء مذاقها ومعناها، وغالبًا ما يتبعها الخذلان والفراق، دعها للقدر، فمواعيد القدر دائمًا أجمل.
- هز رأسه في تفهّم يشوبه الإحباط، ثم صافحها قائلًا: أنا فرانكو.
- وأنا أمل. ابتسمت ثم أكملت قائلة: غريب، عادةً، يتعارف الأشخاص بالأسماء أولًا، ثم يتحدثون عن حياتهم وأمورهم الشخصية، التي كثيرًا ما يغلب عليها الكذب والادعاء، أما نحن، تحدثنا عن كل شيء، وصدقنا بكل كلمة، ولم يكن أيٌّ منا يعرف اسم الآخر بعد!

- ابتسم وهو يملأ عينيه بها قائلًا: نعم، معكِ حق، ولكن نحن لا نشبه أحد، ولن يشبهنا أحد.

ابتسمت له في صمت، ثم أشارت له بيدها، وهمّت مغادرة، ظل ثابتًا بمكانه، لا يتحرك، ثم بدا وكأنه تذكر شيئًا، رفع صوته قائلًا:

- أمل، أنتِ لم تخبريني بعنوان الأغنية.
- نظرت بعينيه مباشرةً وقالت بثبات: ربما أحببتك.

ما لبثت أن قالتها حتى لوّحت له من جديد وهي تبتسم، واختفت، لم تنتظر أن ترى ردة فعله، أو ربما خشيت أن تراه، انصرفت وهي تتمتم بكلمات الأغنية، وقلبها يتمنى على استحياء أن يكون لها في لقائه نصيب.

أما هو، ظل واقفًا بمكانه مبهوتًا، يتابعها بنظراته، وهو يهمس لنفسه قائلًا: ربما أحببتك أيضًا، أيتها الشرقية العنيدة.

فقد كان يؤمن أنه سيراها مرة أخرى، ولكنه كان يأمل أنه حين يلتقي بها من جديد، يكون مقعده بقطارها لا يزال شاغرًا.

يا هوا بيروت

وقف الأستاذ كمال أمام مرآته يرتدي حلّته الأكثر أناقة، أخذ يتفقد ذقنه الحليقة ويصفف شعره الفضي بعناية، ليظهر في أبهى صوره رغم أعوامه الخمسين، يتأمل نفسه بعينيه العميقتين، يضع عطره ويقف حائرًا بين ساعاته، أيّ منهم يرتدي، وأي حذاء سيكون الأنسب! بدا مرتبكًا، مهتم لأدق تفاصيل مظهره على غير عادته، ولكنه ينتظر هذا الحدث الجليل منذ أيام، ولذلك فكان عليه أن يبدو بالمظهر الذي يليق بأهميته، لم يكن يعلم ما السر وراء كل ذلك التوتر الذي يسيطر عليه، ربما تلك الذكريات التي أخذت تتوالى على رأسه منذ صباح اليوم، بينما هو يقف عاجزًا عن ردّها أو حتى تجاهلها، أو ربما لأنه يفتقدها اليوم دونًا عن أي يوم مضى.

فتح خزانة ملابسه باحثًا عن ربطة العنق التي وقع اختياره عليها، أخذ يتجول بعينيه يمينًا ويسارًا باحثًا عنها، ولكنه جمد مكانه حين اصطدمت عيناه بشيء آخر، مذكرات زوجته التي طال بحثه عنها، لم تكن مغلقة

كما تركها آخر مرة، مد يده ليلتقطها، كانت مفتوحة على آخر ما كتبت، أخذ يتحسس موضع كلماتها، لامست أصابعه آثار لقطرات ماء قد جفت بعد أن اختلطت بالحبر لتضيّع معالم بعض الكلمات، لابد أنها دموع ابنته "ريما"، ولا بد أيضًا أنها من أخفت مذكرات والدتها التي يبدو أنها تعثرت بها وهي تعيد ترتيب أغراضه حتى تنتهي من قراءتها، فهي كذلك، كلما اشتاقت إلى والدتها تلجأ إلى أيّ من أشيائها، صورها أو متعلقاتها الشخصية، تجلس أمامهم مشدوهة لساعات دون أن تشعر بمرور الوقت، ولكن هذه المرة كانت تختلف، فقد كانت تقرأ مذكرات والدتها وتطلع على أسرارها للمرة الأولى.

جلس على حافة فراشه، وأخذ يقرأ آخر يومياتها.

20 كانون الأول ١٩٧٩

حبيبي كمال،

أكتب إليك الآن وقد أدرت الراديو، متجاهلة تلك الموجات التي لا تبث سوى الأخبار المضللة، في محاولة للبحث عنها، لعلي أتعثر بصوتها، فما من أحد يمكنه أن يهدئ من روعي في غيابك سواها، فعندما أستمع إليها أشعر وكأنها أم حانية تربت على كتف ابنها المذعور، وحدها من تستطيع أن تجعلني أنسلخ ولو لعدة دقائق عن ذلك الشعور البغيض بالذعر واقتراب الموت المحقق، الذي أصبح يحكم قبضته على قلبي طوال الوقت، لأحلِّق معها بعيدًا، بعيدًا عن طلقات الرصاص ودخان الحرائق، بعيدًا عن أصوات العويل وصمت

القبور، بعيدًا عن سماء مدينتنا، لنذهب إلى مكان لا يسكنه سوانا، فقط أنا وأنت وريما، وصوتها، بالتأكيد تعلم عمن أتحدث، إنها السيدة فيروز.

أتَذكُر تلك الحفلات والمسرحيات التي اعتدنا أن نحضرها سويًا؟ أتذكر عندما كنا نلتقي لنستمع إلى أحدث أغنياتها معًا، حتى أصبح لكل أغنية ذكرى تجمعنا وتجمعها معنا؟ كنا نتبعها أينما كانت، وكأن صوتها هو البوصلة التي نهتدي بها إلى سلام قلوبنا.

وأخيرًا عثرت عليها، ولكن المحطة مشوشة، انتظر، سأتحقق أي أغنية هذه، إنها أغنية "يا هوا بيروت"، لقد أحببتها كثيرًا، كعادتي مع كل أغنيات الأخوين رحباني، ها هي بدأت تغني:

"سكّروا الشوارع عتّموا الشارات
زرعوا المدافع هجّروا الساحات
وينك يا حبيبي بعدك يا حبيبي
صرنا الحب الضايع صرنا المسافات
اشتقنا للأيام السعيدة أيام السهر عالطريق
عجقة سير ومشاوير بعيدة ونتلاقى بالمطعم العتيق
يا هوا بيروت يا هوا الأيام
ارجعي يا بيروت بترجع الأيام
إجا الصيف التاني والقمر مكسور
قَوْلك رح تنساني يا حبي المقهور
رجعت على بيتي ما لقيتو لبيتي

دخان وزوايا لا وردة ولا سور"

آه يا كمال، أشعر وكأن تلك الكلمات قد أضرمت النيران بما تبقّى بداخلي من ثبات وقدرة على تحمُّل الموقف، أتَذكُر عندما كنا نتسكع بالشوارع لساعات دون أن ندري إلى أين؟ أتذكر كيف كنا نشكو من الزحام المستمر ليلًا ونهارًا؟ أتذكر حين كانت مدينتنا صاخبة، تضج بالحياة؟ ما زالت صاخبة أيضًا، ولكن صخبها أصبح نابعًا من أصوات المدافع وطلقات الرصاص، وبدلًا من أن تضج بالحياة، أصبح الموت هو روتينها اليومي.

عطر شجرة الياسمين الذي اعتدت أن يحمله إليّ نسيم الليل، حل محله رائحة البارود، الأسوَد أصبح موضة الصيف والشتاء، النساء جميعهن يتّشحن بالسواد، كل البيوت أدركها الفَقْد، بين قتلى وجرحى ومفقودين، حتى المباني، صبغها غبار الحرائق الأسود، ونخرها رصاص الأسلحة، استحال لون مدينتنا من الأخضر النضر إلى الأسود القاتم، أصبحت بيروت تبدو كأرملة باهتة، أو ربما أم ثكلى كل يوم تفقد ابن من أبناءها، حتى أعلنت حدادها الدائم وصار الأسود هو زيّها الرسمي.

لا أعلم كيف وبعد كل ذلك مازال مسلسل الموت مستمرًا، ألا يرون كل ما فقدناه وما زلنا نفقده؟ ما ذنب من لم يحمل السلاح يومًا وقُتل لمجرد أنه وُلد لأب مسلم أو أب مسيحي؟ بالنهاية كلنا نتضرع إلى الله، كلنا ندعوه ونصلي له ونرجو رضاه رغم اختلاف أديانناً ومذاهبنا.

اليوم يكون قد مر على سجني الإجباري ثمانية أيام بعد أن اشتد القصف علينا وعلى الأحياء المجاورة، الطرقات شبه خاوية، لا يمر بها سوى المسلحين أو بعض المتسللين، أحيانًا أتساءل، تُرى أين ذهب سكان هذه المدينة؟ أتُراهم قد رحلوا عنها جميعًا؟ أم أن جميعهم صاروا أمواتًا ولم يعد يسكن هذه المدينة سوى الأشباح؟!

تُرى أين ذهب أصدقاءنا؟ ماذا حل بهم؟ الخطوط مقطوعة، وما من وسيلة اتصال تمكنني من الاطمئنان على أيّ منهم، أو معرفة أخبارهم. أتُراهم ما زالوا على قيد الحياة؟ أم يكون قد واراهم الثرى كغيرهم وصاروا في تَعداد الأموات؟ أم تُرى البعض منهم قد يكون حمل السلاح وانضم لحواجز الموت المسلحة، يرى في اختلاف المكتوب بخانة الديانة ببطاقات الهوية سبب كافي لينهي حياة شخص آخر، وذنب يجب العقاب على اقترافه.

نسيت أن أخبرك، منذ عشرة أيام كنت قد ذهبت لأبتاع بعض لوازم المنزل، وكنت بالقرب من ساحة الشهداء، مررت بذلك المحل الذي كنت دائمًا ما تبتاع لي الورود منه، ذلك الذي كان يُدعى "زهور بيروت"، نعم، كان.

مررت به، ولكني لم أجد منه سوى حطام، بقايا الزجاج المهشّم متناثرة على الطريق، وأوراق الورود بين ممزقة ومتفحمة مبعثرة تحت أقدام المارين، وكأن الحرب تأبى أن تترك لنا أيًا من مظاهر الحب والسلام، ظللت واقفة، أتفقّد حال المكان في حسرة، تذكرت ذلك البائع العجوز الذي كان يستقبلنا دائمًا بوجه بشوش وعينين باسمتين تتابعاننا خلسة

من خلف نظارته الطبية وهو ينتقي لنا الزهور وينزع عنها أشواكها بعناية، لم يكن يتحدث إلينا كثيرًا، ولكنه كان شاهدًا على الكثير من لحظات الحب والخصام التي جمعتنا. أتُراه ما زال حيًا أم مزق الرصاص قلبه كما مزق أوراق زهوره؟ لم أعد أدري إن كانت هذه الحرب قد نشأت بين طرفيّ نزاع أم أن الجميع قد شن حربه على كل ما هو جميل.

في طريق العودة، مررت بمنزل صديقتي "نهاد" تلك التي كانت ترافقني إلى دروس الباليه، بالتأكيد تذكرها، لقد التقيت بها كثيرًا، لم أرَها منذ عامين تقريبًا، وددت لو أصعد إليها لأطمئن على أحوالها، بدت لي فكرة فقدانها مرعبة، ولكني لم أجرؤ على الصعود، ليس بعد ما حدث بآخر لقاءاتنا، حين ذهبت لأصافحها وعندما رأتني أخذت تصرخ بوجهي، وتردد كلمات كالتي يرددها الأغلبية حاليًا عن الدين والثأر، بدّلتها الحرب كما بدلت الكثيرين، نسيَت كل ذكرياتنا سويًا وأيام طفولتنا، ولم تتذكر سوى أنني لست على دينها، لكني وبالرغم من كل ذلك إلا أنني أعلم أنها ستعود إلى رشدها يومًا ما، ما زلت أثق بمعدنها الطيب وأفتقدها كلما تذكرت إحدى نوادرنا معًا، أتعلم؟ بيوم من الأيام تسللنا سويًا إلى مسرح المدرسة الذي كان قد تم تجهيزه استعدادًا لحفل نهاية العام الدراسي، أخذنا نرقص ونرقص، وبينما أنا أدور اصطدمت بإحدى قطع الديكور التي ستكون بخلفية أحد الاستعراضات، فسقط أرضًا، ليتحطم ولم يعد يصلح للعرض، وعندما جاءت المعلمة، ادعت أنها من فعلت ذلك وفُصلت من المدرسة لمدة

أسبوع لأنها كانت تعلم جيدًا كم كان أبي صارمًا، فخشيت أن ينالني عقابه، ألم أقل لك إني أثق بمعدنها الطيب؟

آه، أين أنت يا كمال؟ شهر قد مضى، وأنا ما زلت أجهل أين أنت، أعلم أن عملك كمصور صحفي، وخصوصًا في هذه الظروف يحتم عليك أن تكون في قلب الأحداث، ولكني أموت في كل يوم أقضيه هنا بدونك، أُمسك بسماعة الهاتف، وأشكر الله على تلك الخطوط المقطوعة، أحاول أن أقنع نفسي بأنها السبب وراء انقطاع أخبارك، بالتأكيد حاولت مرارًا أن تتحدث إلينا أنا وريما، ولكن دون جدوى، لا أريدك أن تأتي إن كنت آمنًا حيث أنت، أخشى مرورك بطُرُق ينهال عليها القصف ليلًا ونهارًا، أو أن تتعثر بأحد الحواجز المسلحة، أتوق شوقًا لأن أملأ عيناي بِك، ولكن في ظل الظروف الراهنة، يكفيني أن أسمع صوتك، أو يطمأنني عليك أحد رفاقك، فكل ما أتمناه الآن هو أن تكون بخير، وأن تكون الحياة ما زالت تنعم بك وتنعم بها، وتكون أنفاسك الدافئة ما زالت تنبعث من رئتيك، وقلبك الذي لم أجد أأمن منه وطنًا ما زال ينبض بين ضلوعك.

اشتقت إليك كثيرًا يا كمال، وربما لذلك أوجه كلماتي إليك؛ لعل كلماتي هذه تُدخل بعض السكينة إلى قلبي، فأتوّهم وكأنني أُحدِّثَك، وأراك تقف أمامي وأنا أنظر إليك ملء عينيّ، أو ربما تحمل رياح مدينتنا الباردة كلماتي إليك حيث أنت، لعلك تشعر الآن بأنني لم أحتَج إليك يومًا بقدر ما أحتاج إليك بهذه الأيام، أحتاج أن أستمع إلى صوتك يعلو

فوق صوت الرصاص، وأن أستمد الدفء من ذراعيك؛ لأستعيض به عن الصقيع النافذ من خلال زجاج شرفتنا المكسور.

ريما أصبحت تسألني عنك كثيرًا، حتى سأمَت حججي الواهية، أسألها أن تتحلى بالصبر، وأنا قد تخلى الصبر عني، بالأمس وجدتها ترسم لوحة تجمع ثلاثتنا معًا، وعندما سألتها، قالت لي إنها تنتظر عودتك لنذهب سويًا لمكان بعيد، ليس به حرب، مكان يمكنها أن تلعب وتلهو به دون أن تخشى أن تصيبها رصاصة طائشة، كل ذلك قالته ريما بنت السادسة، أعلم أن الأمر يفوق طاقة احتمالها بكثير، بالبداية كان جسدها كله يرتعد عند سماع دوي القصف وأنفاسها المذعورة تتلاحق مع تلاحق أصوات الرصاص، أما الآن، أشعر وكأنها تبلّدت، كلما استمعت إلى أصوات الأعيرة النارية، أجدها تجر قدميها كامرأة عجوز متجهة نحو الدهليز في صمت، لتجلس وتظل محدقة في الظلام دون أن تنبث شفتيها بكلمة حتى ينتهي القصف، وكلما رأيتها هكذا وددت لو أخبئها بقلبي، أو ربما أن تعود جنينًا بأحشائي، لعلي أرحمها وأرفع عنها عناء الحياة بساحة حرب.

أراها قد كبرت فوق عمرها خمسين عامًا، وأخشى عليها كثيرًا من وطن كوطننا هذا، أبسط حقوق الإنسان به أصبحت رفاهية يتوق إليها كل فرد، أخشى عليها من طفولة مسلوبة، ومستقبل مجهول، أخشى أن تنشأ كارهة لوطنها، فأنا رغم كل ذلك، لم أفكر يومًا في الهرب، لأنني بالرغم مما عانيته وما زلت أعانيه أنا وغيري كثيرون، إلا أنني ما زلت أحب وطني، فنحن إن تخلينا عن وطننا في كبوَته، لن نستحق أن نشاركه

احتفالاته يوم يعلو اسمه في سماء الحرية من جديد، كل يوم قبل أن أغفو أدعو الله أن أستيقظ لأجد كل هذا قد انتهى، لا حرب، ولا مسلحين، ولا قتلى، تُرى متى نفيق من هذا الكابوس البغيض؟ متى ينتهي كل هذا الجنون؟

بالأمس أدرت المسجل، وحاولت أن أرقص رقصتي التي لطالما كررتها بعروض الباليه السابقة، لعلي أنفض عني غبار الخوف والألم، ولكني لم أستطِع، وبالرغم من الأثر السئ لذلك على نفسي، إلا أنني لم أتعجب، فكيف لي أن أقف على أطراف أصابعي بمنتهى الثبات، وقد خارت عضلاتي واضطربت أعصابي من شدة الذعر، وكيف لي أن أشد قامتي، وقد بِت أسير محنية الظهر حتى أتحاشى الرصاص الذي قد يخترق نوافذ بيتنا ليستقر بجسدي أو بجسد ابنتي بأي لحظة، وكيف لي أن أرفع رأسي إلى أعلى، وأنا أشعر بالذل والهوان في كل دقيقة تمر، وأنا وريما مختبئتين كالجرذان، تعبت يا كمال، وكل ما يمكنني فعله الآن هو أن أصلي كثيرًا وأنتظرك.

الطعام قد نفذ، وريما جائعة، سأتركها لدى جارتنا مريم، وأذهب لأحضر لها بعض الطعام لتأكله، لا تقلق، إنني أسلك طرق جانبية آمنة، لن أتأخر، وأنت أيضًا، لا تتأخر أكثر من ذلك، فأنا أنتظرك بكل دقيقة، وإن جئت أنت ولم تجدني، فانتظرني، انتظرني دائمًا.

داليدا.

أخذ يقرأ كلماتها، ولم يلحظ أن سيلًا من الدموع قد كسى وجهه، حتى حالت دموعه بينه وبين رؤيته، هكذا يكون حاله دائمًا كلما قرأ رسائلها تلك، لذلك كان يقرأها فقط حين يكون بمفرده، حتى لا تلحظ ابنته ما يحل به إثر قراءته لتلك الرسائل، مر أسبوعان وهو يبحث عن تلك الرسائل، ولكن دون جدوى، وعندما وجدها اليوم، كان كمن وجد ضالته، شعر بشوق جارف يتدفق بداخله، ورغبة جامحة بأن يستمع إلى حديثها الذي لطالما أحبه كما أحبها، وأن يحدّثها عن كل ما يجوب بداخله، ويلقي بنفسه بين ذراعيها كما كان يفعل دائمًا كلما ثقلت أعبائه.

نهض من على فراشه وهو يجفف دموعه، اتجه نحو مكتبه، وفتح أحد الأدراج ليخرج منه مفكرته التي لطالما رافقته منذ رحيلها، لتصبح همزة الوصل بينه وبينها، يكتب إليها دائمًا حتى يشعر بأنه ما زال يمكنه الحديث إليها وقتما شاء، عساها كلماته تلك تخيّل إليه ولو لعدة دقائق أنهما ما زالا ينتميان للعالم ذاته.

هم بالبحث عن إحدى الصفحات الفارغة بدفتره الممتلئ بها، ثم بدا وكأنه تذكر شيئا، توقف عن تصفّح دفتره، ورفع صوته المختنق بدموعه، متجاهلًا هذه الغصة التي يشعر بها في حلقه، مخاطبًا ابنته الماكثة بالغرفة المجاورة:

- ريما، متي تكونين مستعدة للخروج؟
- ربما خلال نصف ساعة.

بدت على وجهه علامات الرضا، فما زال لديه متسع من الوقت ليثرثر لها ولو في سطور قليلة، فاليوم ودونًا عن أي يوم مضى، يريد أن يشعر بها إلى جانبه، لو كانت ما تزال على قيد الحياة، ما كان ليمر هذا الحدث بالنسبة لها مرور الكرام، لذا يود أن يحدّثها، لعله يشعر بها تشاركه تفاصيل هذا اليوم، أو ربما تصلها كلماته حيث ترقد.

استقر على إحدى الصفحات القليلة الفارغة بدفتره، أمسك بقلمه وبدأ يكتب.

17 أيلول ١٩٩٤

إلى من كانت وستظل حبيبتي حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة، داليدا:

ألَم تعديني بألا تتأخري؟ ها أنتِ قد تأخرتِ كثيرًا يا داليدا، ولكني بالرغم من ذلك، إلا أنني ما زلت أنتظرِك، خمسة عشر عامًا قد مروا على فراقك وأنا أنتظرك، أنتظر أن أراكِ بنومي ويقظتي، أن ألتقي بكِ في أحلامي، أو أتعثّر بطيفك في طريقي، ما زلت أشعر أنني لم أتخطَ فاجعة فقدانك بعد، أصحو كل يوم على أمل أن أسمع صوتك العذب يوقظني، أو أن أجدك بجانبي، فتكوني أول ما ترى عيناي، فخمسة عشر عامًا لم تكُن كافية لنسيانك، ولا أظن أن الباقي من عمري قد ينسيني إياكِ، فامرأة مثلك، ما من خسارة تضاهي خسارتها.

ما زلت أذكر ذلك اليوم المشؤوم حين عدت ولم أجدِك، عدت بعد أن قضيت ما يقرب من الشهر بالمستشفى بين الحياة والموت، غائب عن الوعي، وعندما أفقت من غيبوبتي، وجدت الخطوط مقطوعة، وما من

وسيلة تمكنني من الاطمئنان عليكِ أنتِ وريما، لم أنتظر لأتعافى، وغادرت المستشفى رغم جروحي التي لم تكن قد طابت بعد، وما زلت حتى يومنا هذا أجهل كيف عدت إلى المنزل سالمًا، ربما تكون عناية السماء قد حفظتني، فقط رفقًا بريما.

عدت لأجد منزلنا لأول مرة بأعوام زواجنا الثمانية خاويًا، ينقصه دفئك، وريما بمنزل جارتنا مريم، وقد امتنعت عن الطعام ودموعها قد جفت من مآقيها إثر غيابك الذي كان قد مضى عليه خمسة أيام، ظللنا ننتظرك أيامًا وأيام، أختلق أعذارًا لغيابك تنأى عن أي منطق، لم أكن أعلم آنذاك إن كنت اختلقها لأطمئِن ريما، أم لأطمئِن نفسي، لم أكُن أحسن حالًا منها، ولكن كان عليّ أن أتظاهر بالثبات من أجلها، ظللنا هكذا حتى كمّم القلق أفواهنا، واعتزل النوم جفوننا، ليتركنا نواجه عذاب غيابك، ومرارة الانتظار كاملَيْن، وجاء اليوم الذي كنت أخشاه، حين حادثني أحد أصدقائي يطلب مني الحضور للتعرف على جثتِك، وقتها فقط أدركت أن دهرًا من الانتظار سيكون أهون آلاف المرات من أن أعثر عليكِ، وألقاكِ، ليكون ذلك هو لقاءنا الأخير، لقاء خالٍ من تلك النظرة التي لطالما عشِقْت، ووداع لا وداع فيه.

ذهبت، وكنتِ أنتِ، ذات الوجه الملائكي، ذات السكينة التي تكسو ملامحك الهادئة، وبالرغم من تلك الجروح المتفرقة بجسدك، إلا أنك كنتِ لا تزالين جميلة، عُدت، لا أعلم ماذا أقول لريما، الرعب قد أحالها لكهلة ضربها الشَيْب، لم تكُن لتحتمل المزيد من الفجائع، وبالتأكيد

كان يصعب عليّ أن أتركها تتشبث بالأمل في عودتك، لتفيق بعدها على كابوس فقدانك.

دلفت إلى المنزل الذي بدا موحشًا من دونك، أخذت أتلفّت يمينًا ويسارًا، وأنا أحاول أن أواجه حقيقة أنني لن أراكِ بأي ركن من تلك الأركان التي أسّسناها سويًا مرة أخرى، ولكن حضورك كان أقوى من تلك الحقيقة المخيفة، جلست ريما أمامي وعلى وجهها أسئلة كثيرة يأبى أن ينطق بها لسانها، ولكني عندما نظرت بعينيها المذعورتين، كنت قد اتخذت قراري، سنغادر إلى لندن، لم أكن لأحتمل أن أقف أمام تلك النظرة عاجزًا، أو أن أراها بعينيها مرة أخرى.

أعلم أن هذا لم يكن اتفاقنا، كنا قد عزمنا على أن نظل تحت سماء هذا الوطن حتى يوارينا ترابه، تعلمين كم من الأهوال شهدت، كم مرة كنت سأفقد حياتي، وبالرغم من كل ذلك، إلا أنني كنت على استعداد لتحمل المزيد، ولكنني يوم فقدتِك، أدركت أن واجبي تجاه ريما أصبح لا يقل عن واجبي تجاه وطني، إن لم يكن يفوقه، كيف كان سيصبح مصيرها لو كانت فقدتني أنا أيضًا، وخصوصًا في ظل عملي الذي لا يخلو من المخاطر؟ لم تكن لتتحمل أن تفقدني، ولا أنا كنت لأتحمل أن أفقدها، وهي آخر ما تبقى لديّ منكِ، كما كان عليّ أن أوفر لها الأمان الذي حُرِمَت منه خلال أعوامها القليلة، لقد ذُقنا شهد بلادنا، أمضينا بها أيامًا، ولدينا بها من الذكريات ما يجعلنا نتحمل مرار الجحيم من أجلها، أما

ريما، فلا، كنت أود لها أن تحيا حياة كحياتنا، أن تعود إلى وطنها يوم يمكنها أن تأسس به حياة مستقرة، حتى تتحمله في كبواته وتتشبث به إن عرقلته الأزمات، لا أن يكون ذلك الوطن بالنسبة لها بمثابة مقبرة كبيرة، تأتي الأوجاع دائمًا مصاحبة لذكراه.

حزمت أمتعة ريما، بينما أنا لم أأخذ سوى بعض ملابسي، و حقيبة كبيرة تمتلئ بكِ، صور ورسائل، متعلقاتك الشخصية، وتسجيلات عروض الباليه الخاصة بك، وبعض ثيابك التي كانت لا تزال تحتفظ بعطرك في ثناياها، لم أكن لأترك أي شيء يذكّرني بكِ، أردت أن أشعر بكِ ترافقينني أينما كنت، سرت وأنا أمسك بريما في يدي، وبيدي الأخرى أضم حقيبتك إلى قلبي، رفضت أن يحملها عني أحد، تعلمين أن الأشخاص يختلفون في تعريف الكنوز، كلٌ يقدرها حسب أهمية الأشياء بالنسبة له، منهم من يظنها أملاك، وآخرون يحسبونها أموال، أما أنا، فبعدك لم أعد أملك من الكنوز، سوى ريما، وتلك الحقيبة.

كبرت ريما، وكثرت أسئلتها، أصبحت ترغب في معرفة كل شيء عنكِ وعني، كيف التقينا، الذكريات التي جمعتنا، كل شيء، في البداية كنت أجيبها باقتضاب، حتى سأمت كلماتي المتقطعة وأصبحت تبحث عن الإجابات بنفسها، داخل تلك الحقيبة الممتلئة بذكراكِ، لترفع عني عناء الحديث، أحيانًا كنت أشعر بالأنانية وأنا أستحوذ على ذكراكِ لي وحدي، كنت أتسائل لمَ كل هذا الغموض وهي ابنتك ويحق لها أن

تعلم عنكِ المزيد كما كنت أعلم أنا عنكِ كل شيء! خصوصًا وأنكِ امرأة يعتز بمعرفتها كل من التقى بها، فما بالك بفتاة خُلقت من رحِمَها؟! ولكن حديثي عنكِ كان يؤلمني كثيرًا، أشعر الآن أنها قد غفرت لي، بل وربما التمست لي العذر أيضًا، تحسّنت الأحوال بيننا كثيرًا، وصرنا بمثابة صديقين مقربين، لا أب وابنته، ربما لأنها أصبحت تعلم جيدًا كم أحبها ولطالما أحببتك، وربما لأنها كبرت وصارت تعي كم هو أمر موجع أن يعشق الإنسان حد الجنون، ثم يفقد من أحب في لمح البصر، لتصبح أجمل أيامه كوابيس، والحديث عنها عذابًا يحرقه بناره.

آه لو كنتِ معي يا داليدا لترين كم صارت ريما تشبهك! أتذكرين حين كنتِ تخبريني بأنها تشبهني كثيرًا؟ لا أعلم كيف ولا متى صارت صورة مستنسخة منكِ، ربما كانت هذه رحمة الله بي لأستعيض بوجهها عن رؤياكِ كل صباح، ما زلت أذكر سعادتي حين طلبت مني أن تدرس فن الباليه لتصير مثلِك، طِرت بها فرحًا، وعندما رأيتها لأول مرة فوق خشبة المسرح وهي تتراقص في خفة كفراشة تذكرتِك وتذكرت لقاءنا الأول بأحد عروض الباليه التي كنتِ تقدمينها آنذاك، وقتها أدركت أن حب الباليه واحد بين أشياء كثيرة قد ورّثتيها لريما، وما أجمل ما ورثت!

خمسة عشر عامًا قد مروا، وبريق الغرب بكل ما فيه من أناقتة المفرطة، ونظامه الرتيب، الذي يختلف كليًا عن ما يسود بلادنا من فوضى وضجيج، لم ينسِني حنيني إلى وطني، جبالنا الخُضر التي يكسوها شجر الأرز، صوت السيدة فيروز المنبعث من كل بيت لبناني كل صباح،

زيت الزيتون وطعم الجلّاب ومناقيش الزعتر، دبيب الأقدام على أنغام الدبكة، شارع الحمرا وزحامه، رائحة البحر وجلستنا أمام صخرة الروشة نثرثر ونضحك حتى الساعات الأولى من الفجر، ربما تبدو تلك التفاصيل الدقيقة لبعض الأشخاص لا قيمة لها، أما بالنسبة لي، فقد كانت كافية لتجعلني أستغنى عن حياة الترف والتحضر، حتى أعود إليها من جديد، نعم، لقد عدت أنا وريما إلى بيروت منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع، أخبرتِك أنني سأعود يومًا ما، لم أكن أنوى أن تكون سفرتي نهائية، بل كنت قد عزمت أن أعود عندما يكون الوقت مناسبًا بالنسبة لريما، وأكون أنا قد اطمئنيت عليها، وها هي قد أنهت دراستها، وأصبحت شابة في الحادية والعشرين من عمرها، وحان الوقت لتعود وتستقر بوطنها، وأعود أنا إلى حيث يرقد جسدك، وتنتمي روحك.

لا أصدق أن هذا اليوم قد أتى، وأنتِ لستِ معي، اليوم يعود لبنان شامخًا من جديد، ويستعيد أمجاد عصره الذهبي، إنه اليوم الذي لطالما انتظرناه، وانتظره كل لبناني، لذا أكتب إليكِ، حتى أشعر وكأنكِ تشهدين هذا الحدث معي، ليس لأن لبنان قد عاد حرًا فحسب، بل لأنني ولأول مرة أجلس لأستمع إليها وأنتِ لستِ بجانبي، اليوم لبنان كله على موعد مع السيدة فيروز، بعد صمت قد طال، ودام عشرين عامًا، اليوم يسطع نجمها في سماء بيروت من جديد، لتعود وتشدو بأعذب الألحان، لا أصدق أنني بعد قليل سأكون على موعد معها بعد كل هذه الأعوام، ولكن بالرغم من سحر هذا الحدث الذي سيكون له رونقه الخاص، إلا أنه قطعًا سيكون له رهبته أيضًا، أخشى أن تقسو ذكريات الحرب عليّ،

وتستحوذ على عقلي، فتفسد عليّ ليلتي، أخشى أن يحملني صوتها إلى أيام جمعتنا، لم تعد موجودة سوى بذاكرتي، ولكن ما يسعدني حقًا هو حماس ريما لحضور الحفل، وفرحتها العارمة بلقاء السيدة فيروز لأول مرة وعلى أرض وطنها، وهي من نشأت على أغنياتها بالرغم من الغربة، وأنها من جيل الحرب، حان وقت الذهاب إلى الحفل، سأخبرك بالتفاصيل عندما أعود، أحبك أكثر من ذي قبل.

كمال.

توقّف قلمه عن النزيف، وعاد برأسه إلى الخلف، محاولًا أن ينظم أنفاسه التي أخذت تتلاحق، رفع عينيه لتصطدم بعينيّ ريما التي وقفت تتأمله في حب يشوبه الألم، اقتربت منه، وأغلقت دفتره دون أن تحاول استراق النظر لما كتبه، كانت تعلم أن هذا الدفتر هو عالمه الخاص الذي لطالما سكب به همومه، وائتمنه على أسراره ولحظات ضعفه، جذبته من يده برفق؛ لينهض من على مقعده، ثم أردفت قائلة:

– فلنذهب؟

هز رأسه بالموافقة، ولكنه ظل ممسكًا بيدها ليستوقفها، فالتفتت إليه من جديد، أخذ يتأمل شعرها الذهبي الطويل، زرقة عينيها الواسعتين، وفستانها الأسود الأنيق الذي يقف عند حدود ركبتيها، ثم تحسس وجهها في حنان وظِل ابتسامة قد بدأ يرتسم على وجهه، ثم قال:

– أتعلمين أنكِ أجمل من كل الأميرات؟

– اتسعت ابتسامتها الطفولية، ثم ردت قائلة: لست أجمل من رجل وامرأة أنجباني، وسوّياني أميرة.

اتسعت ابتسامته هو الآخر، ثم ربت على رأسها برفق، فتح الباب واتجها نحو الحفل.

وصلا إلى ساحة الشهداء حيث يُقام الحفل، ريما تتلفت حولها وهي في حالة انبهار، بينما هو يشعر بكل ذرة من كيانه تنتفض، أخذ يعلو بأذنيه صوت خطواته، ومع كل خطوة مترددة يخطوها إلى الأمام، يعلو بأذنيه أصوات أخرى تجعله يوَد لو يعود ألف خطوة ثابتة إلى الخلف، أخذ يتردد على مسامعه صوت كل رصاصة ظنها نفذت إلى قلبه، ثم أدرك بعدها أنها أفلتته ببضعة سنتيمترات، أصوات المدافع والطائرات، صوت زجاج غرفته وهو يتحطم فوق رأسه ورأس زوجته بعد أن اخترقه الرصاص، أصوات عويل النساء وتوسل الضحايا لقتلاهم، صوت السكون الذي يسبق العاصفة كلما هدأ القصف، حفيف الأشجار المخيف ليلًا، وكأنها قتيل يلفظ أنفاسه الأخيرة، أزيز المدرعات والعربات المصفّحة، كل ذلك كان يستمع إليه كل يوم، حيث يقف الآن بساحة الشهداء، التي كانت بوقت الحرب تمثل خط التماس بين بيروت الشرقية ذات الأغلبية المسيحية، وبيروت الغربية ذات الأغلبية المسلمة، على مدار أعوام الحرب التي قضاها ببيروت، وقت كان مصور صحفي أو بمعنى أدق، مصور حرب، يحمل الكاميرا، ويقف في مواجهة الموت، الذي كان دائمًا على بعد خطوات منه.

أفاق من شروده حين لاحظ شيئًا لم يبدُ غريبًا على عينيه، محل لبيع الزهور بنفس مكان ذلك المحل الذي كان يُدعى "زهور بيروت" ولكن هذا الذي يقف أمامه يُدعى "زهور الحرية"، دلف إلى المحل وبرفقته ريما التي قرر أن يهديها باقة من الورود التي تحبها، ولكن المفاجأة بالنسبة له، كانت حين وقعت عيناه على ذلك الرجل العجوز وولده الذي كان طفلًا حين كان يذهب إلى هناك برفقة داليدا، تعلّقت عينيّ العجوز بكمال وريما، وارتسمت على وجهه ذات الابتسامة الهادئة التي اعتاد أن يراها كمال منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، همّ كمال بمصافحته ثم أشار إلى ريما قائلًا:

– هذه ريما، ابنتي وابنتها.

صافحها الرجل محييًا إياها، ثم أكمل كمال قائلًا:

– لماذا زهور الحرية، ألم يكن يُدعى زهور بيروت؟

التفتت إليه ريما وقد أدركت أن هذا هو المحل الذي تحدثت عنه أمها في خطابها الأخير.

– أجاب العجوز قائلًا: أبسط شيء يفعله مَن تذوّق مرارة الفقد، وسُلِب حريته، هو أن يرفع إسمها عاليا يوم ينالها، ولو فوق محل يبيع الزهور، مرحبًا بك في عصر الحرية يا سيد؟

– كمال.

– تشرفنا يا سيد كمال.

صافحه كمال مودعًا، وانطلق ومعه ريما متجهين نحو مدخل الحفل، أخذا يبحثان عن أماكن مقعديهما بين الحشود، ولكن لفت انتباه ريما

امرأة في عمر أبيها تقريبًا، ذات شعر بني تسللت إليه بعض الشعيرات البيضاء، تتكئ على عصا خشبية، وما لبثت أن رأتها حتى جمدت بمكانها وظلت محدقة بها، أشارت ريما لأبيها تسأله إن كان يعرف هذه السيدة، نظر إليها كمال محاولًا أن يتحقق من ملامحها، بدا الذهول على وجهه، سألته ريما إن كان يعرفها، فلم يجِبها واقترب أكثر، حتى أصبح يفصل بينه وبينها خطوات قليلة، وريما تتبعهما بعينيها في ترقب، وقف كمال أمامها، ثم أردف في توجّس قائلًا:

- نهاد؟

اتسعت عينا ريما في ذهول، ثم أجابت السيدة وهي ما زالت تحدق بريما:

- كيف حالك يا كمال؟ أهذه ريما؟
- نعم.
- كيف أصبحت تشبه داليدا إلى هذه الدرجة؟

ثم أكملت موجّهة حديثها إلى ريما: تشبهين أمك كثيرًا حين كانت بعمرك، لم أعرّفك بنفسي، أنا نهاد، أمك كانت من أكثر صديقاتي قربًا إلى قلبي، وكان لها نصيب كبير من ذكريات طفولتي وشبابي.

- أضاف كمال في تأثر قائلًا: داليدا توفيت بالحرب منذ حوالي خمسة عشر عامًا.
- هزت نهاد رأسها في حسرة وهي تتنهد، ثم ردت قائلة: بالتأكيد أعلم ذلك.
- كيف علمتِ؟

- وكيف لي ألا أعلم وقد لفظت أنفاسها الأخيرة بين يديّ؟!
- صرخت ريما: ماذا؟
- قبض كمال على ذراع ريما، ثم أكمل محاولًا أن يبدو متماسكًا: كيف؟؟ لقد أخبرتني داليدا أن علاقتكما كانت قد ساءت كثيرًا منذ اندلعت الحرب.
- نعم، هذا صحيح، ولكن وبيوم مشؤوم، التقيت بها وهي في طريق عودتها إلى المنزل، ربما كانت عائدة من السوق، فقد كانت تحمل بعض الأكياس، نظرت إليّ ولكني أشحت بوجهي عنها، أدرت ظهري إليها، وأكملت هي سيرها، وفجأة اشتد القصف، وانهالت علينا طلقات الرصاص العشوائي، ولكني بتلك اللحظة، فوجئت أن داليدا لم تركض هاربة، لم تفِر إلى البيت، بل وجدتها تعود، متجهة نحوي، وجذَبَتني من يدي نحو أحد الشوارع الجانبية في محاولة للاختباء، ولكن الله لم يكتب لنا النجاة، أصبت أنا بساقي، ورحلت هي، صرت أصرخ بها وأنا أبكي "لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا لم تهربي؟"، ابتسمت لي، وكان آخر ما قالت "لأنكِ صديقتي، وهذا واقع لن تغيره الحرب أو اختلاف دياناتنا ببطاقات الهوية"، وأوصتني بكِ يا ريما، مررت بعدها بحالة نفسية صعبة، كان الموقف أكبر من احتمالي، كما أنني أصبت بعاهة تمنعني من السير بشكل طبيعي بقية حياتي كما ترون، عندما بدأت أخرج من أزمتي بحثت عنكما، ولكن أخبرتني إحدى سكان البناية أنكما قد رحلتما عن بيروت.

ظل كلًا من كمال وريما يستمع إلى كلمات نهاد وهو في حالة ذهول، أطبق الصمت عليهما، شعرا وكأنهما يعيشان لحظة وفاتها بكل تفاصيلها، يتخيلان نظرة عينيها، ذعرها والرصاص يخترق جسدها، وخوفها أن ترحل دون وداع أخير يجمعها بكمال وريما، قطعت نهاد صمتهما وقد أدركت ما يدور بذهنهما، ثم أردفت قائلة:

– أعتذر، لم أكن أود أن أذكّركما بتلك الأيام، فقد كانت صعبة علينا جميعًا، ولكن ها نحن بفضل الله نجتازها.

ربتت بيدها على كتف ريما، ثم أردفت قائلة: أمك علمتني درسًا لن أنساه، وأنا مدينة لها بحياتي، لذا وجب عليّ أن أرد ولو جزء بسيط من ذلك الدَيْن.

وجّهت حديثها إلى كمال وأكملت قائلة: أتسمح لي أن أزور ريما من حين إلى آخر؟

– هز رأسه موافقًا: بالتأكيد.

لوّحت إليهما مودعة، وانصرف كل منهما إلى مقعده، أخذ كمال يتلفت حوله محدقًا بالجموع التي جاءت من كل حدب وصوب، أربعين ألف لبناني لا يعلم أيّ منهم من المسلم بينهم، ومن المسيحي، أتوا من كل أنحاء لبنان شمالًا جنوبًا، ملتحمين تحت علم لبنان، بساحة الشهداء، حيث لم يعد هناك لا بيروت شرقية ولا غربية، بل بيروت واحدة احتشد الجميع تحت سماءها في انتظار سيدة، تُعد أرزة من أرز لبنان الشامخ، كان ذلك حين صمتت همسات الحاضرين، حل الظلام، وأضيئت الأنوار، ليعلو تصفيق الجمهور الذي طال اشتياقه إلى محبوبته، وتظهر

هي في ثوبها الأبيض لتبدو كحمامة سلام، جاءت رافعة رايتها البيضاء ليلتحم الجميع من حيث تفرقوا منذ ما يقرب من عشرين عامًا، مستظلين بصوتها الذي أخذ يصدح عاليًا بسماء لبنان وهي تغرد:

"سكّروا الشوارع عتموا الشارات
زرعوا المدافع هجّروا الساحات
وينك يا حبيبي بعدك يا حبيبي
صرنا الحب الضايع صرنا المسافات"

شعرت ريما بجسد أبيها الذي بدأ يرتجف مع بداية الأغنية، أطبقت على يده المرتعشة، بين أصابعها، واستدارت تنظر إليه، لترى بعينيه المحمرتين لأول مرة فيضًا من الدموع الذي أخذ ينهمر على خديه دون توقف، نظر بدوره إلى ابنته، ليجد ذات الدموع بعينيها، ضمته ريما إليها بقوة وأخذت تربت على ظهره، بينما هو يبكي زوجته كما لم يبكِها من قبل، وكأنه لتوّه قد فقدها، جففت ريما دموع أبيها، وهمست له وهي تبتسم بحنان قائلة:

- أما حان الوقت لتحدّثني عنها؟
- هز رأسه بالموافقة وهو يبتسم رغم دموعه قائلًا: بل وأنا أحتاج أن أتحدث عنها أكثر من أي وقت مضى، عندما ينتهي الحفل سآخذك إلى حيث كنا نجلس دائمًا، وأقص عليكِ ما تريدين، ولكن بماذا أبدأ؟
- بالبداية، البداية يا أبي.

ابتسم كلاهما وعلا صوتهما وصوت الحاضرين جميعًا مهللين وهي تشدو بصوت يرتجف له الأبدان:

"يا هوا بيروت يا هوا الإيام

ارجعي يا بيروت بترجع الإيام"

فها هي تعود بيروت، وتعود معها أجمل الأيام.

احكيلي عن بلدي

بأحد شوارع باريس الأنيقة، وبإحدى ليالي شتاءها الساحر، أخذت "سالمة " تسير، وهي لا تعلم ما وجهتها، وحدها تلك النشوى التي تتملكها في مثل هذا الوقت من العام، كلما حل موسم المطر، كانت تقودها.

ما زالت تجهل السبب وراء تعلّقها بهذا الفصل دون غيره، بالرغم مما يبعثه بداخلها من إحساس بالبرد، الشوق، والوحدة أحيانًا، ولكن ربما هذا هو السبب نفسه، وهو أنه يجعلها تشعر، حتى وإن كان هذا الشعور هو شعور بالألم. مرت عليها لحظات كثيرة ظنت بها أنها أصبحت امرأة متبلدة، بلا مشاعر، ولكن ما يلبث أن يحل الشتاء، حتى تجهز عليها الذكريات وما يصاحبها من ألم وحنين، لتدرك أن قلبها رغم كل ما شهد من أهوال لا يزال –أحيانًا ينبض بالحياة.

أخذت تنظر حولها، وتتأمل المطر الذي كان يهطل على الطرقات والمباني العتيقة في مشهد خلّاب، ليزيد من رونقها رونقًا، ويضفي فوق جمالها جمالًا.

بدأت تتمايل على أنغام المطر، وخطواتها أقرب إلى الرقص منها إلى المشي، زاد المشهد بهاءً صوت الأكورديون القادم من بعيد، وكأنه خلفية لهذا المنظر الرائع، مما جعلها تتمايل في خفة أكثر وتدور حول نفسها غير عابئة بالمارين من حولها، فهي لأول مرة منذ زمن بعيد تشعر أنها تتنفس، تحيا من جديد، كم اشتاقت لهذه المدينة الساحرة! التي أمضت بها أجمل سنوات عمرها، وربما هذا هو سر سعادتها؛ لأنها تشعر أنها تستعيد أيام نُقشت ذكراها بكل رُكن من هذه الأزقة والطرقات.

شعرَت أنها بحاجة لقدر من الدفء تستعيض به عن هذا البرد الذي أخذ يخترق عظامها، فدلفت إلى أحد المقاهي الأنيقة راغبة في تناول كوب من الكاكاو الساخن، لعل حرارته تسري في أوصالها وتمد جسدها بذلك الدفء المحبب.

أخذت تتأمل الجالسين بالمقهى من حولها، الشباب منهم و الكهول، العشاق والأصدقاء وأمثالها من الجالسين فرادى، بالتأكيد لكل منهم قصة هو بطلها مثلها تمامًا ولكن لكل قصة كواليس لا يعلم تفاصيلها سوى البطل دون غيره، استدارت باحثة عن النادل الذي كان لم يأتِ بمشروبها الساخن بعد، ولكن شيئًا ما رأته جعلها تجمد بمكانها، شيء جعلها تنسى البرد، وتنسى النادل، أخذت تتفحص ذلك الرجل الأنيق

ذو الشعر الرمادي والعينين العسليتين، الذي يجلس خلفها، والذي بدا أنه في منتصف عقده السابع تقريبا، وقد أمسك بيده اليمنى صحيفة، وبيده الأخرى سيجارته التي كان قد وضعها بين شفتيه، وتتجول بعينيها بين وجهه الذي تألفه، وعينيه بدفئها غير المبرر.

لم تشعر بنفسها إلا وهي تتكئ بيدها على طاولتها لتنهض، وتتجه نحوه بخطى مترددة، ظلت واقفة على بعد خطوات منه، تراقبه لعلها تتأكد مما يدور ببالها، ما هي إلا لحظات حتى رفع رأسه عن صحيفته، ونظر بدوره إليها، كانت قد رتّبت بذهنها بضع كلمات لتقولها معتذرة عن تطفّلها المبالغ فيه، ولكن ما لبث أن نظر إليها، حتى جمدت الحروف بحلقها، وتلعثمت الكلمات فوق لسانها، حاولت جاهدة أن ترفع صوتها الذي خرج منها بالكاد يُسمع، وسألته:

– طارق؟ طارق بو عزيزي، أليس كذلك؟

لم يكن يدري كم من الوقت قد مضى، ثوانٍ كانت أم ساعات وهو جالس بمكانه الذي لم يبرحه، يحدق بها، لم يُجِبها، بل نهض من مقعده واقترب منها، يتفحّص تفاصيل وجهها، بينما هي تراقب صدره الذي أخذ يعلو ويهبط بأنفاسه المتلاحقة، وابتسامته التي أخذت تتسع شيئًا فشيئًا لتنير عينيه قبل سائر وجهه، وما كان له سوى أن أحاط كتفيها بيديه ثم ضمها إليه برفق وهو يهمس قائلًا:

– سالمة.

سرت بجسدها قشعريرة أعادتها بالزمن عشرون عامًا وأكثر، إلى ذلك اليوم الذي ما زالت تذكره جيدًا، يوم وفاة أبيها الشاعر الفلسطيني

الراحل "رضا ناصيف"، حين عانقها للمرة الأولى، لم تكن تدري حينها إن كان قد ضمها إليه ليجعلها تشعر أنها ليست وحدها، وأن بإمكانها أن تلقي بآلامها وما يرهبها من مخاوف المجهول فوق عاتقه، أم هو الذي كان يرغب بتلك اللحظة أن يزُج بنفسه بين ذراعيها، ليطلق آهة عنيفة ينشَقْ لها صدره، فلم تكن هي وحدها مَن تبكي أبيها، بل كان يبكيه معها.

بكى فيه الصديق، والقدوة، والأخ الأكبر، بكى فيه أبيه الذي غادر الجزائر في ستينات القرن الماضي باحثًا عن الرزق في إحدى البلاد العربية، ثم توفى بعد مغادرتها بأشهر قليلة، وكأنه قد ترك روحه هناك، بكى فيه كل عربي اضطرته الظروف أن يغادر بلاده، فمات متأثرًا بأشواقه، دون أن ينعم بدفئها في حياته، أو تضمه أرضها، ويواريه ثراها بعد مماته.

جذبها من يدها، وهو ما زال ينظر إليها كالمسحور، ليجلِسها بالمقعد المقابل له، ويستمع لحديثها عما فعلته بأيامها، وما فعلته بها الأعوام.

أخذ ينظر إليها وابتسامته لم تفارق ثغره قائلًا:

- لا أصدق أنني أجلس برفقتِك الآن، وبعد كل الأعوام التي مرت، عشرون عامًا يا سالمة!
- أجابته مباغتة: بل أكثر من ذلك.
- متى جئتِ إلى باريس؟
- منذ ثلاثة أيام.
- نزهة؟

- لا، بل سأحيي حفل غنائي بالغد.
- اتسعت عيناه التي لمعت بالفرح، ثم قال: حقًا؟ لم أكن أعلم، فقد كنت خارج باريس منذ عشرة أيام، ولم أعد سوى بالأمس فقط.

صمت برهة، ثم تسائل مترددًا: إذًا، هل ما زال بإمكاني الحضور، أم أن جميع التذاكر قد نفذت؟ اشتقت لسماعك تغردين يا سالمة.

- لا، لم تنفذ بعد، وسأكون في غاية سعادتي إن حضرت.
- وأنا أيضًا، سيسعدني ذلك كثيرًا.

ابتسم ثم أكمل قائلًا: أتعلمين؟ كنت أسخر من أولئك الذين يتحدثون عن سعادة الأستاذ بتفوق تلاميذه عليه والتي تفوق سعادته بنجاحه، كنت أردد دائمًا أن ما من سعادة تضاهي سعادة الإنسان بنجاحه الشخصي، نحن بشر ولسنا ملائكة، ولكن الآن، فقد آمنت بذلك كل الإيمان، أنا شديد الفخر بكِ والسعادة من أجلك يا سالمة.

- ربما لأنك لم تكن يومًا أستاذي فحسب، بل كنت دائمًا صديقًا استثنائيًا.

توقف حديثهما للحظات بمجيء النادل الذي وضع قهوته، وكوب الكاكاو الساخن أمام كل منهما ثم انصرف.

- أخبريني، أين كنتِ، وكيف أمضيتِ كل هذه الأعوام؟
- عدت إلى بيروت، أردت أن أبحث عن عائلة والدتي.
- وإلامَ توصلتي؟
- ردت بابتسامة بائسة: لا شيء.

تنهدت ثم أكملت قائلة: أنت بالطبع تذكر أنني أخبرتك ذات يوم أن والدتي قد توفيت أثناء ولادتي.

- نعم، أذكر ذلك.
- أكملَت قائلة: لا أذكر أنني قد التقيت يومًا بأي شخص من أفراد عائلتها طوال فترة إقامتنا ببيروت، وعندما كبرت، وبدأت أتسائل عن سر غيابهم، أخبرني أبي أن علاقته بهم لم تكُن وطيدة، وزاد الأمر تعقيدًا، اندلاع الحرب التي جعلت منهما خصمين، بدلًا من أن يكونوا ولو شبه عائلة، لأن أبي كان فلسطيني مسلم، بينما أمي كانت لبنانية مارونية.
- إذا لماذا عدتِ بالرغم من كل ما تعلمينه؟
- كنت أبحث لنفسي عن الدفء، عن وطن، عن سكن، أبحث عنهم حتى ولو بأشخاص لا أعرفهم، ولا يعرفونني، ولكن كان يكفيني أنهم أفراد عائلتي، ولم أكن أرغب بشيء سوى أن يتقبلونني بينهم، كنت على أتم استعداد أن أستمر في البحث عنهم، حتى أجدهم، مهما كلّفني الأمر من مشقة وعناء، فقد كنت كغريق يبحث عن أي شيء ليتشبث به، مهما كان ذلك الشيء يبدو ضعيفًا وهشًا، ولكن وجوده بالنسبة له كان كافيًا، حتى لا يُحرَم من حق الأمل في النجاة.

أمسك بفنجان قهوته، وقد أخذ يرشف منها تارة، وينظر إليها باسمًا تارة أخرى، فسألته قائلة:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- فابتسم قائلًا: أتأملِك.
- عقدت حاجبيها وهزت رأسها مستفهمة: ولمَ؟
- التقيت بكِ منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، كنتِ آنذاك فتاة ثائرة، عنيدة، تتبعين ما تريدين الوصول إليه، حتى وإن كنتِ تعلمين أنكِ باتباعك له، تسبحين ضد التيار، تمر الأعوام لألتقي بكِ من جديد وقد أصبحتِ امرأة ناضجة، ولكنكِ لم تتخلِ عن ذلك العند المتأصل بكِ.

أضاف مازحًا وهو يشير بإصبعه إلى رأسها: وكأن هذا الرأس الثائر لم تقو الأيامَ على ترويضه، أكملي، ماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء، لم يكن بحثي عنهم بالأمر اليسير، فالبحث عن أشخاص لم ألتقِ بهم من قبل، وبين صور لا أعرفها كان أمرًا صعبًا للغاية، خصوصًا أن بعد الحرب، نزح مَن نزح، وفُقِد مَن فُقِد، حتى صارت عملية البحث شبه مستحيلة، ظللت على ذلك الحال لفترة ليست بقصيرة، حتى كففت عن البحث لحين إشعار آخر.
- وكيف أمضيتِ كل هذه السنوات؟
- أشارت إليه قائلة: سرت على خطى أستاذي، عملت كمُدرسة بأحد معاهد الموسيقى، وبعد ذلك كوّنت برفقة بعض الأصدقاء الذين التقيت بهم هناك، فرقة موسيقية كنت أنا مطربتها.

تنهدت ثم أكملت قائلة: حتى التقيت به.

- مَن هو؟
- زوجي.

- تزوجتي؟
- لم تُجبه وأكملت: كان صديقًا مُقربًا لأحد أعضاء الفرقة، التقيت به بإحدى الحفلات، وتوالت لقاءاتنا بعد ذلك، حتى ارتبطنا، كان شابًا مثاليًا، لم يكن هناك اختلاف على ذلك، ولكن بعد زواجنا، وبعد أن أنجبت ابني زياد، انقلب الحال وتغيّر كل شيء.
- كيف؟
- كعادة أغلب الرجال الشرقيين، يدّعون تقبّلهم للمرأة بظروف حياتها وأفكارها، حتى يمتلكونها، ثم يريدون منها أن تتجرد من كل ذلك، لتخضع لما يرونه هم فقط صائبًا.
- وكيف فعل ذلك؟
- في بداية الأمر، أخبرته بكل شيء عن نفسي، كل ما مررت به، ما أحب وما أكره، ما أحلم به وأتمناه وما أرغب في نسيانه، أخبرته أيضًا أن الغناء والموسيقى هما الشيئان اللذان يجعلاني أتقبل الواقع رغم قسوته، وأتخطي كل ما مررت به، أحيا بهما ولهما، وأن توقّفي عن أيّ من هذين الأمرين، موت محقق لا مفر منه، بدا لي متفهّمًا لكل ذلك، حتى تزوجنا، في البداية طلب مني تأجيل العودة إلى عملي بمعهد الموسيقى حتى أعتاد مسؤولياتي الجديدة وأتأقلم معها، ثم أنجبت زياد، فكان عليّ أن أهتم به وأرعاه، ولكن الأمر لم يتوقف عند هذه المرحلة، بل استمر لأعوام، ثمانية أعوام قد مروا وأنا على ذلك الحال، وكنت كلما ناقشته بأمر العودة إلى العمل، ازدادت حججه الواهية التي لم أَعُد أقتنع بها، شعرت أنني

أختنق، أن روحي لم تعد تألفني، وأنني لم أعد أنا، بيته لم يَعُد بالنسبة لي سوى سجن، أوامره هي قضبانه، وما هو به إلا سَجّان، بمرور الوقت تطور الأمر بيننا إلى شجارات عنيفة مستمرة، كنت أتحمل كل ذلك من أجل زياد، فقد كان هو عالمي بأكمله، وعندما طفح الكيل طلبت الطلاق منه وأصررتُ عليه، وكانت النتيجة أنني عدت بيوم إلى المنزل، ولم أجدهما، لم يَكُن لأيّ منهما أثر، الأدراج وخزانات الثياب، كل شيء كان فارغًا، أخذ زياد واختفى، وبعد ذلك بأيام قليلة تسلّمت وثيقة طلاقي.

- وأنتِ، ماذا فعلتِ؟
- جُبت الأرض بحثًا عنهما، شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، لم أترك مكانًا لم أبحث به عنهما، ولكن دون جدوى، باءت جميع محاولاتي بالفشل، ظللت شهورًا بعدها أشبه بالأموات، أنتظر إما لقاء زياد أو الموت، حتى ذلك اليوم الذي حادثني به أحد أعضاء الفرقة ليخبرني أن مطربة الفرقة قد انسحبت، وأنهم بحاجة إلى عودتي، كانت هذه المحادثة هي طوق النجاة بالنسبة لي، فقد كنت أعلم أن هذا هو علاجي الذي لا بديل عنه، عدت إلى الفرقة، ومن ثمّ إلى دروس الموسيقى بالمعهد، ولكن كل ذلك لم ينسِني زياد، عشرة أعوام مروا عليّ دهرًا بعيدًا عنه، اشتقت إليه كثيرا يا طارق، اشتقت إلى عناقه وتشبثه برقبتي عند عودته من المدرسة، اشتقت إلى غنائي له وأنا أداعب شعره بأصابعي كل ليلة حتى ينام، اشتقت إلى ابني كثيرًا.

تسللت إلى عينيها دمعة حاولت أن تتغلّب عليها، ولكنها لم تستطِع، فسقطت على وجنتها، واقترب منها طارق مادًا يده إلى وجهها ليزيل أثر دمعتها، وتحل محلّها ابتسامتها الهادئة.

عاد بظهره إلى الخلف، وعقد ذراعيه فوق صدره، ثم نظر إليها متسائلًا:

- أأحببتِه؟
- تنهدت قائلة: ثمة أشخاص عندما نلتقي بهم، لا نسأل أنفسنا إن كنا قد أحببناهم بالفعل أم لا، ليس لشيء سوى أننا نكون آنذاك تحت سطوة سؤال آخر، "لمَ لا؟" فنجد أنفسنا نقترب ونقترب دون وعي منّا، ودون أن ندري إن كان في ذلك الاقتراب نجاتنا أم هلاكنا، يحدث ذلك عندما نقرر أن نتخلى عن أحلام الصبا والشباب بقصص الحب الأسطورية، لندع الكلمة الأخيرة في الأمر للعقل والمنطق، تقبّلت ما أرسله القدر إليّ دون تفكير أو اعتراض، تمامًا كما يقبل السائل عطيته ممن أحسن إليه، دون أن يسأله ماذا أو كم أعطاه، هذا ما فعلته، ولكن تجربتي جعلتني أكتشف شيئًا آخر.
- وما هو؟
- أن الحب والزواج أمران لا يخضعان لأي منطق، كفانا حديثًا عني وأخبرني أنت، كيف حال زوجتك وابنتك ليال؟
- زوجتي توفيت منذ ثلاث سنوات، أُصيبت بورم خبيث ظلت تعاني منه لمدة عامين حتى توفّاها الله، أعلم أنها قد تألمت كثيرًا، ولكن فراقها لم يكن أقل إيلامًا.

- بالتأكيد لم يكن فراقها أمرًا هيّنًا، فقد كانت رفيقة دربك لما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، وماذا عن ابنتك؟
- ليال تزوجت من فرنسي مسلم، وأنجبت طفلة رقيقة تُدعى "صوفي".
- حقًا؟ بالتأكيد جميلة كوالدتها، ألديك صورة لها؟
- نعم، أعتقد ذلك.

أخرج محفظته الجلدية من سترته، وأخذ يبحث عن صورة حفيدته حتى وجدها، ما لبث أن أخرجها لتمسك بها سالمة، حتى اصطدمت عيناها بتلك الصورة التي سقطت على المنضدة، كانت صورة تجمعها بكل من طارق وأبيها بحفل كان بمناسبة إصدار أبيها لأحد دواوينه الشعرية، وقد وقف أباها يتوسطهما ليحيط كل منهما بذراعه، أمسكت الصورة وأخذت تتحسس وجه أبيها، تتأمل نظرة عينيه العميقتين، وتستحضر ذلك الشعور بالدفء الذي كان يغمرها كلما ضمها أباها إليه، وفارقها منذ فارق هو الحياة، تتأمل ابتسامتها الواسعة وضحكة طارق المرحة، أخذت تحدّق بالصورة وهي تفكر، تُرى متى كانت آخر مرة شعرت بتلك الطمأنينة التي تبدو على وجهها بهذه الصورة؟ تنهدت، ثم نظرت إلى طارق قائلة:

- أما زلت محتفظ بهذه الصورة رغم كل الأعوام التي مرت يا طارق؟
- هذا ما تبقى من عبق الأيام يا سالمة.

- الحق معك، ليتنا نملك من القدرة ما يجعلنا نتوقف بالزمن وقتما نشاء، أن نعود لتلك الأيام التي كنا بها حقًا سعداء، وأن نُخلّد تلك اللحظات التي لم تقوَ الأعوام على محو بصماتها المطبوعة فوق قلوبنا.
- نظر إليها نظرة يشوبها اللوم، ثم سألها قائلًا: لماذا رحلتِ يا سالمة؟
- أخبرتك، بحثًا عن عا..
- قاطعها قائلًا وقد ارتفعت نبرة صوته قليلًا: دعكِ من هذا الهراء، ولا تقولي بحثًا عن عائلتِك.

شعر بأنه احتد عليها بالحديث، فصمت برهة، ثم قال: ربما يكون هذا أحد الأسباب، ولكنه ليس السبب الوحيد.

- ولِمَ تظن ذلك؟
- اقترب منها وهو ينظر بعينيها مباشرة، ثم قال: لأن من يرحل باحثًا عن عائلته، لا يرحل دون وداع يا سالمة، اعترفي ولو لمرة واحدة أنكِ أخطئتِ، فرحيلك كان خطأً كبيرًا يا سالمة.
- نظرت له بأسى قائلة: ولكن ربما بقائي كان سينتُج عنه خطأً أكبر يا طارق.
- ربما، ولكن ثمة أخطاء لا نندم على اقترافها، فلربما كانت سر سعادتنا بوقت لم نكن ندرك بعد أنها أخطاء.
- ابتسمَت قائلة: أتعلم؟ عندما رأيتك واقتربت لأتحقق منك أكثر، بالرغم من سعادتي لرؤيتك، إلا أنني خفت، خفت أن نتحدث،

فيدور بيننا حديث كتلك الأحاديث الخاوية، فلا تجدني كما عهدتني، ولا أجدك كما عهدتك، خفت أن ننصرف وكل منا يهمس لنفسه أن ليتنا لم نلتقِ من جديد، لعل كل منا يحافظ على صورة الآخر بقلبه دون أن يطرأ عليها أي اختلاف أو تشويه، ولكن بعد أن تحدّثنا سويًا، أدركت شيئًا واحدًا.

- وما هو؟
- أن بالرغم من الأعوام العشرين التي مرّت، ورغم كل ما حل بنا خلالهم، إلّا أن لا الزمن ولا الأحداث، تمكّنا من تغييرنا بالقدر الكافي يا صديقي.

ابتسم بدوره إليها، وربَت على يدها برفق، ولكن رنين هاتفه منعه من استكمال حديثه، ما لبث أن نظر إلى الهاتف، حتى شهق وضرب رأسه بيده، ثم قال:

- إنه أحد طلّابي، لقد كنت على موعد معه، ولكني نسيت الموعد تمامًا.
- إذًا، هيا بنا، أنا أيضًا عليّ أن أذهب إلى المسرح للتدريب من أجل حفلة الغد.
- أرجو ان تقبلي اعتذاري، ولكن عليّ اللحاق به.
- لا بأس، ولكني سأكون في انتظارك غدًا.
- بالتأكيد، لن أتأخر.

صمت برهة وكأنه تذكّر شيئًا، ثم قال: هل يمكنني أن أصطحب معي إلى حفل الغد، ذلك الفتى؟ إنه عربيّ أيضًا، وشديد الاهتمام بالموسيقى الشرقية.

- بالتأكيد.
- إذًا، موعدنا غدًا.

طبع على خدها قبلة، ثم ابتسم قائلًا: إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

انتهت سالمة من تدريباتها، ثم عادت إلى الفندق متعَبة وقد أوجعها الصقيع، وأنهكها السير، فأبدلت ثيابها رغبةً في الخلود إلى النوم، ولكن ثمة شيء كان يحول دون ذلك، تلك الأيام التي أخذت تتدفق ذكراها إلى عقلها شيئًا فشيئًا، منذ وطأت قدماها أرض هذه المدينة، كما أنّها أدركت منذ التقت بطارق، أن هذه الليلة لن تمر عليها مرور الكرام.

جلست بفراشها الوثير، وقد أمسكت بقلمها ودفتر يومياتها، وأخذت تكتب:

"لا أدري متى بدأَت قصتي، ولا كيف، مَن أبطالها، أو كيف ستنتهي، ربما لأنها لم تكن يومًا قصة مكتملة الأركان، ولم يُكتَب لأي من فصولها الاكتمال، بل كانت مجرد بدايات متتالية، أتُراها بدأت عندما وُلدت، أم عندما أصبحت مدركة لما يحدث حولي؟ يوم رحلت عن بيروت، أم يوم عدت إليها؟ لا، لا هذا اليوم ولا ذاك، قصتي بدأت قبل ذلك بكثير، قصتي بدأت قبل مولدي.

القصة بدأت عام ١٩٦٩ بإحدى المظاهرات ببيروت، حيث التقى والدي، ذلك الشاعر الفلسطيني الذي نزح من مسقط رأسه يافا برفقة والدَته، إلى مخيم برج البراجنة ببيروت، ووالدتي التي كانت إحدى طالبات الجامعة المساندات للقضية الفلسطينية آنذاك.

وقع كل منهما في حب الآخر، ورغبا في الزواج، بالرغم من الظروف التي لم تكن على ما يُرام آنذاك، ولكنهما لم يكترثا بكل ذلك، فقد كانا عاشقان، لا يباليان بشيء سوى أن يظلّا معًا حتى آخر العُمر.

كانت حياتهما سويًّا سعيدة رغم بساطتها، لكن القدر لم يشأ لسعادتهما أن تكتمل، حيث توفيت والدتي عام ١٩٧٢ عقب ولادتي مباشرةً، ما زلت أذكر حديث أبي عن ذلك اليوم حين قال "وكأن قلبي قد انقسم لحظتها إلى نصفين، نصف توقف عن النبض باللحظة التي لفظَت هي بها أنفاسها الأخيرة، والنصف الآخر وُلد من جديد باللحظة التي سمعت بها بكائك وأعلنتِ مجيئك للحياة".

أطلقت عليّ جدتي اسم "سالمة" حتى أسلم مما تعرضَت هي له من متاعب الحرب، وآلام الفقد، ولكنها لم تكن تدري أن الأسماء لا تمنع قدر، ولا ترد ابتلاءً، نشأت أنا بذات المُخيّم، مخيم برج البراجنة، بين كلٍ من أبي وجدتي، ولكن اندلاع الحرب عام ١٩٧٥، جعل من سنوات الطفولة كابوسًا، أستيقظ كل يوم على أمل أن ينتهي، إما بنهاية الحرب، أو بنهايتي أنا، لا فارق، فأصوات القذائف والرصاص كانت تغتال كل يوم جزءًا من روحي، يومًا اغتالت البراءة، ويومًا آخر اغتالت

الطفولة، حتى جاء يوم واغتالت الخوف، ومنذ ذلك اليوم أصبح صوت الرصاص مثله كسائر الأصوات التي أستمع إليها يوميًا، دون أن تثير بداخلي أي شعور بالرهبة والخوف، ولكنه ظل دائمًا بالنسبة لي ناقوسًا يعلن عن اقتراب الموت، وأن ملك الموت قد حلّ بحيّنا، ولكنه لم يكُن يُعلن أبدًا بضيافة مَن سيكون.

لم يكُن يهوّن مرارة تلك الأيام سوى حكايات أبي وجدتي عن وطننا الذي لم تطأه يومًا قدماي، عن يافا، كانا كلما ذكرا واحدة من تلك الحكايات، أرى بعيونهما ذلك البريق الذي ما زلت أذكره جيدًا، وتمتزج ابتسامتهما بدموعهما الحبيسة، حدّثاني عن الأرض الخصبة والخير الوفير، عن طعم البرتقال اليافاوي وزيت الزيتون، حدّثني أبي عن ذكريات طفولته وصباه، عن مدرسة العامرية وعن بيته الذي كان يُعرَف ببيت بركات، حدّثني عن لعبه مع رفاقه على الشاطئ، وعن قلبه الذي دق للمرة الأولى بحب جارته الحسناء.

ولكن لم تكن كل الحكايات تؤنس، بل كان منها ما ينفطر لها القلب، ويرتعد لها الجسد، حدّثتني جدتي عن قصة ذلك المفتاح الذي لم يفارق عنقها منذ غادرت يافا، وأن كل فلسطيني غادر داره يظل يحيط عنقه بمفتاحه، على أمل أن يعود إليه يومًا ما، حدّثتني عن يوم الرحيل، وكيف لم يتمكنوا من جمع أمتعتهم، واكتفوا بالضروري منها فقط، ظنًا منهم أن ما هي إلا أيام قليلة، حتى يعودوا إلى ديارهم، أخبرتني عن

جثث الرجال التي كانت مُلقاه على الشاطئ، فأحالت رمال يافا الذهبية إلى اللون الأحمر، وعن تلك الحاويات التي زُجّوا بها كقطيع من الأغنام، لتحملهم إلى المخيّم، ذلك المُخيّم الذي أصبح كل فلسطيني لا يملك أن يعلّق أحلامه سوى على جدرانه، جدرانه التي امتلأت بأعلام فلسطين، وعبارات مثل "النصر لنا" و "سنرجع يومًا"، حدّثتني عن جدي الذي قتله جنود الاحتلال وهو يدافع عن بيته، وعن أخيها الذي توفّي بعمّان بعد أن نزح إلى هناك، ولم تستطع أن تودعه إلى مثواه الأخير.

ما زلت أذكر ذلك اليوم حين نادتني جدتي وطلبت مني أن أدنو منها، لأجدها ولأول مرة قد خلعت ذلك الحبل الذي يحيط بعنقها، ويتدلى منه مفتاح دارها، ثم أحاطتني بذراعها، ونظرت إليّ قائلة: "اسمعي يا بنيّتي، لقد أصبحت امرأة عجوز، ولا أعلم متى سيحين أجلي، ولكن إن توفاني الله، ولم يكتب لي العودة إلى داري، فوصيتي لكِ ألا تخلعي هذا (مشيرة إلى الحبل الذي يتدلى منه المفتاح) أبدًا، ولا تدَعي الأيام تنسيكِ أنكِ فلسطينية، وأن مهما طال الزمان، واستفحل الباطل، ستعودين يومًا لتعمّري دارك وأرضك"

وبذات ليلة مظلمة، لا يضيئها نجم ولا قمر، اشتد القصف على المنطقة، فأخذت القذائف تتلاحق، وارتفع دوي الرصاص، لم يكن حينها بالمنزل سواي أنا وجدتي، احتمَت كل منا بالأخرى، وأخذنا ندعو الله أن تمر هذه الليلة بسلام، ولكننا لم نكن ندري أن بهذه الليلة، ملك الموت كان بضيافتنا نحن، انهار المنزل فوق رؤوسنا وتوفيت

جدتي في الحال، أما أنا فما زلت أجهل كيف نجَوت من تحت الرُكام، وكيف بقيت على قيد الحياة، ربما كانت العناية الإلهية، لا أدري!

أخذ أبي يبحث عني بالمستشفيات المحيطة حتى عثر عليّ، مصابة بعدة كسور وغائبة عن الوعي، لا أذكر كم يومًا ظللت على ذلك الحال، ولكن ما أذكره جيدًا، أنني عندما استعدت وعيي، أفقت فاقدة لصوتي ولقدرتي على النطق إثر الصدمة التي تعرضت لها أثناء انهيار المنزل، لم أكن أتحدث، لم أصرخ ولم أبكِ، وكأن روحي ظلت تحت الرُكام، ولم يتبقَ مني سوى ذلك التمثال الشمعي الكسير الماثل فوق ذلك الفراش المهترئ بإحدى المستشفيات.

بعام ١٩٨٥ وبعد أن تحسّنَت حالتي الصحية، عزم أبي على أن نرحل إلى فرنسا، كان قد فقد زوجته ووالدته، ولكنه لم يكن على استعداد أن يفقدني أنا أيضًا، سافرنا، ولكني لم أكن قد استعدت صوتي بعد.

كنت بحاجة لبعض الوقت حتى أتأقلم مع فكرة وجودي ببلد غريب، ومع أجانب لا يتحدثون لغتي التي بطبيعة الأمر، لم أعد أستمع إلى من يتحدثون بها إلا قليلًا، ولكن الأمر الذي كنت بحاجة للتأقلم معه أكثر، كان ذلك النوم الهادئ الذي لا يعكر صفوه صوت القذائف، والسير بالطرقات الآمنة دون أن أخشى أن تصيب أبي أو تصيبني رصاصة طائشة، فأنا لم أكن قد اختبرت ذلك الشعور من قبل، شعور الشعوب التي تحيا في سلام.

بذلك الوقت تحسنت حالتي النفسية كثيرًا حتى استعدت صوتي، وأنا أحاول أن أتغنّى بكلمات أغنية السيدة فيروز "احكيلي عن بلدي"، تلك الأغنية التي اعتاد أن يستمع أبي إليها كلما شعر أنه يحترق شوقًا إلى بلاده، وهي ذات الأغنية التي كان يستمع إليها حين لفظ أنفاسه الأخيرة، وكأنه كان يعلم أن الله لم يكتب لعينيه أن تتمتع بنظرة وداع أخيرة يلقيها على وطنه، فأراد أن يودّعه على طريقته.

بعد مرور عامين على إقامتنا بباريس، تعرّفنا على طارق بوعزيزي من خلال أحد أصدقاء أبي، جمعتنا الظروف المتشابهة، الوحدة والحنين إلى الوطن، فصرنا كعائلة، وكأن الله قدّر لنا أن نلتقي، عوضًا عن ذلك الدفء الذي كان ينقصنا ببرد الغربة، لاحظ طارق اهتمامي بالموسيقى والغناء، وشغفي بهما، فسنادني لأدرس الموسيقى، وكان هو أستاذي، وبمرور الوقت أصبح صديقًا شخصيًا، ليس لأبي فحسب، ولكن لي أيضًا.

كانت تلك هي السنوات الأجمل بحياتي، حتى توفى أبي، وتغير كل شيء، مكثت بباريس لفترة من الوقت، حتى عزمت على أن أعود إلى بيروت عام ١٩٩٦ نظرًا لاستقرار الأوضاع، وانتهاء الحرب، من أجل البحث عن عائلة والدتي، التي لم أنجح في العثور على أي أثر لها، عملت كمدرّسة للموسيقى، ومطربة بإحدى الفرق الموسيقية، حتى تزوجت وأنجبت ابني زياد، فتوقفت عن العمل لفترة ليست بقصيرة، ولكن بعد أن انفصلت عن زوجي، وبعد غياب زياد ورحيله عن بيروت برفقة أبيه، كنت بحاجة لأن أعود وأغني من جديد، فلطالما كانت

الموسيقى هي طوق النجاة بالنسبة لي حين أشعر باقتراب الغرق، وعكّازي عندما أنكسر، وبكل مرة ظننت أن النهاية قادمة لا محالة، كانت الموسيقى وحدها هي القادرة على أن تخلق البدايات، لأعود وأستأنف مسيرتي من جديد.

أتُراني جئت إلى هنا لهذا السبب؟ أجئت بحثًا عن بداية جديدة، أم رغبة في تغيير النهايات؟ لا أدري، ما زلت أجهل سبب مجيئي إلى هنا، وأنا التي كانت ترفض الغناء بأي بلد غير عربي خوفًا من الإخفاق والفشل، وخوفًا من رؤية الملل بعيون الحاضرين الذين يجلسون متأملين تلك التي تتغنّى بلغة غير لغتهم، إذًا فلماذا قبلت هذه المرة دون غيرها؟ أكنت بحاجة إلى المال، أم إلى الابتعاد، أم إلى التغلّب على الخوف وكسر القيود؟ لا أعلم، تُرى إلى أين ستحملني رحلتي هذه المرة؟ وعلامَ ستنتهي؟ أسئلة كثيرة تدور بذهني الذي أنهكه التفكير، ولكني لم أعد أملك سوى أن أنتظر الإجابات".

أغلقت دفتر يومياتها، وأغمضت عينيها، ولكنها ظلت تتململ ببفراشها، دون أن تتمكن من النوم، فقد كانت واقعة تحت سطوة أفكارها للمرة الثانية، ولكنها هذه المرة كانت أفكار من نوع مختلف، فقد كانت تفكر بكواليس قصتها، تلك الكواليس التي لم يكن يدري بأحداثها سواها، لكنها لم تكن تملك من الشجاعة ما يكفي لتكتب عنها.

حملتها أفكارها إلى يوم بعيد، ذلك اليوم حين كانت تسير برفقة طارق، عائدة إلى منزلها بعد انتهاءها من درس الموسيقى، ثم مرّا أمام أحد مسارح باريس الشهيرة، فأشار له طارق قائلًا:

- أتعلمين يا سالمة، أشعر أنني سأراكِ يومًا ما تقفين فوق مسرح كهذا.
- أنا؟ كيف؟
- ولمَ لا؟
- كيف أقف فوق مسرح ببلد غريب، وأنا لا أتغنّى بلغة شعبها؟
- وكيف غنّت السيدة أم كلثوم هنا إذًا؟
- ولكني لست السيدة أم كلثوم، إنها معجزة لن تتكرر.
- بالتأكيد كانت معجزة، ولكني لا أتفق معكِ على استحالة تكرارها.
- أتظن أن بإمكاني أن أصل إلى هذه المكانة يومًا ما؟
- بالطبع.
- ومن أين لك بهذه الثقة؟
- من موهبتك يا سالمة، موهبتك تؤهلكِ لذلك.
- ولكنه حلم بعيد.
- تعوّدي دائمًا يا سالمة أن تحلّقي بأحلامك بعيدًا بعيدًا، فوق سماء الخيال السابعة، فإن ظللت لا تحلمين سوى بتلك الأحلام المتواضعة، لن تحصلي على شيء.
- لماذا؟

- لأن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.
- نظرت له نظرة ماكرة، وسألته مداعبة: وأنت؟
- وأنا ماذا؟
- ما الشيء الذي تمنيته، ولم تدركه؟
- نظر لها نظرة جادة، ثم قال: أشياء كثيرة.

صمت قليلًا وقد بدا عليه التردد، ثم أكمل قائلًا: ولكن لطالما كنتِ أنتِ أهمها يا سالمة.

- توقفَت عن السير، وأخذت تنظر إليه بعينيها اللتان قد اتسعتا ذعرًا، ثم همست بصوت مُرتجف: أنا؟ كيف؟
- سألت نفسي هذا السؤال مرارًا، ولكني لم أجد له إجابة، فأدركت أن في الحب، ما من كيف ولا لماذا.
- قالت وهي ما زالت تنظر له مشدوهة: ولكن يمكنني أن أسأل منذ متى، أليس كذلك؟
- منذ وقت طويل.
- ولكنك متزوج، هذا لا يجوز.
- قاطعها قائلًا: أعلم، ولكنه حدث، حدث ولم يعد لي جراء الأمر حيلة ولا سلطان.
- نظرت له بعينين دامعتين، ثم قالت بصوت خفيض: طابت ليلتك يا طارق، عُد أنت إلى بيتك الآن، سأكمل الطريق بمفردي.

استدارت دون أن تنظر إليه، أو تنتظر منه رد، وفرّت عائدة إلى منزلها، ولكنها ما لبثت أن أغلقت بابها حتى أجهشت في البكاء، فقد كانت تعلم أنها وبعد ما قاله طارق، قد فقدته إلى الأبد، ولا مفر من ذلك.

ظلت أيامًا ماكثة بمنزلها وقد انقطعت عن دروس الموسيقى، وتوقفت عن إجابة محادثاته ورسائله، ثم مرت الأيام وتوقف هو أيضًا عن محادثتها، فظنت أنه قد يأس من تلقي أي رد منها، ولكنها علمت فيما بعد من إحدى صديقاتها أنه يرقد بالمستشفى إثر تعرّضه لحادث كاد أن يودي بحياته.

لم تنتظر حتى تنتهي صديقتها من حديثها، أغلقت الهاتف وركضت إلى المستشفى، وما لبثت أن دلفت إليها، حتى أخذت تتجول بعينيها يمينًا ويسارًا باحثة عن غرفته حتى وجدتها، ثم تسللت إليها خلسة.

أخذت تقترب منه، وهي تخطو نحوه خطوات مرتعشة، فقد كانت قدماها لا تقوَ على حملها، بينما هو يرقد بين الأجهزة والأسلاك المتصلة بجسده، غائب عن الوعي، بلا حراك. كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة لسالمة لتواجه نفسها بواقع لطالما رفضته وتعمدت تجاهُله، وسِر لطالما جعلت من قلبها قبرًا له، وهو أنها لطالما أحبّت طارق بوعزيزي، أستاذها الذي يكبرها بخمسة عشر عامًا.

اقتربت منه وقد ركعت بجانبه على ركبتيها، وأمسكت بيده، ثم بدأت تتحدث ودموعها تنهمر على خديها، ولكنها لم تكن تعلم آنذاك إن كانت تتحدث إليه أم إلى نفسها:

"لا أعلم كيف أبدأ حديثي ولا من أين، طوال الطريق إلى هنا وأنا أفكر فيمَ أود أن أقوله، ولكن عندما جئت ورأيتك، شعرت أنني لا أرغب سوى بشيء واحد، وهو أن تسامحني، سامحني على غيابي، سامحني على هروبي، سامحني أنني لم أخبرك أنني لطالما أحببتك كما أحببتني وأكثر، وسامحني لأنني لن أعيدها على مسامعك مرة ثانية.

ربما لم يدفعني لقولها الآن سوى أنني أعلم أنك لن تسمعها، وأنها لن تغير من الأمر شيء، ليت بإمكاني أن أقولها لك وجهًا لوجه، وعينًا بعين، سنوات مضت وأنا أرغم نفسي على تجاهل ذلك الشعور الكامن بقلبي، سنوات وأنا أخجل من البوح به حتى لنفسي، كنت أدّعي أن اهتمامي لأمرك ما هو إلا اهتمام بصديق، وكنت أكثر من صديقي، وأن حبي لك ما هو إلا حب لأستاذ وأخ أكبر، ولم تكن يومًا أخي، ولكن بالرغم من كل ذلك، إلا أن ما قلته لي لم يسعدني بقدر ما أتعسني، أتعسني لأنني لم أسعَ يومًا لما هو ليس من حقي، ولن أستطيع، لن أستطيع أن أخون زوجتك التي وثقت بي، أو أؤذي ابنتك التي لطالما تمنيت أن تكون ابنتي، لن أستطيع أن أهدم بيتًا أو أسرق حلمًا.

لم أعتد يومًا أن أفعل ما أخشاه، ولكن ها أنا أفعل، أخشى أن تأتي زوجتك لتجدني أجلس إلى جانبك هكذا، وهي التي يجدر بها أن تكون هنا، ولست أنا، أخشى أن تنظر بعيناي فترى قلقًا ولهفة، مكانهما يجب أن يكون بعينيها هي، لا بعينيّ أنا.

ليتك لم تخبرني، وظل ما بداخلي وداخلك قيد الكتمان، لو لم تفعل، لكان بإمكاننا أن نبقى أصدقاء كما اعتدنا دائمًا، ولكن الآن، الأمر يختلف، أشعر وكأنني أقف بمفترق طريقين، طريق يبقيني إلى جانبك ولكن به هلاكي، وطريق قد يجعلني أنجو بنفسي، ولكنه سيفقدني إياك.

أتعلم؟ عندما فقدت أبي، فقدت معه شعوري بالأمان، ولكن وجودك كان دائمًا يجعل الأمر أخف وطأة على قلبي، أما الآن، فقد أصبحت أدرك أن لا مفر من فقدانك، سأفقدك وأنا التي فقدت كل شيء، ولم يتبقَ لي سواك، سأرحل وليساعدني الله على غيابك.

كل ما أود أن أطلبه منك الآن هو أن تسامحني، فقط سامحني وابقَ بخير، ابقَ بخير من أجلي وأجلهم، فأنا حتى ولو كنت ببلد آخر وعلى أرض أخرى، فستبقى أنت دائمًا الأمان والوطن، وطن قد أكون استعمرته، ولكنني رحلت عنه حين أدركت أنه لم يكن يومًا لي، ولن يكون، ويا ليته كان وطني".

أحنت رأسها على كفه، وأخذت تبكي، ودموعها تبلل يده، ولكنها ذعرت ورفعت عينيها إليه، حين شعرت به يشد على يدها، أخذت تنظر إليه وتبتسم رغم دموعها، أتُراه كان يسمعها، أم كان يشعر بها؟ لم تكن تعلم، ولكنها شعرت لحظتها أنها تود لو تدفن نفسها بين ضلوعه ولا تخرج أبدًا، ما كان لها لحظتها سوى أن أفلتت يدها من بين أصابعه برفق، وهبّت واقفة وهي تجفف دموعها، ثم اتجهت نحو باب الغرفة، الذي ما لبثت أن فتحته حتى التقت عيناها بعينيّ زوجته، وابنتها المتشبثة

بيدها، أخذت تتأمل وجه زوجته الشاحب، وعينيّ ابنته المحمرتين إثر البكاء المستمر، وبقلبها مزيج من الأسى والذنب.

أفاقت من شرودها على صوت الزوجة تحدثها قائلة:

- سالمة، لم أكن أعلم أنكِ هنا.
- جئت منذ قليل، بحثت عنكِ ولكني لم أجدِك.
- نعم، ذهبت مع ليال لتتناول غذائها.

نظَرَت إلى ليال التي كانت تنظر إليها بدورها، ثم دَنَت منها وسألتها:

- كيف حالك يا ليال؟

ولكن الطفلة لم تجِبها، بل ألقت بنفسها بين ذراعيها، وحل الصمت المطبق بينهما، فأغلقت سالمة عينيها على دموعهما، خوفًا من أن تتسلل إلى خديها فتفشي سرّها.

- سألتها الزوجة: أنتِ بخير يا سالمة؟
- نعم، لا تقلقي.
- أتمنى ذلك.
- سأطمئن على أحوال طارق من حين إلى آخر، أأمل أن يفيق ويستعيد وعيه عن قريب.
- أرجو من الله ذلك.
- أراكِ على خير.

انصرفت سالمة عائدة إلى منزلها، ولم تبرحه حتى أخبرتها صديقتها عن تحسن حالة طارق الصحية، واسترداده لوعيه، فما كان لها سوى أن

جمعت متعلقاتها وثيابها، وأعدّت حقيبتها متجهة إلى مطار شارل ديغول بباريس، عائدة إلى بيروت.

ظلت الذكريات تتوالى على رأسها، حتى أعلنت أشعة الشمس التي أخذت تتسلل على استحياء عبر نافذة الغرفة، عن بداية يوم جديد، وأن ما هي إلا ساعات قليلة حتى يبدأ الحدث الأكبر والأهم بحياتها، ساعات قليلة وتصعد فوق خشبة المسرح لأول مرة ببلد أوروبي، وهي لا تعلم ماذا سيكون مصيرها، النجاح أم الإخفاق.

نهضت من فراشها، وبدأت تستعد للخروج، متجهة إلى المسرح، لتقوم بعمل البروفة الأخيرة التي ستسبق الحفل.

في السابعة والنصف مساءً، كانت تقف أمام مرآتها تضع اللمسات الأخيرة على رداءها، أخذت تتأمل نفسها، وقد ارتدت فستانًا من الدانتيل الأسود يقف عند حدود ركبتيها، جعلها تبدو غاية في الرقيّ والأناقة، أسدلت شعرها الكستنائي الطويل فوق ظهرها، ووضعت خلف أذنها وردة حمراء، أضفت على روحها بهجة ودلالًا، ثم نظرت إلى عنقها الخالي من أي شيء يزينه، أخذت تنظر إلى ذلك العقد الماسي الذي كانت قد اشترته لترتديه بالحفل، ووضعته فوق عنقها، ولكن ثمة شيء كان ناقصًا، شيئًا لطالما كان جزءًا منها ومن هويتها، حتى كادت تشعر أنه جزء من جسدها، لا ينفصل عنه، كان ذلك المفتاح المعدني الذي أهدته لها جدتها منذ سنوات، وأخذت عهدًا عليها ألا تخلعه أبدًا، لذا ما كان لها سوى أن خلعت عقدها الماسيّ ووضعته بمكانه، حتى عادت لترتدي ذلك المفتاح العتيق حول عنقها، فقد

عزمت على ألا تخلعه إلا حين تعود إلى أرضها، يوم تصبح لأول مرة مواطنة، وليست لاجئة.

في تمام الثامنة مساءً، صعدت فوق خشبة المسرح، ولكنها ظلت واقفة خلف الستار، تخشى رؤية وجوه غير عابئة، أو مقاعد كُثُر خالية، خشيت أن تجد نفسها تقف وجهًا لوجه، أمام شبح الفشل، ولكنها أخذت تسأل نفسها، تُرى لمَ كل هذا الخوف؟ وما الجديد؟ فقد أمضت عمرها بأكمله خائفة، أخذت الصور تتوالى أمام عينيها، أيام الحرب ببيروت، وليالي القصف المظلمة، انهيار منزلها بالمخيم، ومعجزة نجاتها من تحت الأنقاض، لحظة وفاة والدها، وذعرها وهي تراقب صدره الذي لم يعد يعلو ولا يهبط بعد أن سكنت أنفاسه وتوقفت آخر نبضات قلبه، لحظة عودتها وحدها إلى بيروت، وهي تعلم أنها تسير نحو المجهول، وتلك اللحظة التي أدركت بها أنها لن ترى ابنها مجددًا، كيف تكون قد مرّت بذلك السيل من مصائب الزمن، وقضت عُمرها بأكمله بين ماضي مخيف ومستقبل مُبهَم، وما زال بوسعها أن تخشى وتخاف؟ لا، لقد مرّت بما هو أصعب وأقسى من الفشل بكثير، بل وكانت أقوى منه، وبهذه اللحظة كانت تستعد لتخرج إلى الجمهور، ولكن دون أن تخشى شيئًا.

ما لبث أن انفتح الستار، حتى وجدت نفسها تقف أمام جمهور عريض من العرب والأجانب، يصفقون لها ويحملون صورًا لها، شعرت آنذاك أنها لم تكن تتمنى شيئًا بتلك اللحظة، بقدر ما كانت تتمنى أن يكون أباها على قيد الحياة، ليكون إلى جانبها ويفخر بها، ولكنها كانت على

يقين أنه يراها ويشعر بها، لذا عزمت على أن يكون أول ما تتغنّى به، هو تلك الأغنية التي لطالما جعلتها تشعر أنها ما زال بإمكانها أن تكون في حضرة ذلك الحاضر الغائب، وما لبثت أن بدأت الموسيقى، حتى شعرت وكأنها لا ترى نصب عينيها سوى وجهه، وأنها لا تغني سوى له وحده، وبالفعل، أخذت تغرد كما لم تفعل من قبل:

"احكيلي احكيلي عن بلدي احكيلي
يا نسيم اللي مارق عالشجر مقابيلي
عن أهلي حكاية عن بيتي حكاية
وعن جار الطفولة حكاية طويلة
يا نسيم اللي مارق عأرض الغار
حلفتك تجي تلعب عندي بهالدار
خبرني إن كان بعدو بيذكرني
ببلدي وعالسهرة ناطرني
ساعات الفرح القليلة حبيبي احكيلي
حلفتك خبرني كيف حال الزيتون
والصبي والصبية بفيّ الطاحون
واللوزة والأرض وسمانا
هو هني بلدنا وهوانا
وزهر الأيام البخيلة حبيبي احكيلي"

كان طارق قد لاحظ ذلك الدمع الذي أخذت تلتمع به عينيها، مستترًا خلف ابتسامتها الرقيقة التي لا تفارق وجهها، أثناء غناءها لتلك الأغنية، فقد كان ضمن الجالسين بالصفوف الأولى، ولكن ما لم يكن يلحظه طارق، هو شرود ذلك الفتى الذي اصطحبه معه إلى الحفل، ويمكث بجانبه.

شعر الفتى أن هذه الأغنية قد حملَته إلى ذكريات بعيدة، حملَته إلى ذكرى والدته، والدته التي لم يلتقِ بها منذ سنوات عديدة، فقد كانت تستمع إليها دائمًا، كلما اشتاقت إلى أبيها، لم يكن لديه تفسيرًا لما يشعر به من أُلفة تجاه هذه السيدة التي تقف فوق خشبة المسرح، ألأنها تغنّت بهذه الأغنية التي تذكّره بوالدته؟ أم لأنه يعرفها؟ نعم، يشعر أنه يعرفها جيدًا، هذه الابتسامة الهادئة، لطالما كانت أول ما تراه عيناه حين يستيقظ، وهذا الصوت الدافئ، لطالما ساعده بدفئه وحنوّه على النوم.

اقترب من طارق، ثم همس بأذنه قائلًا: لقد أخبرتني أننا سنحضر حفل تحييه صديقة لك، ولكنك لم تخبرني، ما اسمها؟

أجابه طارق دون أن ينظر إليه: سالمة، سالمة رض..

فقاطعه الفتى قائلًا: سالمة رضا ناصيف، أليس كذلك؟

التفت إليه طارق مذعورًا، وأخذ لأول مرة يتأمل وجه ذلك الفتى الذي كان قد غرق بدموعه، كيف لم يلحظ يومًا كم هو يشبهها؟ كيف وكل ما به شكلًا وسلوكًا، يؤكد أن زياد، تلميذه المحبب إلى قلبه، بملامحه وطباعه وولعه بالموسيقى، لا يمكن أن يكون ابنًا لامرأة سوى سالمة ناصيف؟

انتهى الحفل، وظلت سالمة فوق خشبة المسرح تحيي الجمهور وسط سيلٍ من التصفيق الحاد والهتافات التي لا تنقطع، ولكن ثمة صوت التقطته أذنها، جعلها تشعر وكأنها قد صمّت عن كل تلك الأصوات الهاتفة والأيادي المصفقة، ولم يعد غيره يتردد على مسامعها، لم تكن تدري إن كانت حقًا قد استمعت إلى ذلك الصوت، أم خُيّل لها ذلك، ولكن عاد الصوت يتكرر مرة أخرى، بينما هي تنظر حولها يمينًا ويسارًا باحثة عنه، وهو يكرر:

– أمي، أنا هنا، أنا هنا يا أمي.

وبين صياحه، وبحثها عنه، التقت أعينهما، ويا له من لقاء!

كل هذا الشوق؟ كل هذا الألم؟ كل هذه الدموع، تلك الدموع التي كانت تكفي لتجري بحارًا وأنهارًا؟

هبطت من على المسرح، وأخذت تشق الصفوف إليه، حتى لم يعد يفصلها عنه سوى خطوة واحدة فقط، خطوة واحدة بعد أن كان بينهما جبالًا وقارّات، أحلم هذا أم حقيقة؟

نظرت إلى طارق الذي كان يحيطه بذراعه، وقال: إنه زياد، زياد يا سالمة.

أمسكت بوجهه بين كفيها، وأخذت تتحسس ملامحه ببطء، وتمر بأصابعها الرقيقة عليها بدقة، ثم همست إلى نفسها: لا، ليس حلمًا.

وجدت نفسها تقف أمام شابًا يافعًا، وليس ذلك الطفل الذي غاب عنها منذ عشرة أعوام، لم تدرِ كم من الوقت قد مر وهي تعتصره بين ذراعيها،

وكأنها تعانقه عوضًا عن كل الأعوام التي مرّت ولم تعانقه بها، منذ أن كان طفلًا، وحتى أصبح هذا الشاب الوسيم الماثل أمامها.

ما كان لها لحظتها سوى أن خلعت مفتاح دار جدتها، ووضعته حول عنق ابنها، كما وضعته جدتها حول عنقها بيومٍ ما، ثم قالت له آن الأوان أن تحمل هذا عني يا بنيّ، فقد حملت الكثيرَ وحدي في الماضي، أما الآتي فسنحمله معًا.

ستظل على أمل أن تعود إلى وطنها يومًا ما، ولكن برفقة ابنها، وإن لم يقدّر لها الله أن تشهد ذلك اليوم الجليل، فيكفيها فضلًا أنه قد جمعها بزياد، زياد الذي برؤيته، قد وجدت الدفء، والوطن، والسكن.

أخذت تنقل عينيها بين زياد وطارق، وهي تبتسم رغم عينيها الدامعتين، الآن أدركَت لمَ أتت إلى باريس، لِمَ قدّر الله لها أن تلتقي بطارق من جديد، ولمَ أحيت هذا الحفل الذي لم تكن تدرِ سر قبولها له حتى هذه اللحظة، لحظة لقاءها بزياد، الآن فقط أدركت أن الكلمة الأخيرة دائمًا للقدر، وأنها لم تعد تحتاج أن تسأل مزيد من الأسئلة، فقد أصبحت تملك الإجابات كلها.

إلى أولئك الذين ذهبوا، وتركوا لنا أشلاء ذكراهم، لتبقى دائمًا عالقة بأرواحنا.

اللقاء الثاني – شو الحلو فيك

في إحدى ليالي نوفمبر الباردة، وبمدينة الإسكندرية حيث كانت الرياح عاصفة، وأمواج البحر تتلاطم بعنف معلنة عن ثورتها، وبعد أن انتصف الليل وحل الظلام الذي لم يكن ينيره سوى قمر غير مكتمل، وعدة لآلئ تضيء سماء تلك الليلة المعتمة، كانت "كاميليا" تتململ بفراشها، وتتقلب يمينًا ويسارًا في محاولة بائسة للنوم، لعلها تنجو من تلك الأفكار المسعورة التي أخذت تنهش عقلها بلا رحمة، حاملة إياها إلى ثلاثة أعوام مضت من عمرها، بكل ما تخللهم من تفاصيل دقيقة، ولحظات كان منها الأجمل بحياتها، وأخرى كانت الأسوأ على الإطلاق.

لماذا لم يغادر عقلها منذ بداية اليوم؟ أبسبب صديقه الذي صادفته صباحًا وهي في طريقها إلى عملها؟ أم بسبب ذلك الحفل الذي حضرته

في المساء بدار الأوبرا؟ ذلك المكان الذي لم تعتَد أن تذهب إليه إلا برفقته، وها هي تذهب إليه لأول مرة من دونه، أم لأن كل ذلك قد تزامن مع ذلك اليوم الذي كان يوافق يوم لقاءهما الأول؟

بمجرد أن دلفَت إلى دار الأوبرا، أخذت تبحث عنه بكل مكان، وفي كل الوجوه، بين المارة في الأروقة، وضمن الجالسين فوق المقاعد، لم تكن تدري إن كانت تبحث عنه حقًا، أم كانت فقط تستحضر طيفه الذي أخذ يتراقص أمام عينيها، مُطارِدًا إياها أينما نَظَرَت، تمامًا كأشباح الموتى، ولكن ما لبث أن جلس ذلك الغريب بالمقعد المجاور لها، والتقطت أنفها عطره الذي اخترق حواسها، حتى استنشقته ملء رئتيها، مدركة أن ما من مفر ينجدها من ذكراه بهذه الليلة، فقد كان ذلك الغريب يضع ذات العطر، عطر "رشيد" خطيبها السابق، الذي اكتشفت أنها وبالرغم من فراقهما الذي مضى عليه عام تقريبًا، إلا انها لا تزال تذكره جيدًا، بل وتستطيع أن تميّزه بين آلاف العطور.

بدأ الحفل، وبدأ معه صوت علي الحجار الدافئ يتسلل إلى قلبها كعادته، وكلماته تنفذ إلى روحها كالسهام، لتذرف عيناها دمعا إثر سماعها لتلك الكلمات التي جاءت لتحمل إليها ذكريات الماضي، بكل ما به، على طبق من فضة.

أفاقت من شرودها على صوته الذي كان لحظتها بمثابة سكينًا باردًا يُغرس بقلبها، وهو يردد:

"زي الهوا الساير وخيال الطيف

أحلى سنين العمر بينّا تمر

يا نعيش هوانا حلم ليلة صيف
يا تتوه خطانا في ليل شتانا المر
ولما تتلاقى الوشوش مرتين
مابيتلاقوش يوم اللقا التاني
عمر الوشوش ما بتبقى بعد السنين
نفس الوشوش.. دي بتبقى شيء تاني
بتبدل الأيام ملامحنا
ترعشنا.. تنعشنا.. بتشوشنا
يا ترى اللي بيعيش الزمن احنا
ولا الزمن هو اللي بيعيشنا"

أعادتها هذه الكلمات إلى الأيام الخوالي، حين كانت يومًا برفقته، وأخذا يستمعان إلى هذه الأغنية سويًا، فقالت له:

- أنا بحب الأغنية دي جدًا، كلامها حلو أوي.
- طبعًا يا بنتي، مش كلمات سيد حجاب؟
- بس تعرف، دايمًا بيشغلني الموقف اللي الأغنية دي بتوصفه.
- سألها مازحًا: بتفكري تكتبي عنه قصة ولا إيه؟
- رشيد، أنا بتكلم جَد.
- طيب والله وأنا كمان بتكلم بجد، انتِ بتكتبي قصص حلو، ودي مادة حلوة لقصة جديدة، يبقى ليه لأ؟
- صمتت قليلًا وقد بدأت تروق لها فكرته، ثم أجابته قائلة: والله ممكن، بس قبل ما أكتب عنها، جاوبني الأول، تفتكر لو اتنين

كانوا بيحبوا بعض وافترقوا، يوم ما يتقابلوا، حايحسّوا بإيه؟ اللهفة اللي كانت في عينيهم دي بتروح فين؟ ازاي اللمعة دي بتتطفي وبيقدروا يبصوا لبعض زي أي اتنين أغراب، وكإن عمرهم ما كانوا في يوم لبعض، كل حاجة؟

- صمت برهة، ثم أكمل: بيتهيألي اللي بتقوليه ده مش بينطبق على كل الحالات.
- ازاي بقى؟
- يعني دايمًا النهايات هي اللي بتحكُم اللقاء التاني ده بيبقى عامل ازاي، في نهايات بتبقى مأساوية، بتقضي على أي ذكرى حلوة، لدرجة بتخلي الاتنين مش باكيين على بعض، وبيبقى هَم كل واحد فيهم بس إنه يخرَّج التاني من حياته، ونهايات بين اتنين اللي بينهم مكانش حب بالمعنى المتعارف عليه، يعني بيبقى أقرب للتعوّد، أو احتياج للحالة، أكتر من كونه احتياج للشخص نفسه، وساعتها اللقاء التاني ده بيبقى عادي، مش مُربِك بالدرجة، المشكلة بقى بتبقى في الاتنين اللي بيسيبوا بعض وهما لسة اللي جواهم ناحية بعض عايش، ماماتش، ساعتها بقى اللقاء التاني ده بيكون لعنة عليهم همّا الاتنين، عشان في اللحظة دي بيرجعوا يحسوا بكل آلام الفراق والشوق من الأول وجديد، حتى لو كانوا سايبين بعض بقالهم عشرين سنة.
- نظر إليها، ثم أكمل قائلًا: ما هو أصل مش كل اللي يبعد عن العين، بينفع يبعد عن القلب.

- بس برضو، في حاجة عمري ما فهمتها، ازاي اتنين يبقوا بيحبّوا بعض، ويسيبوا بعض بإرادتهم؟ يعني مهما حصل بينهم، لازم يتمسّكوا ببعض، أكيد ما بيبقاش حب بجد مش كدة؟
- مش شرط، ساعات الظروف بتبقى أقوى من الحب نفسه، وعشان أريحك من كل الأسئلة اللي تعباكي دي حاقولك حاجة، حاجتين ملهومش قوانين، الحب والفراق.
- قضبت جبينها مستفهمة: ازاي يعني؟
- يعني لما اتنين بيكونوا مرتبطين، مفيش طريقة أو خطوات لازم يمشوا عليها عشان يكمّلوا، ولو ماستمروش عليها مابيكمّلوش، احنا لما بنحب مابنختارش، لا بنختار حانحب مين ولا حانحبه إمتى، مش بس كدة، ده احنا ساعات ممكن نحب في أكتر وقت كنا شايفين فيه إن احنا مش مستعدين للحب ده، وإننا مستحيل نقدر نكون مع حد في الوقت ده بالذات، بس بنلاقي نفسنا حبينا واللي كان كان، نفس الكلام بالنسبة للفراق، في ناس لما بتتفارق مابيكونوش لاقيين سبب معين للفراق ده، غير إنهم بقوا حاسين بحيطة سد بقت بينهم، لا فاكرين اتبنت إمتى ولا عارفين مين اللي بناها، ومهما حاولوا، بيلاقوا نفسهم لا عارفين يهدّوها، ولا قادرين يعملوا مش شايفنها، عشان ساعتها القدر بيكون كتب عليهم الفراق.

التفت إليها ثم قال: ومحدش يقدر يحكم من برّه على أي اتنين إذا كانوا حبّوا بعض بجد ولا لأ، لإن كل علاقة ليها خصوصياتها وتفاصيلها،

وعشان كدة لازم اللي بيحكم ده يبقى جوّه الموقف، عشان يقدر يفهم ويستوعب.

لم تدرِ لحظتها لِمَ انقبض قلبها عقب سماعها لجملته الأخيرة، ربما لأن هذا الحوار أعادها إلى تلك المصاعب التي واجهتهما في بداية الأمر، ولكن خيالها لم يكن ليصوِّر لها أنها ستجد يومًا الإجابات على كل تلك التساؤلات بنفسها، وأنها سيُقَدَّر لها الفهم والاستيعاب حين تصبح هي ضمن من خضعوا إلى قهر الظروف، ويصبح هو لا شيء بالنسبة لها، مجرد اسم سيظل شبحًا يطاردها، ليذكّرها بأن "رشيد مصطفى" سيبقى دائمًا هو ألم الماضي، وشوق الحاضر، وذعر المستقبل.

- أفاقت بتلك اللحظة على صوت رشيد الذي جاء لينقذها من بئر أفكارها السحيق قائلًا: كاميليا، إيه سرحتي في إيه؟
- لأ ولا حاجة، سيبنا بقى من السيرة دي وقولّي، تسمع جوليا بطرس؟
- أجابها دون تفكير: طبعًا.
- ابتسمت قائلة: طيب تسمع إيه؟
- نظر إليها مغازلًا، ثماإبتسم بدوره قائلًا: لأ لو فيها جوليا بطرس بقى، يبقى سمّعينا شو الحلو فيك".

لم يعِدها من ذكرياتها، سوى صوت التصفيق الحاد الذي جاء معلنًا عن نهاية الحفل، الحفل الذي حضرته بجسدها فقط، بينما تركها عقلها، وسافر بعيدًا، حاملًا إياها إليه، إلى رشيد.

خرجَت من دار الأوبرا، وهي تعي تمامًا أنها ستقضي ما تبقى من ليلتها في البحث عنه، ففي طريق العودة كانت تبحث عنه في كل مكان، بين المارّة وبالسيارات المجاورة، ليس لرغبتها الجامحة في لقائه فحسب، ولكن لأن ثمة شعور مُبهَم كان قد سيطر عليها، مُحدِّثًا إياها بأنها ستلقاه، قطعًا ستلقاه.

عندما عادت إلى منزلها، كانت لا تزال شاردة، عيناها زائغتين وكأنها تمثال شمعي، لا توجِّه حديثها لأحد، ولا تجيب أسئلة أفراد عائلتها عما بها سوى بعينين مغلقتين، محرِّكة رأسها يمينًا ويسارًا في وهن، أن لا شيء، خشِيَت أن تتحدث فيفضحها صوتها المتهدِّج، وأن تنظر إليهم، فتبوح عَبَراتها الحبيسة بسرّها، ولكن ما لبث أن خلد الجميع إلى نومهم، حتى دلفَت إلى غرفتها، وأغلقَت بابها لتكمل رحلة البحث التي استمرت حتى خيوط الفجر الأولى، لم تكن تبحث عنه جسدًا، بل كانت تبحث عنه ذكرى وروحًا، أخذَت تدور حول نفسها كالمجاذيب، باحثة عنه بكل ما يحيط بها، كل ما احتفظَت به عمدًا، وما سقط منها سهوًا، كانت كلما تعثّرَت بأحد الأشياء التي تحمل عبق أيامهما سويًا، تستحضر ذكراها التي نُقِشَت على قلبها، أي يوم كان ذلك، وكيف كان، ماذا قال لها، وكيف كانت ابتسامته، وكلما تذكرت أكثر، لعنت ذاكرتها أكثر وأكثر، تلك الذاكرة التي أخذت تصارع كل محاولات كاميليا المستميتة للنسيان حتى أرغمتها على الاستسلام لها، آبية أن تُفلِت أي فرصة لتجعلها تحترق بعذابها، وكأن رشيد قد وشى بها إلى ذاكرتها، محرضًا إياها أن تفتك بها.

فتحت أحد الأدراج المجاورة لها، لتُخرج منه مفتاحًا صغيرًا كانت قد دسّته بين أشياءها، وتديره داخل صندوق خشبي عتيق، لتفتح على قلبها أبواب جهنم، كانت قد احتفظت داخل هذا الصندوق بأي شيء يتعلّق بذكراه، مهما كان يبدو بسيطًا، لأن بالنسبة لها، كل ما يتعلّق به كان مهمًا.

امتَدَّت يدها إلى قاع الصندوق، لتنتشل عدة بطاقات كانت قد عزمت على دفنها بداخله حتى تبقى بعيدة عن عينيها، تلك البطاقات التي كانت تحمل أعذب كلماته إليها، وبالرغم من أنّها كانت تحفظها جميعًا عن ظهر قلب، إلا أنها لم تقوَ على منع نفسها من قراءتها، ظلت تقرأ بطاقة تلو الأخرى، وما لبثت أن انتهت منهم، حتى أعادت قراءتهم جميعًا من جديد، وبكل مرة كان يستوقفها إمضاءه الواثق "رفيق عمرك، رشيد"، فتبتسم في مرارة وكأنها تسخر من حالها، وتكسو وجهها الحسرة على سعادة امتلكتها يومًا، ثم فقدتها دفعة واحدة، تاركة لها عدة بطاقات أحالتها الأيام إلى اللون الأصفر، وطيف لشبح يطاردها بكل مكان يحمل ذكراه.

أمسكت بهاتفها، وأخذت تعبث به، باحثة عن أي رسالة نصيّة منه لم تكن قد انتبهت إلى حذفها، فلم تجد، بهذه اللحظة كانت عينيها قد استسلمت إلى ألم مقلتيها المختنقة بدموعها، التي أخذت تهطل لتحرق وجنتيها، فاتجهت إلى جهاز اللاب توب الخاص بها، لعلها تجد بعض الصور التي كانت تجمعهما سويًا، ولكنها لم تجد أيضًا، كانت قد تخلّصَت من كل شيء، وهنا صار بكاءها نحيبًا، أخذت تبكي

وتبكي، وكأنها مدمن عزم يومًا على أن يتغلّب على مرضه، فتخلّص من كل ما كان بحوزته من مخدر، وعندما عاد الألم ينخر عظامه من جديد، عاد مرة أخرى ليبحث عنه ويصرخ كالمجنون، وكأنه لم يتحلَ بالعزيمة يومًا، فقد كان كل ما يريده آنذاك هو أن يتناول جرعته، لعل ضجيج عقله المضطرب يهدأ، وأوصاله المرتعدة تسكن، أما هي، فقد كان صوته الدافئ الذي لطالما عشقته، بتلك اللحظة، بمثابة المخدر بالنسبة لها.

بهذه اللحظة، قامت بفتح حسابها على موقع الفيس بوك، ثم كتبَت:

"يقولون إن الثمل ليس بمسؤول عما يقول أو يفعل، وأن المجنون كالأعمى والمريض، ليس عليهم حرج، لذا اعتبرت حبي مرضًا لا شفاء منه، وعشقي دربًا من دروب الجنون، تجرّعت الشوق حد الثمالة، وعددت عيناي لا تبصران منذ حرما النظر إليك، حتى إن تمكّن الضعف مني، وحادثتك الآن، أكون قد تبرّأت من مسؤوليتي، معلنة أنني بذلك، قد أصبحت ضمن أولئك الذين ليس عليهم حرج".

كان ذلك حين تلقّت رسالة من صديقتها "رنا"، تلك الفتاة التي كانت تفهم دائمًا ما يدور بخاطر كاميليا، دون أن ترهقها بالأسئلة أو تكلّفها عناء الشرح، وقد كانت تعلم جيدًا أن صديقتها لن تجتاز هذه الأيام بسهولة، وأن ذكرى رشيد لن تمر عليها مرور الكرام.

- إيه اللي مصحيكِ لحد دلوقتي؟
- مش جايلي نوم.
- انتِ كويسة؟

- ردت كاميليا باقتضاب: لأ.
- طيب بما إن بكرة الجمعة، تيجي نفطر بكرة في النادي سوا؟
- يا ريت يا رنا، أنا فعلًا محتاجة أشوفك.
- نتقابل بكرة الساعة ١٢؟
- اتفقنا.

أغلقت كاميليا حاسبها الآلي، ثم أغمضت عينيها، وأسندت رأسها إلى وسادتها، محاولة اختلاس بضع ساعات للنوم، لعل عقلها الذي أنهكه التفكير على مدار اليوم، يأخذ قسطًا من الراحة، قبل موعدها مع صديقتها رنا.

في هذه الليلة، لم تكن مفاجأة بالنسبة لها أن يقتحم عالم أحلامها، وهو الذي لم يغادر عقلها منذ أيام، كان أنيقًا، شديد الوسامة، وقد جلس إليها بـ "ديليس" أحد مقاهي الإسكندرية العتيقة، وأخذ يحدّثها وعيناه تفيض عشقًا، وكأن الفراق لم يعرف طريقه إليهما يومًا، والجفاء لم يدب بقلبيهما ذات ليلة، بدا كل منهما على سابق عهده، وكأن قلبه لم يُخلَق سوى ليدق بعشق الآخر.

استيقظَت لتجد نفسها لا تزال بفراشها، وأن كل ذلك لم يكن سوى حلمًا تمنّت لو تسترق منه بضع لحظات لتعيشها بواقعها الذي أصبح خاليًا منه، ولكن لم يثِر عجبها بذلك الحلم سوى شيئًا واحدًا، أنها لم تذهب برفقته إلى ديليس من قبل، بل لم تذهب إليه مطلقًا، نظرت إلى ساعتها لتجد أن موعدها مع رنا قد اقترب، وقفت أمام خزانة ملابسها تفكر فيما سترتدي، ولكنها لم تشعر بنفسها سوى وهي تجذب طرف

ثوبه المفضل، لم تكن تدري لماذا، ألأنها لا تزال واقعة تحت سطوة حلمها؟ أم لأن شعور الليلة السابقة بأنها ستلتقي به لا يزال يراوِدها؟

ركبت كاميليا سيارتها، متّجهة إلى النادي حيث ستلتقي بصديقتها رنا، وفي الطريق كان طيف رشيد يلازمها، وصورته كما رأته بمنامها نُصُب عينيها، أخذت تتخيل لقاءها به، كيف سيكون، وماذا ستقول له، تُرى أسيحدّثها عن الماضي، أم سيقُص عليها ما فاتها من حاضره؟ لم يكن يشغل بالها بتلك اللحظة سوى كلماتها التي أخذت تعدّها بحرص استعدادًا للقاءه الذي لا تدري متى سيكون، ولكنها تشعر أنه قريب.

لم يكبح جماح خيالها بهذه اللحظة سوى صوت هاتفها، مشيرًا إلى رسالة واردة من رنا، ما لبثت أن قرأتها حتى اتسعت عيناها في ذهول، وكادت أن تصطدم بالسيارة التي أمامها، فقد كانت الرسالة تنص على هذه الكلمات:

"كاميليا أنا آسفة، كنت ناسية إن عندي مشوار في محطة الرمل، اسبقيني انتِ على ديليس وأنا مش حاتأخر عليكِ".

لم يكن من السهل عليها أن تتجاهل دهشتها، أو تسيطر على تلك القشعريرة التي سرت بجسدها آنذاك، ولكنها لم تكن تملك بهذه اللحظة سوى أن تغير مسارها، متجهة إلى هناك، لتجلس في انتظار ما سيحمله القدَر إليها.

بـ "ديليس"، كانت كاميليا تنظر محدّقة إلى كل ما حولها في عدم استيعاب، المقاعد الخشبية، وفاترينة الحلوى، الأسقف العالية وما يتدلّى منها من تلك الثريّات الضخمة التي تَنُم عن عراقة المكان، الإضاءة الخافتة، والنوافذ المطلة على شوارع الإسكندرية العتيقة، التي قد خلت من زحام السيارات، ليبدو منها ما تبقى من رونقها وسحرها الفريد، كل شيء كان تمامًا كما رأته بمنامها، مما جعلها تشعر أنها أوشكَت أن تفقد عقلها.

اقتربَت من النافذة، ثم وقَفَت تتأمل تلك السماء الرمادية الملبّدة بالغيوم، وتراقب كيف تتلاطم الأمواج في ضجر، كانت تعلم أن ثمة عاصفة على وشك الهبوب، ولكن ما كان لها آنذاك سوى أن جذبت أحد المقاعد، وجلست بالقرب من النافذة وكأنها تود أن تكون في استقبالها إن هبّت.

فتحَت حقيبتها، ثم أخرجَت منها قلمًا وعدة أوراق مطوية تخلو من أي كلمات اعتادت أن تدسّها بحقيبتها أينما ذهبت، لتكون دائمًا مستعدّة لصد هجمات تلك الأفكار التي تجتاحها فجأة، ودون سابق إنذار، كاستعداد جندي مسلّح، ولكن بهذه اللحظة، الأمر كان يختلف، فقد كانت حقًا ترغب في الكتابة، ولكن ليس من أجل التصدّي لخواطر تداهمها، بل على العكس، فقد كانت مُنهَكة، خائرة القوى، ولم تعد ترغب بشيء سوى الاستسلام لصرير قلمها، ولحبره الذي أخذت ترقبه وهو يلطّخ أوراقها بنزيف من الكلمات، وكأنها ليست بكاتبته، لأن لحظتها، هو الذي كان يكتبها.

"يظن البعض أن شغفي بالكتابة، جعل مني شخصًا خياليًا حالمًا، يؤمن أن تحقيق الأساطير وحدوث المعجزات ما زال ممكنًا، ويرفض الانتماء إلى عالم الواقع، وأن كل ذلك ما هو سوى خطوات ستقودني يومًا إلى الجنون الحتمي، لا أعاتبهم على ما يظنون، فقد يكونوا حقًا ليسوا بمخطئين، ولكن لكل منا منظور يجعله يرى الأمور بصورة تختلف عما يراه الآخرين، قد أكون مؤمنة حقًا أننا لا زلنا بزمن المعجزات، ولكن الأمر ليس ناتجًا عن خيالي أو حبي لتصديق ذلك فحسب، بل نابعًا من إيماني بالله، وقدرته على صنع المعجزات بمختلف الأزمان والعصور، أؤمن بالقدر، وأتبع علاماته ورسائله، تلك الرسائل التي أتّخذها دربًا لأسلكه وأنا مغمضة العينين، في انتظار ما سيظهره الخالق لي من أسباب، وما سيرسله لي من خير ما يهِب.

أشعر الآن أنني واقعة تحت سطوة تلك العلامات، فبالأمس رأيته بمنامي وقد التقينا هنا، بذات المكان، بالبداية ظننت أن الأمر يتعلّق برغبتي في لقاءه، وانشغالي به الناتج عن ذكرى لقاءنا الأول التي ظلت تراودني، وتفاصيلها تداعب خيالي طوال الليلة الماضية، ولكن عندما تلقّيت منذ قليل رسالة رنا، وأخبرتني أننا سنلتقي هنا بدلًا من أن نلتقي بالنادي، أدركت أنها ليست مصادفة، وأن العلامات عادت لتغزوني من جديد، وأنا أقف كمحارب أعزل، في انتظار ما سيصيبه من سهام القدر.

أنا لست على موعد مع رنا، بل أنا على موعد معه، أعلم ذلك، وما موعدي مع رنا سوى سببًا، ساقني به القدر إلى حيث سألتقي به، لا، ليس مجرد شعور، بل إنه يقين.
أشعر به قريبًا، أقرب مما أظن، لا، ليس كذلك فقط، بل أكاد أجزم كم خطوة تفصلني عنه، وكم دقيقة تبقّت على موعدنا غير المُتّفَق عليه، أشعر وكأن عطره بدأ يختلط بأنفاسي، وأنفاسه توشك على الاقتراب أكثر لتدغدغني وتفقدني صوابي، أعلم أنني بأي لحظة سألتفت لأجده واقفًا خلفي، وتلتقي عيناي بعينيه، وما لي من منجٍ من عينيّ رشيد".

انتهت من الكتابة، ثم وضعت قلمها على المنضدة، وعادت بظهرها إلى الخلف مسترخية، لكن ما سمعته بهذه اللحظة كان حائلًا بينها بين أي محاولة للاسترخاء، وجدت نفسها تعتدل في جلستها، وقد استيقظت كل حواسها فجأة، وتنبّهَت بكل قدرتها إلى هذا الصوت الذي تردد على مسامعها محدثًا صخبًا مدوّيًا بداخلها، فقد كان وقْع الأقدام الذي أخذ صوته يعلو مقتربًا منها، يحدث ضجيجًا بأذنيها، واضطرابًا عنيفا بدقات قلبها الوجِل، أخذَت تنظر إلى قلمها الذي توقّف عن الكتابة، وتتساءل، أَهو صوت حقيقي، أم أن عقلها قد بدأ يجسّد ما به من خيالات محولًا إياها إلى صورٍ وأصوات؟
ما هي إلا لحظات حتى سكن الصوت، وتوقّف سير الأقدام، فزَفَرَت زفرة عميقة، لتعود وتلتقط أنفاسها من جديد، وتستعيد توازنها الذي كادت أن تفقده قبل قليل، ولكن سرعان ما مادت الأرض بها، وتلاشت

الأصوات كافة، فلم تعد تسمع سوى ذلك الصوت الذي ما لبث أن هتف باسمها، حتى شعرت وكأن قذيفة قد سقطت لتوّها فوق صدرها، التفتت برأسها إلى مصدر الصوت القادم من خلفها، لتدرك أن العاصفة التي كانت في انتظارها قد هبّت بالفعل، وأنها لم تعد تملك سوى أن تفرد شراعها استعدادًا لمواجهتها.

تحامَلَت على قدميها المرتعشتين لتنهض، أخذَت تنظر إليه متحققة تارة ومتأمّلة تارة أخرى، كان هو، رشيد، ماثلًا أمامها، بقامته العريضة وبشرته السمراء، وعينيه التي لم تنجح الأيام في إطفاء وهجها الأخّاذ، بدا لها تمامًا كما تخيّلَته، وكأنه قد قفز لتوّه من أحلامها، أما هو، فقد كان يقف على بعد خطوة واحدة منها كالمسحور، بلا حراك، ودون أن تنبث شفتيه بكلمة.

خطر ببالها لحظتها حال الجالسين من حولها، كيف يبدون لها بكل هذا الثبات، كيف ظلوا منهمكين بما يفعلون، ولم يركضوا مهرولين؟ أَلم تهتز الأرض بهم كما اهتزت بها؟ ألم يشعروا بذلك الزلزال الذي جعل الأرض ترتَج من تحتها، أم أنه كان قد ضربها وحدها؟

مد يده إليها مصافحًا، ولكنه ما لبث أن أمسك بها حتى شعر وكأنه قابضًا على كرة من الثلج، وكأن الدفء قد هرب من أطرافها فزعًا عندما رأته، نظرت إليه مبتسمة، وهمّت أن تقول له "في معادك بالثانية"، ولكنها عدَلَت عما برأسها في آخر لحظة، ليخرج صوتها المضطرب بسؤال بدا ظاهره عاديًا، بينما بباطنه، كان يكمن الفضول:

– ازيك يا رشيد؟

- أجابها بوِد، وهو ما زال ممسكًا بيدها: أنا تمام، انتِ عاملة إيه؟ احكيلي.

قبل أن تجيبه، بدَت وكأنها تذكرَت شيئًا، اختلست النظر سريعًا إلى أصابعه التي كانت خالية من أي خاتم يشير إلى ارتباطه، فلم تستطِع أن تخفي ابتسامتها، ولانت قسمات وجهها، ولكن قبل أن تعيد النظر إليه، كانت عينيها قد اصطدمت بمعصمه الذي كان يحيط به تلك الساعة التي ما زالت تذكرها جيدًا، فقد كانت أهدته إياها بعيد ميلاده.

- رفعت عينيها إليه لتجيبه: أنا كويسة.

ولكن لمفاجئتها، أنها وجدته يفعل الشيء ذاته، فقد كان يتجول بعينيه بين أصابعها التي كانت خالية أيضًا.

- جذبت يدها التي كانت قد استمدت الدفء بعض الشيء من بين أصابعه، ثم أكملت مشيرة إلى المقعد المقابل لها: طيب اقعد.
- نظر إليها متسائلًا: مش حضايقك؟
- هزت رأسها نافية: لا أبدًا، أنا كنت قاعدة مستنية رنا، بس هي اللي اتأخرت كالعادة.
- ياه رنا! هي عاملة إيه صحيح؟
- ابتسمت قائلة: كويسة، لو متأخرتش أكتر من كدة ممكن تلحقها.
- بهذه اللحظة اصطدمت عيناه بحفنة الأوراق المبعثرة فوق المنضدة، ثم سألها في فضول، وعيناه لا تزال معلّقة على الأوراق: انتِ كنتِ بتكتبي؟
- صمتت برهة، ثم أجابته: أيوة.

ما لبث أن مد يده إلى أوراقها محاولًا قراءة ما بها، حتى اتسعت عيناها مذعورة، وقد تذكرت ما سيتسنّى له قراءته إن ظلت الأوراق مبعثرة أمامه هكذا، وسرعان ما جذبت ما بيده من أوراق، ولملمت ما تبقّى منها على المنضدة، ثم دسّتهم بحقيبتها وقد بدا عليها الارتباك.

- ساد الصمت بينهما، فشعر باضطرابها، وأنّب نفسه لسوء تصرفه، ثم قال معتذرًا لها: أنا آسف يا كاميليا، أنا اتصرفت من غير ما أفكّر، زي ما كنت متعود معاكِ دايمًا.
- أجابته باقتضاب قائلة: حصل خير.

هبّت بهذه اللحظة رياح جعلتها تشعر ببرودة تجتاح جسدها، والذي كان يرتجف من شدة البرد، فأخذت تحرك يديها أعلى وأسفل ذراعيها، محاولة أن تستمد الدفء بهذه الحركة، ولكنها لم تكن تدري إن كان هذا الشعور قد نتج عن تلك الرياح المزعومة، أم أنه كان نابعًا من داخلها.

- حاول كسر حاجز الصمت بينهما، فسألها قائلًا: سقعانة؟
- أجابته دون أن تنظر إليه، ويديها لم تتوقفا بعد عن الحركة: شوية.
- كان ذلك حين أشار إلى النادل، ثم قال له: لو سمحت واحد قهوة مظبوط، وواحد قهوة بالبندق، بس يا ريت القهوة بالبندق تبقى في مج مش فنجان.

ظلت محدقة به في ذهول، وقد أصبح واضحًا لها أنه لا يزال يذكر أدق تفاصيلها.

نظر بدوره إليها، وقد أدرك ما يدور بذهنها، فابتسم إليها، ثم سألها مازحًا: لسة اللي عايز يصالحك، بيجيبلك قهوة بالبندق؟

- لم تملك لحظتها سوى أن تتخلى عن عبوس وجهها، لتعود وتبتسم له ابتسامتها الطفولية المعهودة، وقد هزت رأسها بالإيجاب.
- فاتسعت ابتسامته أكثر، لتبرز تلك الغمازة التي تستقر فوق خده الأيسر، ثم سألها مداعبًا: يعني انتِ كدة حاتصالحيني؟

أدارت وجهها عنه، ثم حجبته بيدها وانفجرت ضاحكة، أخذ يحاول استراق النظر إلى عينيها التي غابت عنه ابتسامتها منذ زمن بعيد، ولكنه لم يفلح، كان قد أخبرها من قبل، أن أول ما جذبه إليها كان عينيها، تلك العينين التي كانت تنطق دائمًا بما يترفّع لسانها عن قوله، لذا لم تشأ بهذه اللحظة أن تلتقي عينيها بعينيه، حتى لا يرى بهما أنها بخيالها، قد أغدقته بالقبل وعانقته آلاف المرات.

- ما لبثت أن توقفت عن الضحك حتى سألها: قوليلي، أخبار شغلك في البنك إيه؟
- سبته، وبشتغل دلوقتي في شركة إعلانات.
- ومبسوطة؟
- جدًا، فرق كبير بين إنك تبقى بتروح شغلك وانت مبسوط، وبين إنك تصحى كل يوم ناعي هَم اليوم قبل ما يبدأ.
- أيوة أنا فاكر فعلًا قد إيه كنتِ تعبانة من شغلك في البنك، طيب ووصلتي لإيه في موضوع الكتابة؟

- بكتب دلوقتي في المجلة اللي كنت باحاول أراسلها زمان، وليا مقال بينزل كل أسبوع.
- بتتكلمي بجد؟ طيب ممكن تبعتيلي الحاجات اللي كتبتيها؟
- أكيد.
- اتفقنا، وأنا حاقرأ وأقولك رأيي.

بهذه اللحظة، كانت تحلق فوق السحاب من فرط سعادتها لاهتمامه بأمرها الذي شعرت أنه ما زال يعنيه، فلم يحدث من قبل أن حدّثت شخصًا عن أحلامها، كما كانت تحدّث رشيد عنها، حتى صارت أحلامها بمرور الوقت، أحلامه هو أيضًا، ولكنها أيضًا كانت لأول مرة تجهل ما يدور بذهنه، كيف سيخبرها برأيه فيما كتبت، أسيعاود الاتصال بها من جديد؟ أسيحاول العودة مرة أخرى؟ أم هو مجرد حديث عابر لا هدف منه؟

- أكمل حديثه قائلًا: والقصص؟
- أجابته بثقة: أول رواية ليا حاتنزل الشهر الجاي.

لم يجد بهذه اللحظة ما يمكنه قوله، ربما لأن ما شعر به آنذاك كان أكبر من أن تصفه كلمات، ظل يستمع إليها وعيناه معلقّتان على عينيها المبتهجتين، وابتسامته الهادئة تعلو وجهه، أما هي فقد كان ما رأته بعينيه لحظتها كفيلًا بأن يجعلها تدرك، أن هذه النظرة ستظل مطبوعة على قلبها ما حَيَت، فقد كانت نظرته حينها الأغرب، والأجمل، كان ينظر إليها بعين حانية، وكأنها ابنته، وبداخله فخر أب أخذ يتساءل متى مرت الأيام حتى صارت طفلته الصغيرة، هي ذاتها الفتاة القوية المثابرة الماثلة

أمامه، والتي تسعى بكل جهدها إلى أحلامها دون كلل أو يأس، فتحققها!

- كانت تعلم جيدًا كم كان يراها في كثير من الأحيان ضعيفة هشّة، مما كان يثير غضبها، لذا سألته وقد ابتسمت بزهو: إيه، في تطور؟
- أجابها دون تفكير: طبعًا، وتطور كبير كمان.

أحضر النادل لكل منهما قهوته، رفعت كوبها إلى شفتيها لترشف منها، ثم أكملت حديثها متسائلة:

- احكيلي انت بقى، أخبارك إيه؟
- أنا كويس، بدأت أتعلم عزف عالعود.
- بتتكلم بجد؟ والله كنت عارفة إنك حتاخد الخطوة دي.
- نظر إليها متسائلًا: اشمعنى؟
- عشان انت عمرك ما كنت محدود بوقت أو سن في أي حاجة بتعملها، ودايمًا ماشي بمبدأ .It's never too late
- فهمس لنفسه قائلًا: والله حتى دي مبقتش متأكد منها.
- بتقول إيه؟
- لأ ولا حاجة، متاخديش في بالك.
- وإيه أخبار شغلك؟
- اترقيت الحمد لله.
- اتسعت ابتسامتها قائلة: طيب حلو، مبروك.
- ابتسم بدوره قائلًا: الله يبارك فيكِ.

خفتت ابتسامته، وصمت برهة، ثم أكمل: بس أقولك على حاجة ما قولتهاش لحد، أنا بفكر أسافر.

– فزعت لما قال، ولكنها حاولت أن تبدو هادئة: تسافر؟ ليه؟

– أجابها، وقد نظر إليها بصدق قائلًا: أنا ما بقتش قادر أتنفس هنا يا كاميليا.

وجدت نفسها بهذه اللحظة تحت وطأة شعور غريب، ليس له تفسير، فبالرغم من فراقهما، إلا أنها لم تتقبل أمر سفره بسهولة، ودّت لو كان بإمكانها أن تفصح عن رغبتها في أن يجمعهما لقاء آخر، حتى ولو كان لقاء أخير، وبالرغم من الأثر السئ لما قاله على نفسها، إلا أن بهذه اللحظة كان هناك أيضًا شعور بالسعادة يغمرها، لتجمع بين النقيضين من المشاعر في آن واحد، شعرت أنه وبالرغم مما حدث بينهما، إلا أنه ما زال يسمح لها أن تدلف إلى تلك الغرفة المظلمة بداخله، ليخبرها بما لا يخبر به أحدًا.

– اتكأ بذراعيه على المنضدة، ليقترب منها، وقد نظر بعينيها مباشرة، ثم ابتسم قائلًا: بس تعرفي يا كاميليا، أنا بجد مبسوط إني شوفتك.

شعرت لحظتها وكأن هذه الجملة، ما هي سوى الوجه الآخر لـ "اشتقت إليكِ"، فعيناه قد وشَت به، وصوته لم يحفظ سرّه.

– أجابته وعينيها تحمل له ذات المعنى: وأنا أكتر يا رشيد، بجد.

– كان ذلك حين أتى النادل إليه مهرولًا، ثم قال: يا أستاذ، الحق، الونش حايكلبش عربية حضرتك.

– فنهض قائلًا: إيه ده؟ ده أنا نسيت خالص إني راكن صف تاني.

ثم نظر إلي كاميليا، موجّها حديثه إليها: أصلي كنت داخل أجيب حاجة أشربها وماشي، ماكنتش عامل حسابي إني حاقعد.

توقّعَت لحظتها أن يصافحها مغادراً، ولكنه فاجأها قائلًا: استنيني، حاركن وآجي.

ظلت تتبعه بعينيها، حتى أصبح خارج المقهى، ولكنّه ما لبث أن ركب سيارته، وانطلق مبتعدًا، حتى اصطدمت عيناها بهاتفه الذي كان لا يزال فوق المنضدة، لم تكن تدري آنذاك إن كان قد نسى أن يأخذه نظرًا لعَجَلته، أم أنه قد تركه عمدًا حتى يضمن بقاءها.

ما هي إلا لحظات قليلة، حتى دق هاتفه، أخذت تنظر إلى الشارع باحثة عنه، لكنه لم يكن قد أتى بعد، عادت لتنظر إلى هاتفه الذي لم يتوقف عن الدق، مما أثار قلقها، وفضولها في آن واحد، استسلمت لنداء أصابعها التي امتدت إلى الهاتف لتمسك به، ولكنها ما لبثت أن رفعته إلى عينيها، حتى شعرت وكأن أحدهم قد أضرم النيران بين ضلوعها، وأن قلبها قد صار بركانًا توشك حِمَمه المتطايرة على التهامها، توقف بها الزمن، فلم تعد تسمع سوى صوت هاتفه، ولا ترى سوى ذلك الاسم الذي ظهر على شاشته: "my love"

عاد رشيد إلى ديليس، ولكنه ما لبث أن دلف متجها إلى المنضدة، حتى أتاه النادل قائلًا: يا أستاذ، الآنسة اللي كانت مع حضرتك مشيت.

– ذهل رشيد قائلًا: إيه؟ مشيت؟

استدار ناظرًا إلى حيث كانا يجلسان ليتحقق مما قاله النادل، ولكنه لم يجدها، فعاد يسأله: مشيت راحت فين؟

– والله ماعرفش، بس هي مشيت وسابت لحضرتك الحاجات دي.

مد رشيد يده إلى النادل ليأخذ ما تركته له، كان هاتفه الذي ما لبث أن وقعت عينيه على شاشته، حتى أدرك سر رحيلها، وورقتان مطويتان، تشبه تلك الأوراق التي كانت مبعثرة فوق المنضدة حين أتى.

غادر مرة أخرى متجها إلى سيارته، وقد كسى الوجوم وجهه، وضع هاتفه فوق أذنه، وما لبث أن أجاب الطرف الآخر، حتى قال: صباح النور يا نهى.

– كلمتك، مردتش عليّا ليه؟

– أنا آسف، أصلي دخلت أجيب حاجة أشربها من ديليس، ونسيت الموبايل في العربية.

– أجابته برقّة قائلة: ولا يهمك، بس ابقى خد بالك المرة الجاية، أنا قلقت عليك.

– أجابها بصوت خافت: حاضر يا حبيبتي.

– بقولك إيه، أنا كلمت الراجل وهو مستنينا، حاتعدي عليا إمتى عشان نروحله؟

– ابدأي اجهزي، نص ساعة بالكتير وأكون عندك.

– ماشي ماتتأخرش.

– مسافة السكة.

ظل رشيد جالسًا بسيارته، وقد عزم على ألا يبرح مكانه حتى ينتهي من قراءة ما بهاتين الورقتين اللتان تركتهما له كاميليا، ثم اختفت.

الورقة الأولى، كانت تحمل تلك الكلمات التي كتبتها قبل مجيئه، والتي رفضت السماح له بقراءتها في بداية الأمر، ولكنها عدلت عن رأيها بعد ما حدث، وبعد أن أدركت أن الكلمات لن تغير من الأمر شيئًا، ولكنها أرادت أن تجعله يعرف أن ما حدث لم يكن مصادفة، بل قَدَر مُحكَم.

أما الورقة الثانية، فقد كانت تحمل له هذا الخطاب:
"هذا الخطاب ليس خطابي الأول لك، بل سبقه خطابات كثيرة احتفظت بها لنفسي، بعضها كنت أصف لك به حبي لك ومشاعري الصادقة تجاهك، عازمة على أن أهديها لك بالوقت المناسب، ذلك الوقت الذي لم يحِن، ولن يحين، والبعض الآخر كنت أشكو به منك وإليك، وذلك الذي لم أكُن أنوي على أن أظهره لك أبدًا.

أعباء كثيرة حملتها وحدي دون أن تعلم عن الأمر شيئًا، ودون أن أكلّفك عناء حملها معي، فقط حتى لا أفقدك، تحدّيت الجميع من أجلك، حتى لا أُحرَم من ذلك الدفء الذي كنت أحظى به وأنا بالقرب منك، لم تكُن تدري بتلك الليالي التي قضيتها باكية، خائفة، لا أعلم كيف ستنتهي بنا الأمور، أو ما ستحمله الأيام لنا، كل ذلك حملته وحدي، حتى جاء دورك أنت أيضًا، وأصبحت تؤلمني حتى ضاقت روحي بما حملَت، وطفح الكيل فلم يعد بوسعي أن أحتمل المزيد، كنت تظن إن كان بإمكاننا أن نتخطى خلافنا الأخير، ونتجاوز عما حدث، ولكني لم أملك

من أمري آنذاك سوى أن أخلع خاتم خطبتي، وقد أدركت أن زواجنا لن ينتهي بنا سوى بفقدان كل منا حب الآخر، وأن ما بيننا سيظل يتلاشى شيئًا فشيئًا، حتى يختفي تمامًا، أنت لم تحاول أن تجعلني أتراجع عن قراري أو تسألني لماذا وصلت بيننا الأمور إلى هذا الحد، فقد احترمت قراري وآثرت الابتعاد، ولكن ها أنا أخبرك بالسبب الآن، رغم حبي الكبير لك وحبك لي الذي لم أشُك به يومًا، إلا أنك بلحظة ما أصبحت تخيفني وتؤلمني بكلماتك الجارحة كلما تغضب، بدلًا من أن تكون سندًا لي وملجأً ألوذ إليه في لحظات خوفي، لذا أدركت أن ما بيننا قد بدأ يتساقط كأوراق الخريف، وكانت تلك هي اللحظة التي خلعت بها خاتم الخطبة.

كنت كلما اشتقت إليك، قلت لنفسي إن جرحني، فجرحته، وانتهى الأمر ، لكني وبمرور الوقت، أدركت أن أمر كهذا لا ينتهي، يحدث أحيانًا أن يكون الرحيل اختيارنا، ولكن ليس بالضرورة أن يتبعنا القلب طائعًا، كان حبك كمرض خبيث أصابني، ولم يكُن أمامي آنذاك سوى واحد من أمرين، إما أن أحيا به، في انتظار الموت المحقق، وأنا أشعر به يلتهم كل ليلة جزءًا أكبر من روحي، أو أن أستأصله لأشفى تمامًا، فاخترت الأمر الثاني، استأصلته وشُفيت، ولكن شفائي هذا لم ينسِني يومًا أنني قد استأصلت جزءًا مني.

عندما تقرأ خطابي هذا، تكون قد علمت أنني كنت في انتظارك اليوم، لا أعلم إن كان القَدَر قد ساقك إليّ، أم ساقني إليك، ولا أعلم أيضًا حكمة الله في ذلك، في بداية الأمر ظننت أنها العودة، ولكن عندما أدركت أن ثمة

امرأة أخرى قد سكنت قلبك، عادت الأسئلة تداهمني مرة أخرى، لماذا الآن؟ لماذا تآلفت قلوبنا من جديد إثر لقاءنا هذا، إن كان لن يغير من الأمر شيئًا؟ لماذا تجاهلنا من الذكرى البغيض منها، ولم نذكر سوى أطيبها؟ وكأننا لم نؤلم بعضنا يومًا، لا أدري، ولكني سأحاول ألا أرهق عقلي بأسئلة أعلم أنني لن أحصل على إجاباتها الآن، ولكني حتمًا سأحصل عليها يومًا ما.

أتذكُر عندما اقترحت عليّ أن أكتب قصة تتحدث عن لقاء ما بعد الفراق، لم أتخيل يومًا أنني سأكتبها، ولكنها لن تكون قصة غريبين من نسج الخيال، بل ستكون قصتنا نحن، نعم سأكتبني وأكتبك، وسيكون إلهامي من وحي لقاءنا هذا، فثمة آلام لا ننتهي منها، سوى بالكتابة عنها، لتصبح واحدة ضمن قصص كثيرة مررنا بها، ولم يقدّر لها الاكتمال، ربما أيضًا تكون الأولى، ولكنها قطعًا لن تكون الأخيرة.

حتى نلتقي،

كاميليا".

انتهى رشيد من قراءة خطابها، وقد فغر فاه، لم يستطِع أن يرفع عينيه عن كلماتها، ولم يصدق أن ما حدث قبل قليل قد حدث بالفعل، وأنه بعد فراقهما الذي دام لأكثر من عام، التقى بها، وما لبث عقله أن استوعب أمر لقاءهما هذا، حتى عادت لتختفي من جديد، ظل يعيد قراءة كلماتها مرارًا، وكأنه يريد أن يؤكد لنفسه أنه التقى بها حقًا، وليس بشبحٍ يشبهها، كاد أن يفقد عقله وهو يصيح ضاربًا بيده مقود سيارته، مرددًا لنفسه ذات

السؤال "بس كان ليه دلوقتي؟"، ربما لم يَكُن يفكر بأمر العودة قبل لقاءهما، وربما أيضًا هو لنهى عاشقًا، ولكن هذا لا ينفي واقع أن لقاءهما كان له وقعًا مدويًا على نفسه، وأنه كان حقًا يشتاق إليها، وإلى حديثها.

أدار سيارته متجهًا إلى منزل حبيبته نهى، وقد هم بإشعال سيجارته لعله يخرج من صدره أنفاسه الحانقة، وزفراته الحائرة، ولكنه ما لبث أن أشعلها، حتى التقطت أنفه رائحة يذكرها جيدًا، تلك الرائحة التي لم تَكُن سوى عطرها الذي علق براحة يده عند مصافحتها، ولم يبرحها، لم يكن له لحظتها سوى أن ابتسم، ثم نقل سيجارته إلى يده اليسرى، حتى لا يمحي دخان سيجارته الخانق، آثار عطرها الذي اخترق مسامه.

لم يخرجه من أفكاره سوى صوت نهى التي فتحت باب سيارته، وجلست إلى جانبه قائلة:

- وحشتني.
- فابتسم لها ابتسامته الحانية قائلًا: وانتِ كمان، يلا بينا؟
- يلا.

امتدت يد نهى نحو الكاسيت، وقد أدارت المؤشر نحو إحدى المحطات الإذاعية، ولكنها لم تكن تدري بتلك الصاعقة التي ستضرب رشيد، حين يأتيه صوت علي الحجار مباغتًا:

"ولما تتلاقى الوشوش مرتين
مابيتلاقوش يوم اللقا التاني
عمر الوشوش ما بتبقى بعد السنين

نفس الوشوش.. دي بتبقى شيء تاني"

لم يستطِع رشيد حينها أن يخفي مفاجأته، أخذ ينظر إلى الكاسيت، وقد اتسعت عيناه فزعًا، وكسى الذهول وجهه، لاحظت نهى تغير ملامح وجهه، فسألته:

- مالك؟ اتخضيت كدة ليه؟
- لأ أبدًا، بس أصل الأغنية دي معلّقة في دماغي من الصبح.
- طيب سمَّعنا حاجة تانية.
- انتِ ما بتحبيهاش ولا إيه؟
- لأ بحبها، بس حزينة، ماحبكتش أسمعها يعني واحنا نازلين نجيب الدِبَل.
- أجابها شاردًا، وكأن ما قالته حاكى شيئًا آخر بداخله: عندك حق، ماحبكتش يوم ما نبقى بنجيب الدِبَل.

فكر قليلًا، ثم أكمل قائلًا: حاسمّعِك أغنية حلوة.

كان ذلك حين بدأت جوليا بطرس تغرد بأغنية "شو الحلو فيك"، لم يكن يعلم آنذاك إن كان قد عزم على أن يتخلّص من الماضي، ويشيّد فوق أنقاضه حدائقًا وقصورًا، أم أنه بذلك كان يخلق لماضيه جذورًا لا تُقتلع، وجسورًا ستظل تربطه به دائمًا.

إلى أولئك الأبطال الذين لا يظهرون على شاشات التليفزيون، ولا يحتلّون أغلفة المجلات، إلى الذين قُدِّرَ لهم أن يقفوا وجهًا لوجه أمام وحش المرض اللعين، ولكنهم لم يستسلموا، ولم ييأسوا، إلى الذين لم ينجح الألم في محو ابتسامتهم، أو يُفقِدهم تحلّيهم بالصبر، وسواء انتصروا أم لا، فقد عزموا على أن يخوضوا تلك المعركة بكل ما أوتوا من قوة، ليقفوا كالمقاتلين البواسل وقد أشهروا سيف عزيمتهم في وجه الخوف، بكل استطاعتهم، وحتى آخر نَفَسْ.

الطول واللون والحرية

بأحد أيام أغسطس الحارقة، وعلى طريق القاهرة إسكندرية الصحراوي، كان خالد يستقل سيارته متجهًا إلى القاهرة، ولا شيء يبتر ذلك الصمت الموحش، سوى دقات قلبه الوجلة، وأنفاس أمه التي يتخللها أنينها المتقطع، بينما هي نائمة بالمقعد المجاور له، أخذ يتأمل وجهها الشاحب، وجسدها الهزيل الذي أحكم المرض قبضته عليه، في حسرة وخوف، تُرى ما الذي ستحمله زيارة طبيبها إليهما هذه المرة؟

أصبح يمقت هذا الطريق، فكلما سلكه، يذهب محملًا بمخاوف المجهول، ويعود مثقلًا باليأس والإحباط، تُرى ما سيقوله الطبيب اليوم سيستطيع أن يبث بداخله شيئًا من الطمأنينة التي حُرِمَ منها منذ علم بمرض والدته، أم أن ما أشبه اليوم بالبارحة؟

يكاد قلقه عليها أن يفتك به، وأصبحت فكرة فقدانها كابوسه اليومي الذي يحول بينه وبين نومه الهادئ كل ليلة، أدار الراديو لعله يقطع ذلك الصمت وينتشله من بئر أفكاره السحيق، ولكن ما لم يكن يتوقعه أبدًا أن يأتيه صوت "منير" ليخرجه من ذلك البئر العميق ويسقطه في آخر أكثر عمقًا.

"مش عايز أحبك مش عايز
مش داخل سجنك مش جايز
مش جايز أدوب فيكِ وبيكِ
ده أنا أموت في عينيكِ من غمزة
أنا عارف نفسي وتلكيكي
حاعشق لياليكِ من لمسة
ده أنا أنسى في شفايفك اسمي
أنا فاهم في كنوز العفة
ده أنا ممكن أجرّيلك دمي
أنا حاسس دمي حايتصفى
مش عايز أحبك مش عايز
مش داخل سجنك مش جايز
بالظبط الشعر اللي بحبه
الطول واللون والحرية
ده مهفهف على وشك لاعبه
أوصفلك إيه يغمى عليا

مش عايز أحبك مش عايز
مش داخل سجنك مش جايز"

أعادته كلمات الأغنية إليها، إلى كل تفاصيلها، وإلى سبع سنوات مروا عليه من بعدها، أتُراه نساها حقًا، أم كان دائمًا يتعمد أن يتناساها؟ نعم، كان يتناساها، ولطالما حاول أن يفعل، هاربًا من ذكراها ومن السؤال الذي كان كلما مر بذهنه، يوخزه ضميره وينقبض له قلبه، تُرى أين هي الآن؟؟

كان يعلم جيدًا أنه تسبب لها في ألم كبير، حتى ولو دون قصد، ولكنه لم يستَطِع أن ينفي عن نفسه واقع أنه تخلّى عنها، لذا كثيرًا ما كان يظن أن ما حدث لأمه كان ذنبها، إذ تخلّى عن أكثر إنسانة أحبّته، فأصابه الله فيمن لن يستطيع أن يتخلّى عنها أبدًا، والدته.

عاد بذاكرته إلى عام ٢٠١٠ حيث بدأت علاقتهما، وتحديدًا إلى ذلك اليوم الذي أصبحت به هذه الأغنية تحمل ذكرى تجمعهما، ذلك اليوم الذي بدأ به كل شيء.

كان يومًا عاصفًا، لم تتوقف به الرياح عن الهبوب، أو المطر عن الهطول، خرج من عمله مسرعًا إلى سيارته قبل أن يأخذ نصيبه من المطر، فهو يعلم جيدًا أنه كلما أُصيب بنوبة برد، يظل طريح الفراش لأسبوع على الأقل، هَمَّ ليركب سيارته ليجدها ما زالت واقفة، سارة، زميلته بالعمل، تلك الفتاة ذات العينين الخضراوتين والشعرالذهبي الطويل الذي ينسدل فوق ظهرها في انسيابية حتى يلامس خصرها، كانت بشرتها الفاتحة وملامحها الأوروبية تعطي من لا يعرفها انطباعًا

عنها أنها جسد بلا روح، خصوصًا وأنها لم تكن كثيرة الاختلاط بمن حولها، مما جعل زملائها في العمل يطلقون عليها سرًا اسم "بياض الثلج"، أما خالد، فعلى الرغم من أن علاقته بها لم تكن تتعدى التحية وبعض الكلمات القليلة التي كانت دائمًا في إطار العمل، إلا أنه كان يجد بها شيئًا يجذبه إليها كلما التقت أعينهما، شيئًا لم يسعه سوى أن يستسلم له، وكأنها بحر تجذبه رماله المتحركة من تحت قدميه إلى الأعماق، بينما يقف هو مسلوب الإرادة، فشيء بداخله يحدثه بأنها ليست متعجرفة، ليست قاسية أو بلا روح كما يزعم البعض، ولكنها ربما تكون خجولة، ومتحفظة بعض الشيء.

ظل واقفًا يتأملها وقد انهال عليها المطر، وأخذت ترتجف من شدة البرد، رباه، ما من شيء يؤثر عليها، فهي الأجمل دائمًا مهما حدث، ظل يقف مترددًا، أتُراه يذهب ليحدّثها أم لا؟ يخشى أن يذهب إليها فتصدّه ويندم على فعلته، ولكنها زميلته، ولو كانت أي زميلة له بمكانها، لكان سيعرض عليها المساعدة، ولن يتركها واقفة هكذا، سيذهب إليها ويحدث ما يحدث.

- سارة، مالك واقفة كدة ليه؟
- أبدًا، بس مش لاقية تاكسي.
- ليه فين عربيتك؟
- جيت أطلع بيها الصبح، لقيتها مش بتدور، فسيبتها وأخدت تاكسي، الغريبة إن كل يوم الجو بيبقى حلو، وعلى حظي الدنيا تمطر النهاردة.

- همس لنفسه، وهو يضحك ضحكة ماكرة قائلًا: ده حظي أنا والله.
- نظرت له مستفهمة: بتقول حاجة؟
- لا، ولا حاجة، طيب ناوية تعملى إيه، حاتروّحي ازاي دلوقتي؟
- مش عارفة، شكلي كده حادخل جوة تاني لحد ما الشتا يقف، وبعدين أبقى أروّح.
- سألها مباغتًا، وقد أدرك أن فرصته قد جاءت: وإن ماوقفش؟
- رفعت كتفيها وقد التوت شفتيها: مش عارفة.
- طيب تحبي أوصلك؟
- نظرت إليه بريبة، ثم أجابته: لأ مفيش داعي.
- نظر إلى السماء الرمادية والمطر الذي أخذ يسقط بغزارة، ثم التفت إليها، وسألها ساخرًا: كل ده ومفيش داعي؟ أُمال لو في داعي كان إيه اللي حصل؟ أعاصير بقى.

ما لبثت أن سمعت جملته، حتى انفجرت ضاحكة، ضحكة أذابت قلبه ومعه جبلًا من الجليد كان يفصل بينه وبينها، أما هو، فأخذ يتأملها وقد أدرك أن هذا اليوم الممطر لن ينتهي بوعكة صحية فحسب، بل وبوعكة عاطفية لا مفر منها.

أفاق من شروده على صوتها، وهي تلوح بيدها أمام عينيه: خالد، إيه روحت فين؟

- فابتسم قائلًا: لا أبدًا، أنا معاكِ، ها يلا بينا؟

لم تجبه وأخذت تنظر إليه في تردد يشوبه الخجل، فما لبث أن صاح قائلًا:

- لأ احنا كده هَنبات هنا، وأنا والله لو جالي برد حايبقى ذنبي في رقبتك، ها حاتيجي ولا لأ؟
- حدقت به، مشيرة له أن يخفض صوته، ثم همست قائلة: خلاص جاية.

سارت خلفه بخطى مترددة، بينما هو كان يبتسم لنفسه ابتسامة زهو ماكرة، وكأنه محاربًا عاد لتوّه من أرض المعركة، بعد أن حقق أعظم انتصاراته.

في الطريق كان خالد يسترق النظر إليها بين حين وآخر، غير مصدق أنها تجلس بجانبه، ممتنًا لذلك الزحام الذي سمح لهذه الفرصة أن تدوم لفترة أطول من المعتاد، أما هي، فقد كانت تنظر عبر النافذة، شاردة في أفكارها التي أخذت تتلاعب بها، واقعة تحت سطوة ضميرها الذي كان آنذاك يجلدها جلدًا، فهي لم تعتَد أبدًا أن تركب سيارة برفقة أي رجل مهما كانت صفته، هكذا تربّت ببيتها وبمدارس الراهبات التي التحقت بها منذ صغرها، ماذا ستقول لوالديها الآن؟ أتُراها قد أساءت التصرف عندما قبلت بدعوته، أم أنه يُعَد أمرًا عاديًا في ظل ظروف هذا الطقس السيء، أتُراها قد تجاوبت معه أكثر مما يجب خصوصًا أنها تضع دائمًا حدودًا لعلاقتها بزملائها بالعمل مما سيجعله يسيء فهمها، أم أنها تُحمِّل الأمر برمّته أكثر مما يستحق؟

أدار خالد الراديو لعله يقطع ذلك الصمت الذي خيّم عليهما، ويخفف من توتّرها الذي كان واضحًا جدًا بالنسبة له، التفت إليها، ثم سألها قائلًا:

- بردانة؟ تحبي تاخدي الجاكيت بتاعي؟
- نظرت إليه نظرة حادة يشوبها الشك، ثم ردت قائلة: لأ شكرًا.
- لأ ليه؟
- عشان ببساطة أنا متعودتش على كدة، حتى ركوبي معاك العربية ده استثناء ليه ظروفه، ومش حايتكرر تاني.

أنهت كلماتها، ثم التفتت لتنظر من خلال النافذة مرة أخرى، أما خالد فصمت قليلًا، وقد شعر أنه تسرّع بسؤاله، ثم عاد ليسألها في خجل:

- طيب مالك بس اتضايقتي ليه كدة؟ أنا ماقصدش حاجة والله، وصدقيني ماكنتيش محتاجة تقولي اللي انتِ قُلتيه ده، لإن أنا عارفه كويس، كل الموضوع إنك كنتِ بتترعشي من السقعة، فقُلت تلبسيه تتدفي شوية لحد ما توصلي البيت، بس كدة.
- حصل خير.

عادت لتلتفت إلى النافذة، ثم نظرت إليه وكأنها تذكرت شيئًا، وقالت:

- على فكرة انت إنسان غريب جدًا.
- أنا؟! ليه؟
- يعني انت عادةً كلامك قليل جدًا معايا، والنهاردة فجأة كدة تيجي تكلمني وتعرض عليا توصلني، لأ وآخد الجاكيت بتاعك كمان، وفوق كل ده، كل ما اتدوّر واحنا في الشغل ألاقيك باصصلي

بصّات غريبة، وانت أصلًا بتقول صباح الخير بالعافية، انت عايز إيه؟

ظلا محدقين ببعضهما البعض لعدة لحظات أدركت خلالها رعونة سؤالها واندفاعها، أما هو، فقد فاجأه سؤالها كثيرًا، وأربكته جرأتها، ولكنه لم يُجِبها، لأن آنذاك، كان صوت منير الصادر من الراديو يحمل الإجابة وهو يردد قائلًا:

"مش عايز أحبك مش عايز
مش داخل سجنك مش جايز
مش جايز أموت فيكِ وبيكِ
ده أنا أموت في عينيكِ من غمزة
أنا عارف نفسي وتلكيكي
حاعشق لياليكِ من لمسة"

ما لبث خالد أن استمع إلى كلمات الأغنية حتى التفت إلى سارة بابتسامته الساخرة محاولًا طمس ارتباكه، وأشار إلى الراديو قائلًا: أهو ده بقى بالظبط اللي أنا مش عايزه.

صمت برهة، وقد أدار وجهه عنها ثم همس لنفسه قائلًا: أو بمعنى أصح، عايزه بس خايف.

ظل خالد صامتًا، لم يجرؤ على النظر إليها بعد ما قال، فقد كان ينتظر توبيخها له، أو ربما صياحها طالبة منه أن يتوقف لتخرج من السيارة، وتكمل الطريق إلى منزلها بمفردها، ولكن لمفاجأته لم يحدث أيّ من هذا، التفت إليها خلسة ليرى ردة فعلها، فإذا بها قد أسندت ظهرها إلى

النافذة، وعقدت ذراعيها فوق صدرها، وظلت تنظر إليه بابتسامة خافتة لم يفهم سرّها.

- همّ ليسألها بصوت خافت، وكأنه يخشى إجابة سؤاله: مالِك بتبصيلي كدة ليه؟
- أبدًا، مستنياك تكمّل.
- أكمّل؟؟ أكمّل إيه؟
- تكمل كلامك، كنت بتقول عايز بس خايف، عايز إيه وخايف من إيه بقى؟
- لم يُجِبها، ولكنه اتجه إلى جانب الطريق، ثم توقف فجأة، واستدار إليها قائلًا: يا بنتي انتِ بتلعبي بأعصابي؟؟
- أنا؟؟ أبدًا والله.
- أُمال إيه؟؟ شوية مش طايقاني وشوية عندك استعداد تسمعيني، انتِ إيه فيهم؟
- ابتسمت له ببراءة طفولية، ثم أجابته قائلة: كنت مش طايقاك من شوية، ودلوقتي عايزة أسمعك، فيها حاجة دي؟؟
- لم يسعه آنذاك سوى أن تبدل عبوسه إلى ابتسامة حانية رغمًا عنه، ثم سألها قائلًا: طيب وليه دلوقتي بقى؟
- سرعان ما تحولت ابتسامتها الطفولية إلى أخرى أنثوية ماكرة: مش قبل ما تجاوب على سؤالي، عايز إيه وخايف من إيه؟
- أدرك آنذاك أنها لن تسمح له بالهرب من الإجابة، فعزم على أن يخرج كل ما في جعبته مهما كلّفه هذا، فهذه فرصته الذهبية التي

ربما لن تتكرر مرة أخرى: بصي بقى يا سارة، أنا مشدودلك، ومش من دلوقتي، يمكن من ساعة ما جيتي الشركة تقريبًا، وكل ما باجي أكلمك أخاف تصُدّيني، بخاف من رد فعلك، خصوصًا إن انتِ ملكيش تعامل مع حد خالص، يعني بتيجي تخلصي شغلك وتمشي، فعُمر ما كان في فرصة لأي حاجة، النهاردة لما لقيتك واقفة في الشتا ومعكيش عربية حسيت إن دي علامة، وفرصة جايز ما تتكررش تاني، جايز لو أي حد من زمايلنا كان مكانك كنت حاتصرف بنفس الطريقة، بس ده مايمنعش إني لما لقيتك، حسيت إني ما ينفعش أسيبك.

- ظلت تستمع إلى كلماته، وما لبث أن انتهى منها حتى سألته قائلة: طيب ممكن أسألك سؤال؟
- أكيد.
- اشمعنى أنا؟ يعني إيه اللي شدّك ليا أنا بالذات؟
- مش عارف، كل اللي أعرفه إني لما بشوفك مش بعرف أشيل عيني من عليكِ، عينيكِ، ابتسامتك.

صمت برهة، ثم ابتسم قائلًا في خجل: ده حتى شعرك، بالظبط زي ما بيقول منير في الأغنية.

- ابتسمت إثر سماعها لكلماته، ثم سألته قائلة: طيب وانت شايف إن ده كفاية؟ ما يمكن أطلع سخيفة، غبية، مملة، يعني انت جايز يكون عاجبك شكلي، بس انت ما تعرفنيش بجد.

– أجابها مازحًا: ده انتِ بتطفشيني بقى، وعمومًا يا ستي ده سبب أدعى إني أعرفك، ادِيني فرصة يا سارة، وأوعدك مش حاتندمي.

أدارت وجهها، ونظرت من خلال النافذة، أما هو فاقترب منها محاولًا أن يرى تعبيرات وجهها، ولكنه لم يستطِع أن يلحظ ابتسامة الخجل التي كست وجهها، فسألها قائلًا:

– طيب إيه؟ أفهم أنا إيه دلوقتي؟

– نظرت إليه بعد أن تمكنت أخيرًا من السيطرة على ابتسامتها الواسعة قائلة: مش عارفة، بس الغريبة إني مش متضايقة.

همّ ليكمل حديثه ولكنها سبقته وهي تمسك بمقبض باب السيارة قائلة: شكرًا على التوصيلة، أنا حانزل هنا عشان عايزة أجيب حاجة قبل ما أروح.

خرجت من السيارة وبمجرد أن أغلقت الباب، هتف خالد قائلًا:

– سارة، ماردتيش انتِ بقى على سؤالي.

قضب جبينها، ونظرت له مستفهمة، فأكمل قائلًا: ليه ما كنتيش طايقاني، وفجأة بقى عندك استعداد تسمعيني؟

– ابتسمت، ثم أجابته قائلة: عشان أنا كدة، دوغري، مليش في الناس اللي بتلاوع، بس بحترم جدًا اللي يواجه.

هز رأسه مبتسمًا، وقد أدرك ما تقصده، ثم لوّح لها مودعًا، وغادر منتشيًا بمصارحتها، قلقًا من عواقبها، فقد كان يعلم جيدًا أن النوم لن يعرف طريق عينيه بهذه الليلة.

كانت تلك هي بداية علاقتهما التي استمرت لمدة عام كامل، كان الأجمل بحياة كل منهما، أصبح هو خلاله أكثر وضوحًا وجرأة في حبها، وأصبحت هي أكثر إشراقًا وإقبالًا على الحياة، أخبرها عن اسم "بياض الثلج"، وأخبرته أن السبب وراء انطواءها كان تربيتها المحافظة والتي جعلتها قليلة الاختلاط بالآخرين، كما أنها تعرضت لعدة صدمات بأشخاص مقربين منها جعلتها تخشى اقتراب البعض منها، وتفضل الابتعاد دائمًا، أخبرها كل شيء عن عائلته، عن وفاة أبيه وهو في العاشرة، وعن ارتباطه الشديد بأمه ومسؤوليته الكاملة عنها، لدرجة تجعله يشعر أحيانًا بأنها ابنته وليست والدته، وأخبرته هي أدق تفاصيل حياتها، من أكبر أحلامها إلى أبسطها، ومن أجمل ذكرياتها إلى أسوأها، أخبرته وأخبرها كل شيء، حتى صارا كيانًا واحدًا.

أصبحا يتجولان بالشركة برفقة بعضهما البعض دون أن يأبه أي منهما بنظرات الزملاء المليئة بالغيرة لأنه من فاز بها، أو بنظرات الزميلات المستنكرة والمستفهمة، علامَ أُعجب بها، بات كل منهما شديد الثقة بحبه وباختياره للآخر، والذي عزما على أن يستمر حتى آخر العمر، كان كل ذلك قبل أن يواجه حبهما الاختبار الأصعب، ذلك الاختبار الذي أطاح بكل شيء.

ما زال يذكر ذلك اليوم الذي انتهت به علاقتهما نهائيًا، النهاية التي ربما كانت الأسوأ على الإطلاق، وكأن دائمًا تأتي الخسارات على قدر جمال البدايات، كلما كان الحب أجمل وأكبر، كانت النهايات أقسى، والخسارات أكثر فداحة.

كان ذلك عندما عادت سارة من إجازتها التي استمرت لعدة أشهر، والتي لم تكن قد أفصحت عن سببها لأي شخص، وحده خالد كان يعلم الأمر برمتّه، ولكن لم تكن الأمور آنذاك تسير بينهما على ما يرام، فقد كانت علاقتهما حينها على فوّهة بركان يوشك على الانفجار.

ما زالت ذاكرته تحتفظ بما قصّته عليه زميلته "مها" عمّا حدث بذلك اليوم المشؤوم، إذ دخلت برفقة زميلة أخرى إلى الحمام للثرثرة وتدخين سيجارتيهما كالعادة أثناء فترة الراحة القصيرة، ودار بينهما هذا الحديث:

- شوفتي سنو وايت رجعت؟
- آه يا بنتي فاتك الصبح، دخلت، قامت قايلة صباح الخير كدة من غير ما تبص لحد، وكمّلت على مكتبها عادي، كإنها كانت هنا امبارح، مش غايبة سبع شهور.
- طيب وخالد؟
- كان واقف زيه زينا، واضح إن الموضوع اللي بينهم خلص.
- مش لازم، ممكن تكون ما رضيتش تيجي تسلم عليه قدامكم.
- لا ماعتقدش، أصل حصل حوار كدة الصبح لو كانوا لسه مع بعض كان حايبان.
- إيه اللي حصل؟
- أول ما دخلت ومحمد شافها، قال إيه ده هي مال منظرها عامل كدة ليه، شعرها شكله غريب أوي، وإيه كل الماكياج ده؟ الظاهر ماكانش واخد باله إن خالد كان واقف.

فإنجي ردت عليه قالتله: دلوقتي بقت وحشة؟ مش دي اللي عقدتونا بيها، وبوشها اللي بتيجي غسلاه وبرضو بتبقى زي القمر!

فمحمد قال: لأ ده كان زمان، دلوقتي بصراحة شكلها بقى شبه البنات ال... وضحكوا كلهم.

- يا خبر، وخالد عمل إيه ساعتها؟
- ولا أي حاجة، عمل نفسه ماسمعش حاجة، مش بقولك يا بنتي مستحيل يكونوا لسة مع بعض ويسكت على جملة زي دي.

ما لبثت مها أن انتهت من جملتها حتى رأت ما لم تكن تتوقعه أبدًا، رأت سارة تخرج من المرحاض وقد بدا على وجهها أنها استمعت إلى الحديث بأكمله، كان ذلك واضحًا على ملامحها المتألمة، ودموعها المتحجرة بعينيها، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة، بل سارت بينهما في اتجاه المرآة وسط ذهولهما، وكأنها لا تراهما، أو ربما هول ما سمعته جعلها حقًا لا ترى أحدًا، فقد كانت بالكاد تستطيع الوقوف، تحاول ألا تستسلم لشعورها بالدوار والغثيان الذي لحق بها.

وقفَت أمام المرآة، بينما زميلتيها لا تقويان على أن يبرحا مكانهما من فرط المفاجأة، وإذا بها تزيل المكياج الذي يكسو وجهها تمامًا، وسط دموعها التي أخذت تتساقط واحدة تلو الأخرى في صمت، وكأنها تأبى حتى وهي تبكي أن تتخلى عن كبرياءها، ليبدو وجهها شاحبًا وقد ذهبت عنه نضرته، وتظهر الهالات السوداء التي تحيط بعينيها الذابلتين، ثم بدأت أصابعها المرتجفة في التسلل إلى شعرها، الذي ما لبثت أن جذبته حتى سقط أرضًا، وإذا بزميلتيها تشهقان من هول الصدمة، فقد كانت

صلعاء تمامًا، وما كان يكسو رأسها ليس إلا شعر مستعار، هكذا عادت من إجازتها التي لم يعرف سرّها أحد، مريضة بسرطان الثدي، ذلك المرض الذي أجهز على عافيتها، فقضى عليها، وأحالها من زهرة متفتحة، إلى أخرى يابسة مصفرة.

خرجَت من الحمام، متجهة إلى خارج الشركة دون أن تنظر إلى أحد، وسط ذهول وتحديق الجميع بها، فقد كانت تشعر آنذاك أنهم أتفه من أن تنظر لهم حتى ولو شزرًا، لم يستوقفها سوى التقاء عينيها بعينيّ خالد، الذي ما لبث أن رآها حتى جمد مكانه، وتوقّفت الكلمات بحلقه، أما هي، فقد كانت تنظر له حينها نظرة لم تنجح السنوات في محوها من ذاكرته، وربما لن تستطيع، كانت نظراتها آنذاك وكأنها سهام تصوبها إلى قلبه، أو نيران تحرقه بها، فقد شهدت تلك اللحظة موت كل الحب الذي كان بعينيها إليه، ولم يبقَ مكانه سوى الاحتقار، وخيبة الأمل التي بدا حينها أنها لن تسامحه عليها ما حيَت.

ما لبثت أن دلفت إلى سيارتها، حتى استسلمت لآلامها، وأجهشت بالبكاء، أخذت تحاول السيطرة على جسدها الذي ظل يرتجف بعنف لدرجة جعلتها غير قادرة على الحراك، ولكنها لم تستطِع، فقد كان آخر حوار دار بينها وبين خالد يتردد بذهنها، ذلك الحوار الذي لم ينجح أن يخفي ما كان بداخله.

- انتِ قررتي ترجعي الشغل فعلًا؟
- آه، إيه المشكلة؟
- المشكلة إن انتِ عيانة، حاتروحي ازاي وانتِ كدة؟

- كدة اللي هو ازاي؟ أنا خلصت جلسات الكيماوي الحمد لله، ودي أكتر حاجة كانت بتتعبني، زهقت يا خالد، مش قادرة على الحبسة دي أكتر من كدة، ويا سيدي لو لقيت نفسي تعبت، عادي مش حاكمل، بس أبقى جربت.
- يا سلام؟ بالبساطة دي؟
- وإيه اللي مايخليهاش بالبساطة دي مش فاهمة؟
- عشان انتِ شكلك باين عليه جدًا إنك تعبانة.
- نظرت له بحِدّة، ولم تجِبه، فأكمل محاولًا تدارك خطأه قائلًا: قصدي يعني، إنك أصرّيتي ماتقوليش لحد إنك تعبانة عشان حسب ما بتقولي، لا حد يشفق عليكِ، ولا يشمت فيكِ، صح ولا غلط؟
- صح.
- ولما هو صح، تقدري تقوليلي لما حد يسألك مالك عاملة كدة ليه، حاتقولي إيه؟
- أجابته في عدم اكتراث: آخر همي.
- آخر همك؟؟ يبقى ماعملتيش حاجة، لا أنا رأيي إنك لو مُصِرّة أوي إنك تروحي يبقى تظبطي شكلك كدة وتحطي ماكياج عشان محدش يلاحظ حاجة.
- يا سلام؟ وهو كدة محدش حايلاحظ حاجة؟ ما انت عارف أنا عمري ما بحط ماكياج.

– يوه، هو أنا كل ما أحلهالك تعقديها، ماعرفش بقى، ده الحل اللي عندي.

واستطاع أن يقنعها بوجهة نظره، لتفعل ما طلب منها بالنهاية، ولكن ما لم تكن تدركه آنذاك، أنه طلب منها ذلك الأمر ليس من أجل حمايتها من تنمّر زملاءها، ولا حتى لأنه يحبها ولا يقوَ على أن يراها هكذا، في هذه الحالة السيئة، ولكن لأنه لم يَعُد يحب أن ينظر إليها كما اعتاد دائمًا، فقد أحب سارة ذات العينين المتوهجتين، والوجه النضر، والشعر الذي يلامس خصرها، وتراجع الحب، يوم اختفى كل ذلك.

أفاقت من أفكارها على صوت طرقات خالد على نافذة سيارتها، طالبًا منها أن تعطيه فرصة ليتحدث معها، ولكن ما كان لها آنذاك سوى أن انطلقت بسيارتها، تاركة إياه خلفها، وقد عاهدت نفسها أن تطوي صفحته إلى الأبد، حاول مرارًا أن يهاتفها، ولكن دون جدوى، لم تكن تجيب أي من اتصالاته، ولم يعرف أي شيء عما حدث لها منذ ذلك اليوم أبدًا.

لم ينتشله من ذكرياته سوى صوت ذلك الرجل الذي صاح به أن ينتبه للطريق، نظر حوله ليجد نفسه قد أوشك على الوصول إلى المستشفى، أخذ يسأل نفسه متعجبًا، كيف وصل إلى هناك؟ فقد كان عقله شاردًا طوال الطريق، اللعنة!! اللعنة على الماضي، وعلى الذكريات، وعلى أغاني منير!!

نظر إلى أمه التي لم تنَم في سلام هكذا منذ فترة طويلة، ثم ربت على كتفها في حنو قائلًا:

– ماما، يلا يا حبيبتي وصلنا.

أمسك بيدها، واصطحبها إلى الداخل، ثم همّ ليخبر الممرضة بوصولهما، وليسألها عن موعد دخول والدته للطبيب، ولكنها أجابته قائلة:

– أنا آسفة، حضرتك حاتضطر تنتظر معانا شوية، قدامكوا مش أقل من ساعتين.

– إيه؟؟ ساعتين؟ حرام عليكِ، احنا جايين من سفر ولسة حانرجع، أنا أمي ماتستحملش إنها تستنى كل ده.

– أنا آسفة يا فندم، بس في دور احنا ملتزمين بيه.

صمتت برهة، ثم أكملت قائلة: ممكن على ما دور والدة حضرتك ييجي، تدخلوا القاعة دي.

أشارت إلى الأمام قائلة: في دلوقتي ندوة ممكن تعجبها أوي.

– ندوة؟ ندوة عن إيه؟ وإيه الزحمة دي كلها؟

– ندوة واحدة من أصدقاء المرضى عاملاها، بتحكي عن تجربتها مع المرض، من أول ما اكتشفته، لحد ما خفِّت منه.

– التفتت إليها والدة خالد بسرعة، وسألتها قائلة: خفِّت؟ يعني هو فعلًا في ناس بتخف من المرض ده يا بنتي؟

– طبعًا يا فندم، ادخلي حضرتك ومش حاتندمي، دي ست جميلة وكل الناس هنا بتحبها.

أمسك خالد بيد والدته، ودخلا إلى القاعة، ولكنه ما لبث أن دخل حتى مادت الأرض به، وشعر للحظة أنه يهذي، لدرجة جعلته يشك إن كان يستطيع حقًا أن يفرق بين الحقيقة والخيال، أم لا، ترك يد والدته، وأخذ يمشي إلى الأمام كالمسحور، ينظر إلى المتحدثة بعينيه المفتوحتين حتى أقصى مداهما، يريد أن يقترب منها أكثر، يريد أن يتأكد أنها ليست هلاوس أو أحلام يقظة، يريد أن يتأكد أنها هي سارة، وأنها ما زالت على قيد الحياة، كانت هي، كان صوتها، وكانت عينيها التي لا يخطئها أبدًا. اقترب منها بالقدر الكافي الذي يجعله يقف، وقد تأكد مما تراه عيناه، وبالقدر الذي جعلها تراه أيضًا، ما لبثت أن رأته حتى تلعثمت قليلًا، ثم أكملت حديثها بثقة قائلة:

"زمان كنت فاكرة إن أوحش حاجة حصلتلي هي المرض، واحدة في العشرينات بتواجه الموت، مش عارفة مصيرها، كل يوم بتفقد حاجة من شكلها ومن روحها، حتى أقرب الناس ليها ماستحملوش، ماستحملوش مرضها وتحولها لشخص مش قادر بِدّي، غصب عنها كانت محتاجة تاخد وبس، محتاجة حب، وصبر، وحد يقويها ويقولها إن كل ده حايعدي، وقتها زعلت وغضبت.

نظرت بعينيّ خالد مباشرة، ثم أكملت قائلة: بس بعد كدة فهمت إن اللي مش بيستحملنا في محنتنا ومرضنا مينفعش نزعل عليه، وإن خروجه من حياتنا مكسب لينا، مش خسارة أبدًا، لإنه بيبقى من جواه فاضي، معندوش حاجة يديها لحد، بس دلوقتي، أنا ممتنة لمرضي اللي لولاه ماكنتش حافهم ولا حاعيش الدنيا صح وكما يجب، ماكنتش

قابلت جوزي وأبو بنتي، لإنه كان الدكتور اللي بيعالجني، اتجوزني وأنا مفيش في راسي شعرة واحدة، عيشنا مع بعض أيام صعبة ومُرّة كتير، وأيام حلوة أكتر، أنا دلوقتي مش خايفة حتى لو المرض رجعلي تاني، عشان همّا جنبي، همّا بيتي وأماني، أنا من ٦ سنين كنت باجي هنا وأنا مريضة مش عارفة فاضل في عمري قد إيه، النهاردة أنا سعيدة إني واقفة وسطكم، وبقولكم حاتعدي، طول ما جنبنا ناس ساندينّا وبيقوونا حاتعدي، طول ما عندنا أمل وهدف نعيش عشانه حاتعدي، وصدقوني بكرة تبقوا مكاني هنا واقفين على رجليكم والابتسامة على وشكم وبتحكوا ازاي كل ده عدى، ازاي غلبتوا الخوف والوجع والمرض، بالعزيمة والإيمان وحب الحياة".

انتهت الندوة وسط تصفيق من جميع الحاضرين، والتف حولها الكثيرون لمصافحتها وإهدائها باقات الورود، اقترب منها زوجها ليحيطها بذراعه في حنان، وركضت إليها ابنتها التي ما لبثت أن اقتربت منها حتى رفعتها إليها وضمتها إلى صدرها، وقف خالد يتأملها في خجل من نفسه وحسرة على حاله، فقد أضاع حبها بسبب زوال جمالها، ظنًا منه أن الجمال هو الباقي، ولكنه لم يدرك آنذاك أنها تمتلك ما هو أغلى وأهم، فها هو قد عاد إليها جمالها، بل وربما أصبحت أجمل من ذي قبل، فابتسامتها قد عادت إليها لتملأ الدنيا وهجًا ونورًا، ووجهها دبت فيه الحياة من جديد، بعد أن عاد في نضارة الورود، أما شعرها الذي

كانت فقدته تمامًا، ها هو ينسدل فوق ظهرها ليعود كما كان، ذو نفس الطول، واللون، والحرية.

انتشرت في الآونة الأخيرة موجة هدم للعقارات القديمة ذات الطابع الإيطالي والفرنسي الأصيل، والتي آثر أصحابها التخلص منها بشروخها ودرجات سلالمها المكسورة وإيجاراتها الزهيدة، لتحل محلها أبراج شاهقة بلا ذوق أو روح، ولكن بعضهم يدرك فيما بعد أن الأموال والأبراج وحدها لا تكفي، فثمة أسرار كانت تملأ الشروخ، وثمة ذكريات غالية لطالما اندثرت فوق السلالم المتكسرة، وثمة ضحكات ظل صداها يتردد بين الجدران سنوات وسنوات حتى تصدّعت فوق بعضها، فالبعض يخيَّل لهم أحيانًا أن بإمكانهم التخلّي عن ماضيهم والتنصُّل منه، ولكنهم لا يعلموا أن من يفعل يكون كالشجرة التي اُجتُثَّ جذعها، بينما ظلت جذورها راسخة في باطن الأرض.

بيت جدتي

في تمام الساعة الحادية عشر ليلًا، وبواحد من أكثر شوارع حي المعادي هدوءًا ورقيًا، كان ممدوح يقف أمام باب الفيلا الحديدي شاردًا، يتأمل هذه اللافتة المحفور عليها : "فيلا محمود صادق" .

وقد طمست الأتربة الرمادية التي راكمتها السنوات لونها الذهبي اللامع، أخذ ممدوح يتحسس أحرفًا من اسم أبيه، ويزيل عنها ما استطاع مما علق بها من الأتربة، حتى أصبح الاسم أكثر وضوحًا، واستحالت أصابع ممدوح إلى اللون الرمادي بدلًا منإسم أبيه الذي أخفاه غبار الماضي، عاد يتأمل اللافتة التي استعادت بريقها بعض الشيء وهو يتساءل، تُرى كم عامًا قد مر على فراقه الآن؟ عشرة أعوام أم خمسة عشر؟ لا، بل أقل من ذلك بكثير، ثلاثة أعوام فقط قد مرت، ولكنها مضت عليه دهرًا، وشاب من بعدها فوق عُمرِه عُمرًا، ما زال يفتقده

كثيرًا، وفي بعض الأحيان تستحوذ عليه ذكراه، ليجد نفسه يبكيه وكأنه طفلًا صغيرًا، وليس رجلًا على مشارف الخمسين.

قطع أفكاره صوت هاتفه الذي ما لبث أن سمعه يدق، حتى نفض الغبار عن يديه، وأخرجه من جيبه ليجيب قائلًا:

- أيوة يا نجوى.
- إيه، اتأخرت ليه على ما رديت؟
- ماتأخرتش ولا حاجة، التليفون كان في جيبي.
- طيب وعملت إيه؟
- زفر في ضيق قائلًا: ماعملتش حاجة يا نجوى، أنا لسة مادخلتش البيت أصلًا.
- طيب قبل ما تنام كلمني عشان تقولي عملتوا إيه مع طنط.
- إن شاء الله، يلا أنا داخل بقى، مع السلامة.

أغلق ممدوح هاتفه، وما لبث أن دفع الباب الحديدي حتى أصدر صوت أزيزه المعتاد، هذا الصوت الذي لطالما كان مزعجًا بالنسبة له، ثم بمرور الوقت بدأ يألفه ويعتاد عليه، حتى أصبح بالنسبة له بمثابة صوت الحنين والشعور بالأمان، صوت دخوله إلى مملكته القديمة، ومنزل أبيه الذي مر عليه الآن ما يزيد عن النصف قرن.

دلف إلى حديقة المنزل الواسعة، ثم صعد الدرجات الرخامية التي تنتهي بها الحديقة، وأدار مفتاحه بالباب، ولكنه كان لا يزال شاردًا في ذلك الصوت، صوت الأزيز الذي لتوّه قد انتبه أنه ربما يكون منذ لحظات قد استمع إليه للمرة الأخيرة، ما لبث أن انفتح الباب، حتى

وقعت عيناه على الحقائب الكثيرة المتراصة بالقرب منه، ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام واقع يحاول جاهدًا أن يتجاهله، نعم إنها المرة الأخيرة في كل شيء، والليلة الأخيرة أيضًا.

سار ممدوح بخطى متثاقلة، صاعدًا السلم الخشبي، متجهًا نحو غرفة والدته، محاولًا أن يتّسِم بالثبات والهدوء، فقد كان يدرك مدى صعوبة المهمة التي هو مقدم عليها، تلك المهمة التي تتلخص في إقناع والدته بتقبُّل الأمر الواقع، وهو أنها ستغادر المنزل الذي قضت به أجمل سنوات عمرها، ولن تعود إليه أبدًا.

طرق ممدوح الباب، ثم دلف إلى الغرفة، ليجد والدته تجلس برفقة شقيقتيه "منى" و "مها"، وقد خيم عليهن الصمت المطبق، بعد أن احتد النقاش بينهن، ويبدو أنه لتوّه قد هدأ.

- ممدوح: مساء الخير، مالكوا قاعدين كدة ليه؟

أشاحت الأم بوجهها عنه، ولم تجِب، لتجيبه مها قائلة:

- ماما لسة متضايقة من موضوع بيع البيت يا ممدوح.
- ممدوح: معقولة يا ماما؟ ده الناس جايين بكرة يمضوا العقد، احنا لسة بنتكلم في الموضوع ده؟
- انفجرت الأم قائلة: مش قادرة يا ممدوح، مش قادرة، إيه مستكترين عليا إني أزعل وانتوا بتجبروني أسيب بيت قضيت فيه أكتر من خمسين سنة من عمري، عايزينّي أسيب بيتي وأنا في السن ده؟

- مها: يا ماما الدنيا بتتغير، إيه لازمة البيت الطويل العريض ده دلوقتي وانتِ عايشة فيه لوحدك؟ عارفة البيت ده حايتباع بكام؟ عارفة نصيب كل واحد فينا كام؟
- الأم: مش عايزة حاجة، ولا ملايين الدنيا تكفيني، وانتوا عارفين كويس من الأول إني مش موافقة، وإنكوا ضغطّوا عليا بحجة الزنقة اللي انتوا فيها وإنكوا محتاجين الفلوس، بس دي سنين عمري، آخر حاجة فضلالي من ريحة أبوكوا، ماتطلبوش مني إني أبقى مسامحة وانتوا بتحرموني منها ومنه.
- منى: يا ماما، بابا الله يرحمه، والفلوس دي حاتنفعنا كلنا.
- الأم: الفلوس دي حاتنفعكوا انتوا، إنما أنا ست كبيرة، واللي جاي من عمري مش قد اللي راح، يعني لا حاعمل بيها حاجة في حياتي، ولا حانزل بيها التربة، و"محمود" جايز يكون مات صحيح، بس نفَسه لسة معايا، لسة شايفاه في كل ركن، صوره في كل حتة، حتى هدومه اللي في الدولاب لسة فيها ريحته، ويمكن هو ده اللي مصبّرني ومخليني لسة مكمّلة من بعده يا منى.
- ممدوح: طيب بالعقل كدة، حاتعملي إيه بالبيت ده كله لوحدك؟ البيت فاضي ومحدش مُستفيد بيه يا ماما.
- اتسعت عينا الأم، وارتفع صوتها قائلة: البيت مش فاضي يا ممدوح، أنا لسة ماموتّش، البيت ده حايفضل بيت العيلة، بيتكوا وبيت ولادكوا وولادهم من بعدكم، وبعدين تعالى هنا، دلوقتي بقى رأيكوا واحد ومتفقين على كل حاجة؟ مش انتوا اللي كنتوا

حاتقطّعوا بعض بعد أبوكوا ما مات عشان الميراث لولا وقفتلكم أنا وعمكم "رفعت" الله يرحمه، دلوقتي اتفقتوا وانتوا بتبيعوا البيت مش كدة؟ ولا اكمن كل واحد فيكم وراه اللي بيزن على ودانه من ناحية والمصلحة المرة دي واحدة؟ أنا عارفة كل حاجة، ومع ذلك كل ده ما يهمنيش، مفيش حاجة تهمّني غير إن البيت ده يفضل مفتوح زي ما كان طول عمره، البيت ده كان دايمًا بيت العيلة كلها مش بيتكوا انتوا بس، حتى لو كنت عايشة فيه لوحدي دلوقتي، لكن عمره ما فضي عليا، حبايبي كانوا دايمًا حواليا، ازاي عايزينّي في يوم أعدي من هنا وملاقيهوش؟ ده أنا أروح فيها.

- مها: طيب والحل دلوقتي؟
- الأم: مش خلاص عملتوا اللي في دماغكم وخليتوني أِلم حاجتي عشان أمشي، واتفقتوا مع الناس على كل حاجة كمان؟ عايزين إيه تاني؟ اعملوا اللي انتوا عايزينه، أنا جايز أكون كبرت ومابقيتش أقدر عليكم، بس الأكيد إني مش راضية عن البيعة دي ومش حاسامحكم، ودلوقتي اتفضلوا اطلعوا برّة، أنا عايزة أنام.
- ممدوح: تصبحي على خير يا ماما.

لم تُجِبه أمُهُ، وما كان لها سوى أن أطفأت الضوء الذي بجانبها، ثم أدارت لهم ظهرها وأغمضت عينيها على دموعها، بينما انسحبوا هُم في وجوم، وخرجوا من الغرفة مطأطئين رأسهم، يجرون أذيال الخيبة.

أغلق ممدوح باب الغرفة، ثم نظر إلى شقيقتيه قائلًا:

- حانعمل إيه دلوقتي؟

- مها: حانعمل إيه يعني؟ حاندخل ننام.
- منى: دلوقتي؟ مش حانقعد مع بعض شوية؟
- ممدوح: لأ احنا لازم ندخل ننام فعلًا، الناس جايين بكرة من بدري، كفاية أوي كدة على النهاردة.
- رفعت منى كتفيها، وزمّت شفتيها، ثم قالت في إحباط: طيب زي ما تحبوا، تصبحوا على خير.
- مها: وانتِ من أهله.

دخل كل منهم إلى غرفته، وأغلق بابها، لعله يستطيع أن يسلم جفنيه لقبضة النوم ولو لبضع ساعات، ولكنهم لم يتخيلوا أنهم جميعًا سيفشلوا في إغلاق باب الأفكار الذي انفتح على مصراعيه بعقل كل منهم، فابتلعهم، وما كان لهم من منجٍ آنذاك سوى بعضهم البعض.

كان ممدوح يجلس آنذاك بشرفة غرفته التي أخذ يجول بنظره حول جدرانها بلونها الأخضر الفاتح، وصور فِرَق "البيتلز" و " الأبا" و "البوني إم" الموسيقية المتناثرة فوق سريره، وجيتاره المعلّق على الحائط المواجه للصور، أدار وجهه ليتأمل الحديقة الواسعة التي شهدت أجمل أيامه وأطرف مواقفه، والتي أحالتها السنوات إلى غابة، فقد كان والده يعتني بها عناية فائقة، ولم تجِد من يرعاها من بعده.

أشعل ممدوح سيجارته، وزفر دخانها في ضيق، وهو يتساءل تُرى أين ذهب ذلك الشاب المَرِح الذي كانت عيناه تُشِع بوَهَج الحياة، وعقله مزدحم بالأحلام، وقلبه يفيض بالحب؟ وكيف ومتى تحوّل إلى هذا الرجل الرتيب الممل، كيف حلّت الأعباء محل الأحلام، وجَفَّ

الحب، وانطفأ الوهج؟ أتُراه هو الذي تغير أم نجوى؟ أم أن الأعوام لا تُبقِ شيئًا على حاله، وأحالت كل منهما تدريجيًا إلى شخص آخر غير الذي كان عليه؟

أفاق من شروده على يد أخته الكبرى منى وهي تربت على كتفه في حنو، وتسأله قائلة:

- إيه اللي مصحيك لحد دلوقتي؟
- اعتدل ممدوح في جلسته والتفت إليها قائلًا: نفس اللي مصحيكِ.
- منى: متضايق؟
- ممدوح: مش عارف، جوايا مشاعر كتير متلخبطة، نفسي نبيع البيت ونخلص، وفي نفس الوقت متضايق إن ماما زعلانة كدة، مقتنع بكل كلمة هي قالتها، بس برضه بالمنطق كدة مفيش حد يبقي عنده بيت زي ده يساوي ملايين ويسيبه كدة من غير ما يستفيد بيه.
- منى: ويا ترى بقى عايز تخلص من إيه ببيع البيت يا ممدوح؟
- ممدوح: من الزَن يا منى، أنا عليا التزامات كتير ومضغوط، خلاص مابقيتش قادر.

قطع حديثهما صوت هاتف ممدوح الذي ما لبث أن نظر إليه حتى أشار لمنى على شاشة هاتفه المكتوب عليها اسم زوجته قائلًا:

- أهو شوفتي؟ الزَن شخصيًا.

خرج من الشرفة وجلس فوق سريره ليجيب زوجته بصوت خفيض محاولًا ألا يصل صوته إلى مسامع منى قائلًا:

- أيوة يا نجوى.
- ما كلمتنيش ليه؟
- أبدًا كنّا قاعدين مع ماما، ولسة خارجين من عندها من شوية.
- ولما انت خرجت من شوية، ما كلمتنيش ليه أول ما خرجت؟
- في إيه يا نجوى هو تحقيق؟
- لأ يا ممدوح مش تحقيق، المهم عملتوا إيه؟
- ولا حاجة، زي ما هي.
- يعني إيه زي ما هي؟ انتوا مش اتفقتوا مع الناس ولا هو كلام عيال؟
- يا ستي الناس كدة كدة جايين، بس هي لسة مش متقبلّة الموضوع وبيني وبينك أنا عارف إنه حقها.
- حقها؟؟ يعني هو يرضي ربنا إنها تبقى قاعدة في بيت زي ده لوحدها وحارماكوا من حقكوا؟
- لأ حقها تبقى متضايقة إنها حاتطلع من بيتها وهي في السن ده.
- ليه هو انتوا كنتوا حاتسيبوها في الشارع؟ ما هي حاتقعد مع منى في بيتها بدل ما هي قاعدة لوحدها من بعد جوزها ما مات، وولادها واحدة مسافرة، والولد والبنت التانيين بيشتغلوا وطول اليوم برّة، يعني حايسلّوا بعض.
- انتِ فعلًا شايفة الموضوع بالبساطة دي؟
- آه بصراحة أنا شايفاه بسيط، وانتوا اللي مكبّرين الموضوع.

- ارتفع صوت ممدوح في غضب قائلًا: طبًعا لازم تكوني شايفاه بسيط، واحدة رامية أمها في دار مسنين، المفروض أتوقع منها إيه يعني؟
- بطّل بقى كل أما ما يعجبكش كلامي تقوم قايلّي الكلمتين دول، وعمومًا أنا مبقتش بعرف أتكلم معاك، مع السلامة.
- مع السلامة.

أغلق ممدوح هاتفه ليجد مها تقف أمامه في ذهول، وقد بدا عليها الصدمة إثر ما سمعت من كلمات أخيها، ثم سألته في تردد قائلة:

- هي نجوى فعلًا ودّت مامتها دار مسنين؟
- أجابها في اقتضاب: أيوة.
- أنا آسفة ماقصدتش أسمع، أنا كنت رايحة لمنى أوضتها ولما مالقتهاش، قولت تبقى أكيد هنا.
- ولا يهمِك.
- دخلت منى من الشرفة ثم جلست إلى جانب أخيها وسألته قائلة: وحصل إمتى الكلام ده؟
- ممدوح: من سنة تقريبًا.
- منى: ياه يا ممدوح سنة؟ وانت ازاي مامنعتهاش؟ طنط "زينب" ما تستاهلش منها كدة أبدًا.
- حاولت كتير بس هي كانت واخدة قرارها، وكانت دايمًا حجّتها إن أختها مسافرة وإنها ما تقدرش تشيل مسؤوليتها لوحدها، خصوصًا بعد ما كبرت في السن كدة وبقت محتاجة حد يرعاها

باستمرار، ما انتِ عارفة نجوى، صوتها من دماغها ومحدش يقدر يغيّرلها رأي أو يرجّعها في قرار.

- مها: اللي يسمعك وانت بتكلمها من شوية، ما يشوفاكش زمان وانت بتتمنى لها الرضا ترضى.
- عشان هي زمان مكانتش زي دلوقتي يا مها، أنا لسة فاكر أول يوم شوفتها، كان يوم حفلة شم النسيم اللي الفرقة كانت عملاها في المعمورة، كانت رقيقة وزي القمر، أول ما عيني جت في عنيها وأنا بعزف، وقبل ما أعرف عنها أي حاجة قولت هي دي اللي أنا حاتجوزها، ماكنتش أعرف بقى إنها حاتبقى كدة.
- مها : كدة ازاي يعني؟

لم يُجِبها ممدوح، فبادرته منى بسؤال آخر قائلة:

- طيب بلاش ازاي، انت عايز تبيع البيت ليه يا ممدوح؟ الخناقة دي ليها علاقة ببيع البيت مش كدة؟

هز "ممدوح" رأسه بالإيجاب، فأكملت "منى" محاولة أن تعفيه من حرجه الذي شعرت به من خلال حديثه قائلة:

- كلنا عارفين إن عندنا التزامات ومحتاجين الفلوس، بس محدش فينا قال للتاني هو عايز يبيع ليه، يعني أنا مثلًا محتاجة الفلوس عشان أجوّز "أروى" وأجيب شقة كويسة لـ "كريم".
- مها: طيب وانتِ معكيش سيولة تغطي جواز "أروى" وشقة "كريم"؟

- مفيش غير الأرض بتاعة ٦ أكتوبر ودي مش عايزة آجي جنبها، ووديعة محترمة بصرف من فوايدها كل أول شهر، ماتنسيش برضه إني ماكنتش باشتغل، وبعدين "كريم" مرتبط بواحدة كانت زميلته في الجامعة وعايز يتقدّملها، و "أروى" خطيبها ابن سفير، يعني لازم أشرّفهم قدام نسايبهم، مش عايزة أحسسهم إن في حاجة اتغيرت بعد أبوهم ما مات.
- مها: بس اللي أعرفه إن "إبراهيم" كان مرتاح ماديًا يعني.
- منى: مظبوط، بس كمان كان اللي في جيبه مش ليه، يعني كان مدخل الثلاثة الجامعة الأمريكية، ومركّبهم عربيات آخر موديل، ده غير السفر كل سنة لأوروبا، الله يرحمه كان كل همّه ازاي يبسطنا حتى لو حاييجي على نفسه.
- ممدوح: حبيتيه بجد يا منى؟ يعني بصراحة بعد الحكاية القديمة، وموافقة بابا عليه من غير ما يرجعلك، تخيلت إن عمرك ما حاتكوني سعيدة معاه.
- منى: زمان كنت فاكرة إن عمري ما حاعرف أحب حد بعد "أحمد"، حدوتة ابن الجيران إياها بقى، المعادي كلها كانت عارفة إننا بنحب بعض وحانتجوز، وأنا كنت باحلم إمتى ييجي اليوم ده، لحد ما فوقت على رفض بابا ليه.
- مها: هو بابا رفضه ليه صحيح؟ أنا كنت صغيرة أيامها.
- كان شايف إنه مايفتحش بيت، خصوصًا إن مامته و باباه كانوا منفصلين، ومامته كانت طول الوقت مع صحابها وماتعرفش عنه

حاجة، وهو كمان حياته كلها كانت الصحاب والسهر والحفلات، ماكانش متحمل أي مسؤولية، واللي زاد الطين بلّة إنه بعد رفض بابا ليه بشهرين تقريبًا وفي وسط ما أنا كنت لسة بدافع عنه قصاد بابا عشان يديله فرصة تانية عرفت إنه خطب " سلوى" صاحبتي، عشان يغيظني طبعًا، لما اتقدملي "إبراهيم" بعدها، بابا وافق عليه عشان كان شايف نفسه فيه، طموح ومكافح، راجل بجد، كان حاسس إن هو ده اللي حايتطمن عليّا معاه، والحقيقة كان معاه حق.

- ممدوح: أيوة برضو ما رديتيش على سؤالي، يعني حبيتيه فعلًا ولا حاتقوليلي بقى عشرة عمري وأبو ولادي والجو ده؟
- منى: طبعًا حبيته، حبيته جدًا كمان، "إبراهيم" كان من نوعية الرجالة اللي ماينفعش ماتتحبش، زوج حنين وأب عظيم، كنت شايفة فيه نسخة تانية من بابا، أصل أعظم حب في حياة البنت أبوها، ومفيش بنت في الدنيا تتمنى حاجة قد إنها يوم ما تتجوز، تكون مع واحد يكون فيه من صفات أبوها، وبعدين انت عمال تسألني وانت أصلًا ماجاوبتنيش على سؤالي، عايز تبيع البيت ليه؟
- ممدوح: الولاد عايزين يكملوا دراسة في كندا، وطبعًا ده محتاج مصاريف وفلوس كتير جدًا، ده غير إن ظروف الشغل اليومين دول مش قد كدة.
- مها: وهمّا حايعيشوا هناك لوحدهم؟

- أجابها ممدوح مترددًا دون أن ينظر إليها: لأ، همّا عايزينّا كلنا نهاجر كندا.
- قالت منى في ذعر: إيه؟ تهاجر؟ وتبدأ من الأول وانت في السن ده يا ممدوح؟ ده انت راجلنا من بعد بابا وإبراهيم الله يرحمهم، يعني رغم كل اللي حصل بينّا من بعد وفاة بابا بس احنا برضو ملناش غيرك.
- ممدوح: أعمل إيه بس، مقدرش أسيبهم لوحدهم، خصوصًا إنهم متمسكين جدًا بالفكرة، واللي مشبطهم فيها أكتر إن كل أصحابهم بيعملوا الحكاية دي دلوقتي.
- مها: آه قولتلي الموضوع فيه صحابهم بقى، طيب بصراحة كدة، الفكرة دي فكرتهم همّا فعلًا ولا فكرة "نجوى"؟
- لم يُجِبها ممدوح، فأكملت قائلة: تبقى فكرة نجوى.
- قال ممدوح بنفاذ صبر: نجوى اتغيرت أوي يا مها، مبقاش في حاجة تهمها قد مين صيّف فين، ومين جاب فيلا بكام، ومين سَفّر ولاده يدرسوا فين، بقى كل هدفها إنها تعمل زي اللي حواليها، بغض النظر أنا ظروفي إيه، مش بقولك؟ نجوى اتغيّرِت ١٨٠ درجة.
- أجابته مها شاردة: ومين فينا متغيرش؟ كلنا اتغيرنا يا ممدوح.
- منى: مالك انتِ كمان؟ إيه اللي عندك ومش قايلاه؟ وإيه اللي مخليكِ محتاجة الفلوس أوي كدة؟

- مها: "علاء" ظروفه المادية مش قد كدة، ومحتاج الفلوس عشان يبدأ مشروعه الجديد.
- صاح كلٌ من منى وممدوح في آن واحد: تاني؟؟
- ثم أكمل ممدوح قائلًا: يا بنتي انتِ مفيش فايدة فيكِ؟ انتِ ضيعتي نص ميراثك على مشاريعه الوهمية دي.
- مها: أعمل إيه بس مش جوزي؟ وبعدين احنا داخلين على فترة دراسة، وانت عارف المدارس الإنترناشيونال ومصاريفها.
- ممدوح: ودي مسؤوليتك انتِ كمان يا مها؟ ما يتصرّف أو حتى لو فارق معاه المشروع ده أوي كدة يشارك حد من صحابه؟
- مها: ما هو لو أنا ماديتهوش الفلوس حايشارك حد فعلًا، بس مش حد من صحابه.
- منى: أومال حايشارك مين؟
- نظرت لها مها، ولم تُجِبها.
- سألتها منى متحرِّجة: قصدك إن في واحدة تانية؟
- ابتسمت مها في حسرة وهي تجذب علبة سجائر ممدوح لتخرج منها سيجارة وتدسّها بفهما وتشعلها قائلة: مش بقولك كلنا اتغيرنا؟
- اتسعت عينا ممدوح وهو ينظر إلى السيجارة العالقة بين شفتيها لينهرها قائلًا: وده من إمتى إن شاء الله؟
- ابتسمت في مكر جعلها تبدو كمراهقة مشاكسة في عينيّ ممدوح الذي سرعان ما لانت قسمات وجهه لابتسامتها، وأجابت قائلة:

من زمان، وأنا في ثانوية عامة لما كنت بروح أذاكر عند "نيفين" صاحبتي كنا بنشرب سيجارتين كدة في بلكونة أوضتها من غير ما حد ياخد باله، لحد ما في يوم مامتها قفشتنا، تاني يوم رجعت من المدرسة لقيتها قاعدة مع ماما، قولت بس أنا روحت في داهية، وأول ما دخلت لقيتها بتقول لماما مها دي بنتي وأنا ببقى متطمنة على نيفين طول ما هي معاها، لقيت ماما ساعتها بتبصلي وهي مبسوطة، يومها اتكسفت من نفسي وحسيت إني صغيرة أوي، وإني مش عايزة أعمل حاجة تهز صورتي في عينها، ومن يومها ماحطتهاش في بُقي غير دلوقتي، معلش بقى فوِّتها المرة دي يا "دوحة".

- منى: طيب اطلعي بقى اشربيها في البلكونة، أنا نفَسي بيتعب من ريحتها.

قفزت "مها" من مكانها بعد أن طبعت قبلة سريعة على خد أخيها، ثم خرجت إلى الشرفة لتكمل سيجارتها، أخذت تتأمل الحديقة وتدقق النظر في كل أرجاءها وكأنها تودّعها، ثم بدا عليها وكأنها تذكّرت شيئًا، فالتفتت لأخيها وهي تضحك قائلة:

- ممدوح، فاكر لما يوم الوقفة كان كل أولاد عمامنا بايتين معانا وبابا سكّ الباب عشان محدش ينزل يلعب في الجنينة بعد ما يناموا، وانت أقنعتنا إننا نتسحب وننزل وَراك من الشباك، قومت وقعت ورجلك اتكسرت؟

- ممدوح: إلا فاكر، بابا أيامها أجِل العقاب لبعد ما أفُك الجبس، ولما فكّيته حبسني أسبوعين في البيت وماكانش بيكلّمني.
- أكملت مها في حماس قائلة: طيب فاكر لما كنا بنلعب استغماية، و" حسن" ابن عمو "فكري" جري يستخبى في أوضة الكلب ومكانش يعرف إنه جوة واتحبس فيها؟
- انفجرت منى ضاحكة، ثم أكملت قائلة: أيوة ممدوح يومها قالّه إن "عطية" السواق أخده يمشيه، كان عارف إنه بيخاف من الكلاب، طيب فاكرة لما كنا في رمضان و "ممدوح" و "سامي" دخلوا يشربوا سيجارة بعد الفطار، وعمو "رفعت" دخل يصلّي وشافهم؟
- قهقهت مها، وأجابت قائلة: "سامي" يومها من خضته، بدل ما يرمي السيجارة، ساب السيجارة في بُقّه ورمى الكبريت، قام مولّع في الستارة.

ما كان لممدوح سوى أن قذف مها التي عادت لتجلس أمامه بوسادته، محاولًا أن يكتم ضحكته، ولكنه فشل، فقال مُدافعًا: يا سلام، يعني ممدوح هو اللي كان بيعمل المصايب كلها؟

أكمل موجها حديثه إلى مها قائلًا: أُمال مين اللي يوم عيد جواز ماما وبابا قالت أنا عايزة أساعدكم في التورتة، واتلخبطت وحطت ملح انجليزي بدل السكر، وخلّت الضيوف كلهم يطلعوا يجروا على الحمّام؟

ثم التفت إلى منى مكملًا حديثه قائلًا: ومين اللي يوم سبوع مها كانت سرحانة وولعت بالشمعة في شعر طنط "دُرّية"؟

- أخفت منى وجهها بكفّيها وهي تدمع من كثرة الضحك، ثم أكملت قائلة: لأ وانت كمّلت عليها، حبيت تنقذها قومت نازل على دماغها بجردل الميّة، الست فضلت سنين بعدها مابتحضرلناش مناسبات.

انفجر ثلاثتهم ضاحكين، وأخذتهم الحكايا واحدة تلو الأخرى، ومع كل حكاية تعلو أصوات ضحكاتهم أكثر وأكثر لتملأ أرجاء المنزل وتحل محل السكون الذي خيّم عليه منذ سنوات، وتعود روح كل منهم إلى فطرتها، فيعودوا هم كما كانوا دائمًا، ويذوب الجليد الذي كوّنته الأيام والسنوات بينهم تدريجيًا حتى تلاشى، وكأن هذا المنزل به طاقة سحرية تجعل كل من ضل طريقه أو جرفه التيار بعيدًاعن مساره الأصلي، كلما مر به، عاد إلى قواعده سالمًا.

مرت الساعات، وأخذهم الحديث حتى أشرق الصباح معلنًا عن فجر يوم جديد، وإذا بممدوح ينظر إلى الشرفة التي بدأت تتسلل منها أشعة الشمس على استحياء لتسقط فوق سريره، ليتساءل في دهشة:

- إيه ده هي الساعة بقت كام؟
- مها: خمسة ونص.
- ممدوح: ياه، فكرتوني بأيام زمان لما كنا بنبقى في إجازة الصيف ونفضل سهرانين سوا، مانامش إلا لما النور يطلع، كانت أحلى أيام.

- منى: عندك حق يا ممدوح، انتوا عارفين إحنا مقعدناش قعدة زي دي مع بعض من إمتى؟ من أيام بابا ما مات تقريبًا.
- ممدوح: مفيش حاجة فضلت على حالها من بعد بابا، لا لمة العيلة، ولا البيت، ولا حتى احنا، الله يسامح اللي قسّونا على بعض بقى، بس عارفين إيه أكتر حاجة كانت واجعاني طول الفترة دي بجد؟ إنكم كنتوا واحشنّي أوي، يمكن آه كنا بنتقابل أو نتكلم على فترات، بس بيني وبين نفسي كنت بشوف في عيونّا إن في حاجة اتغيرت جوانا، حاجة غالية أوي مش عارف إذا كنا حانعرف نرجعها ولا لأ، كنت باقول لنفسي مش دي "إمبراطورية ميم" اللي بابا عملها، وكبَّرها جوانا، وكان بيوحشني في أوقات كتير قعدتنا سوا ولمتنا وهزارنا، تصدقوا، أنا مابحسش إني نفسي غير وأنا في البيت ده، وفي وسطكم.

ابتسم ممدوح محاولًا أن يغالب دمعة تسللت من عينه، وهو يضم شقيقتيه إلى صدره في حنان قائلًا: انتوا ردّيتولي روحي.

أمسكت منى بيده، ثم نظرت إليه قائلة: ربنا يخليك لينا يا ممدوح.

همّت مها أن تقول شيئًا، ولكن قاطعها صوت هاتف منى، الذي كان يشير إلى رسالة واردة من "ياسمين" ابنة منى الكبرى، والمقيمة بالولايات المتحدة الأمريكية برفقة زوجها وابنتها، وما لبثت منى أن نظرت إلى الرسالة حتى بهت لونها، ودمعت عيناها، لاحظت مها تغير ملامح شقيقتها، فسألتها قائلة:

- مها: مالك يا منى؟ في حاجة؟

- منى: دي ياسمين.
- مها: مالها ياسمين؟
- منى: بصوا كدة بعتالي إيه؟

اقترب منها كلٌ من ممدوح ومها، ليقرأوا الرسالة التي كانت تنص على هذه الكلمات "اتفرجي على الفيديو كليب بتاع الأغنية دي يا ماما، فكرتني ببيت جدو وتيتة أوي، البيت وحشني وكل حتة فيه وحشتني، اللمة والدفا اللي في البيت ده مش موجوين في أي حتة في الدنيا، سلميلي على تيتة لحد ما أشوفها".

نظر كل منهم إلى الآخر في وجوم، ثم سألها ممدوح قائلًا:

- ممدوح: هي لسة ماتعرفش؟

هزت منى رأسها نافية، فأكملت مها قائلة:

- طيب فرّجينا على الأغنية دي خلينا نشوف فيها إيه.

بدأ ثلاثتهم في مشاهدة الأغنية التي كان يتغنّى بها محمود العسيلي قائلًا:

"فتحت عينيا لقيت ناس ولمة وبيت
ويوم الجمعة مليان بعيلة بتملا المكان
حب كبير فرحة وخير وإحساس بالأمان
بيت جدتي الكبير موجود هنا بقاله زمان
كبار وصغيرين حابينه تاخدنا الدنيا ومش ناسيينه
واللي سابونا مش سايبنه طيفهم بينّا مالي الأركان
من بدري الصبح وأنا صغير ولادي أهم والله ما اتغير
لعب وعيلة كإنه عيد راحة ونور عمال بيزيد"

كانت الأغنية تصور منزل عتيق يشبه منزلهم كثيرًا، ومشاهد من ذكريات عائلة بدت وكأنها عائلتهم، ذات الملامح، ذات المشاهد، ذات الدفء وذات البهجة التي اعتاد أن يشعر بهما كل من دلف إلى هذا المنزل وخلّف وراءه الكثير من الذكريات، وكأن هذا المنزل هو القلعة التي يحتمي بها كل فرد من عائلة "صادق"، ليكون بمأمن من كل ما هو خارجها.

لم يذكروا كم مرة شاهدوا الأغنية، ظلوا يستمعون إليها مرارًا وتَكرارًا، وفي كل مرة يفشل كل منهم في حبس دموعه التي امتلأت بها مقلتيه، حاول ممدوح أن يكون أكثر ثباتًا، ليخرج صوته المتهدج قائلًا:

ياسمين معاها حق، اللي موجود في البيت ده مش موجود في حتة، مفيش حد في العيلة ملوش ذكريات في البيت ده، كل ركن فيه ليه قصة، وكل يوم قضيناه فيه كان مليان بحكايات يتعمل منها مجلدات، طيب أقولكوا حاجة وماتضحكوش عليا؟ لما فكّرنا في بيع البيت أول حاجة جت على بالي ساعتها إني أكلم بقية العيلة وولاد عمامنا أستأذنهم، وبعدين جمّعت إن المفروض البيت ده بيتنا احنا، لينا حق التصرف فيه من غير ما نرجع لحد، بس الحقيقة بقى إن طول عمره كان بيتهم زي ما كان بيتنا، بيت العيلة كلها، ما هو أصل البيوت مش بس بسكّانها ولا بعفشها، البيوت بالحب والدفا اللي فيها والأيام الحلوة اللي كل ركن كان شاهد عليها.

- مها: معاك حق يا ممدوح، تعرف، أنا من كُتر ما طول عمري كنت بشوف بيتنا زحمة، لحد دلوقتي لما باجي باحس إني شايفة كل

اللي كانوا فيه حواليا، شايفة بابا وهو قاعد على الكرسي بتاعه والجرنال في إيده، شايفة تيتة لما كانت تدخل أوضتي تنام يوم الجمعة بعد الغذاء، شايفانا واحنا صغيرين وبنلعب في الجنينة، وشايفة ولادنا من بعدنا وهما بيلعبوا زيّنا.

- ممدوح: طيب افرضوا إن البيت ده ماكانش موجود، تفتكروا كنا حانعمل إيه في الالتزامات اللي ورانا؟
- نظر كلٌ من مها ومنى إلى بعضهما البعض، ثم ابتسمت منى من خلف دموعها قائلة:
- بتفكر في إيه؟
- ابتسم لها ممدوح مطمئنًا إياها قائلًا: في نفس اللي بتفكري فيه.
- مها: بصراحة أنا كمان مش قادرة أبيع.
- منى: طيب والعمل؟
- مها: مش عارفة، ممكن نحاول ناخد قرض من البنك عشان المشروع.
- منى: وأنا شكلي حاضطر أبيع الأرض وأمري لله، بس يا رب تجيب مبلغ كويس تغطي الالتزامات اللي ورايا.
- مها: وانت يا ممدوح؟
- ممدوح: مش حاسافر.
- مها: ودراسة الولاد؟
- ممدوح: الجامعات الكويسة هنا كتير.
- مها: طيب وحاتعمل إيه مع نجوى؟

- ممدوح: تخبط راسها في الحيط.
- انفرجت أسارير منى، واتسعت ابتسامتها قائلة: يعني خلاص مش حانبيع؟
- ممدوح: لأ يا ستي مش حانبيع، يلا ندخل بقى نفرّح ماما.
- مها: ندخل فين؟ ماما زمانها في سابع نومة.
- أجابها ممدوح وهو يخرج من غرفته، متجها إلى غرفة والدته ومن خلفه شقيقتيه قائلًا: سابع نومة إيه بس يا شيخة، دي تلاقيها مش جايلها نوم زيّنا.

دخل ممدوح الغرفة، ثم جلس إلى جانب والدته وربت على كتفها قائلًا:

- ماما احنا آسفين، حقك علينا، احنا راجعنا نفسنا وانتِ عندك حق في كل كلمة قولتيها، احنا خلاص مش حانبيع البيت.

ظل في انتظار رد فعلها إثر كلماته، ولكنها ظلت مولّية ظهرها له دون أن تلتفت إليه، أكمل ممدوح كلامه قائلًا: ماما انتِ لسة زعلانة مننا؟ خلاص بقى ما تزعليش بقولك قومي مش حانبيع البيت.

ولكنها ظلت على حالها، لم تُجِبه، ولم تنهض لتضمه إليها، بل ظلت ساكنة هكذا بلا حراك، جذبها ممدوح من كتفها لتلتفت إليه، ولكنها كانت مغمضة العينين، ساكنة الأنفاس، وكأنها لم تحتمل فكرة الفراق، فراق المنزل، وفراق الأحباب، فغادرتها روحها قبل أن تغادره.

ارتفع صوت العويل والصياح، بينما كانت دموع ممدوح تنهمر في عدم تصديق، بينما هو ما زال يحدّثها قائلًا: يا ماما قومي بقى والنبي، انتِ

دايمًا كنتِ بتسامحيني أول ما بتأسفلك، اشمعني دلوقتي حاتمشي من غير ما تسمعي أسفي؟ يا ماما ماتبقيش قاسية كدة، ماما...

دس رأسه بين ذراعيها وإلى جانبه شقيقتيه تبكيان وتجذبانه بعيدًا عنها، بينما هو كان لا يزال يناديها لعلّها تجيبه، ولو للمرة الأخيرة.

أفاق ممدوح من شروده على صوت شقيقته منى تصيح قائلة:

– يا ممدوح، يلا يا حبيبي المدفع حايضرب.

اعتدل ممدوح في جلسته، ثم أغلق التلفاز الذي كان يذيع قبل قليل أغنية "بيت جدتي" لمحمود العسيلي، تلك الأغنية التي بمجرد أن سمعها فتحت جرح لم يندمل بعد، وأعادته بالذاكرة إلى عام مضى، وإلى يوم غيّر مجرى حياته إلى الأبد، يوم فقد والدته، واستعاد ماضيه ليشيّد على أساسه حاضره ومستقبله.

خرج ممدوح من غرفة والدته التي أصبح يتردد عليها كثيرًا كلما اشتاق إليها، ليجد المنزل مزدحمًا بالصغار والكبار، والجميع مُلتَفًا حول مائدة الطعام في انتظار مدفع الإفطار، تلك المائدة التي لطالما ضمّت الأحباب وكانت دائمًا عامرة بالخيرات، هَم ممدوح ليجلس حيث اعتاد دائمًا، ولكن بدا عليه وكأنه تذكر شيئًا، وما كان له سوى أن ترك مكانه واتجه نحو مقعد أبيه ليجلس حيث يجدر به الآن أن يكون، وما لبث أن جلس حتى وجه كلماته للجميع قائلًا:

– كل سنة وكلكم طيبين، النهاردة أول مرة نتجمع من بعد ماما الله يرحمها، جايز تكون هي وبابا مش معانا النهاردة، بس الأكيد إننا متجمعين دلوقتي في بيتهم بسببهم وعلى حِسّهم، خلّونا نقرالهم

الفاتحة وندعي ربنا إنه يديم علينا لمتنا وما يقطعش لينا عادة، وزي ما همّا عودونا وربّونا على إن كلنا إخوات، مش بس ولاد عم، حانربي ولادنا وولادهم على كل اللي احنا اتربينا عليه".

انتهى الجميع من قراءة الفاتحة، وعاد المرح يدب في أرجاء فيلا محمود صادق من جديد، بعد أن سكنتها الوَحشة، وعادت تضج بالأهل والأصحاب بعد أن باتت خاوية على أهلها، وعادت "إمبراطورية ميم" التي أسسها والدهم محمود صادق إلى قواعدها سالمة، بعد أن آلت إلى السقوط، فثمة مكاسب لا تتحقق إلا بالخسارات الفادحة، وما أفدح ما خسروا!

إلى أولئك الذين قرّبهم الألم، وجمعهم طريق الوحدة المُقفِر، ليحيدوا عنه ويسلكوا سويًا طريقًا جديدًا يفترشه الوَنَس، ويضلله دفء القلوب.

لما انتَ ناوي

في أحد صباحات يوم الجمعة، وبنهاية شهر سبتمبر، حيث بدأت تلك النسمة الصباحية المحببة تَهُب لتعلن عن نهاية فصل الصيف بحرارته وطقسه الجاف، وبداية فصل الخريف الذي أتت نسماته الرقيقة لتداعب فروع نبات مسك الليل الموجود بشرفة هاشم (باشا) منصور اللواء المتقاعد الذي كان يقف آنذاك بمطبخه يُعِد وجبة الإفطار ومعها فنجان قهوته الصباحية التي يستمتع برائحة تحويجتها أكثر من استمتاعه بطعمها، بينما هو يدندن بصوت خفيض تلك الأغنية الصادرة من جهاز الجرامافون العتيق الخاص به، والذي كان لأبيه في الأساس، ثم اقتناه هو من بعده، لتصبح عادته اليومية هي الاستماع إلى اسطوانته المفضلة، والتي تكاد نغماتها تصل كل صباح، وتحديدًا في العاشرة صباحًا إلى مسامع جيرانه بحي الإبراهيمية، حتى ألَفوها وأصبحت بالنسبة لهم بمثابة إشارة لبدء يوم جديد.

أخذ اللواء هاشم يُعِد مائدة الإفطار التي ازدحمت بمختلف أنواع الجبن، البيض المسلوق، والفول الإسكندراني الذي أخذ يقطّع فوقه شرائح البصل والطماطم الصغيرة بعناية فائقة، ويضع أرغفة الخبز الساخنة التي أحضرها لتوّه من الفرن المجاور له، وهو في طريق عودته من نزهته على كورنيش الإسكندرية، فالطقس أكثر من رائع، ولو كانت زوجته معه، لما فوّتت الفرصة لنزهة صباحية كهذه، كم كان يتمنى أن ترافقه فيتكئ كل منهما على الآخر، وتشاركه استمتاعه بالهواء العليل ورائحة يود البحر وهما متشابكان الأيدي، ولكن عزاءه الوحيد هو شعوره أنها بجانبه دائمًا، ترافقه أينما كان، ولربما كان سبب إقباله على نزهة استثنائية كهذه هو رغبته في أن ينزهها هي.

وقف يتأمل المائدة التي أعدّها بنفسه بإعجاب شديد، ثم اتجه إلى غرفة حفيده ليوقظه ويدعوه لتناول وجبة الإفطار معه، ولكنه ما لبث أن أمسك بمقبض الباب حتى وجد الباب ينفتح، وإذا بحفيده يقف أمامه، شاب يافع في الثامنة عشر من عمره، يبدو لمن يراه أنه أكبر سنًا، طويل، عريض المنكبين، له عينيّ جده الساحرتين، وابتسامة أبيه الرصينة الهادئة، ولكنه أصبح في الأيام الأخيرة شارد دائمًا، شاحب الوجه، نظر جده إلى زيه الرياضي والحقيبة التي يحملها على كتفه بتعجّب، وسأله:

- رايح على فين كدة؟
- نزع الحفيد السماعات التي يضعها في أذنيه، والتي اعتاد أن يستخدمها كل صباح حتى ينتهي جده من الاستماع إلى تلك

الأغنيات التي هي على حد قوله "عفا عنها الزمن"، ليجيب جده قائلًا:

- بتقول إيه يا جدو؟
- بقولك رايح فين؟
- رايح النادي، حادخل الجيم شوية قبل الصلاة.
- والفطار اللي أنا حضرته؟ ده أنا كنت جاي أصحيك عشان نفطر سوا.
- معلش يا جدو مليش نفس.
- يا ابني ما ينفعش كده، بقالك ييجي أسبوع على الحال ده وأنا مش فاهم مالك، لأ وكمان رايح تتمرن من غير ما تاكل، كدة حاتقع من طولك.
- ما تقلقش يا جدو حابقى آكل حاجة خفيفة قبل ما أدخل التمرين.
- طيب ما تاكلّك لقمة قبل ما تنزل يا ابني.

أجابه الحفيد وهو يخرج من الغرفة لينهي الحديث قائلًا: معلش يا جدو مستعجل والله، بالهنا والشفا.

رفع الجد صوته ليصل إلى مسامع حفيده الذي كان يغلق باب الشقة قائلًا: خلّي بالك على نفسك.

عاد ليقف أمام المائدة وهو ينظر إلى الأطباق التي أعدّها، ولكن بحسرة هذه المرة، أخذ كسرة من الخبز ووضعها في فمه، ومن بعدها كوب من الماء معها أقراص الأدوية التي عليه أن يتناولها بعد وجبة الإفطار، ثم أخذ يرفع الأطباق من على المائدة متجهًا إلى المطبخ وهو يتمتم قائلًا:

– قال بالهنا والشفا، هَنا إيه وزفت إيه، حاجة تسد النفس.

جلس الجد على مقعده الهزاز بالصالون يقرأ الجريدة، وبجانبه فنجان قهوته التي لم يستطع أن يكمل شُربها لشدة برودتها، فقد أفقده أمر حفيده القدرة على التركيز لدرجة جعلته ينسى أنه قد أعدّها، أخذ يتصفّح الجريدة بعينين شاردتين، وكأنه لا يرى الكلمات، فقد كان كل ما يراه أمام عينيه آنذاك هو صورة حفيده، وكل ما كان يشغل باله هو قلقه الشديد عليه، تُرى ماذا أصابه هذا الفتى؟
ما كل هذا الغموض الذي يحيط به، ومتى أصبح كالفرس الجامح هكذا لا يقوَ على ردعه أحد؟

أخذ الجد يحاول جاهدًا أن يتذكر كيف كان حفيده أثناء طفولته وما طرأ عليه من التغيرات، ولكن كم كانت المفاجأة موجعة بالنسبة له حينما اكتشف أنه لا يتذكره، لا يتذكر ملامحه أو كيف كانت شخصيته، فقد بدت له الصورة مهزوزة، زائغة، وكأنه يرى حلمًا لشخص بلا ملامح، ولكن ماذا عساه أن يتذكر وهو الجد الذي نشأ حفيده بعيدًا عنه بعد أن سافر ابنه المهندس "محمد منصور" برفقة زوجته والحفيد الذي لم يكن يتجاوز الستة أشهر آنذاك إلى السعودية للعمل، ليأتي كل عام في إجازة قصيرة لا تزيد عن الأسبوعين، والتي لم تكن كافية بالنسبة له على الإطلاق ليعرف حفيده جيدًا، أو يكون له أي ذكريات معه، حتى عاد الحفيد وهو شاب في السابعة عشر من عمره ليلتحق بكلية الهندسة

بجامعة الإسكندرية، الأمر الذي أسعد الجد كثيرًا، خصوصًا بعد وفاة زوجته وإقامته بمفرده، ولكنه أفاق اليوم على الحقيقة التي جعلته يدرك أنه ليس بجاهل بأي شيء عن حياة حفيده الماضية أو الحاضرة فحسب، ولكنهما وبالرغم من صلة الدم بينهما، إلا أنهما مجرد غريبين يسكنان المنزل نفسه، لا أكثر.

مرت ساعة تلو الأخرى، والحفيد لا يعود، يتّصل به جده ولا يجيب، يقف بالشرفة ينتظر عودته، ولكن دون جدوى، وكلما مرّت الساعات ازداد قلقه عليه، أخذ يدور حول نفسه، يقف ثم يجلس، ينظر إلى الساعة التي اقتربت على الحادية عشر مساءً، ثم إلى باب الشقة لعله ينفتح ويدخل منه الحفيد فيطمئن قلبه، فكّر في الخروج للبحث عنه، ولكنه لا يعرف أين يمكن أن يجده، ودَّ لو يتصّل بأحد أصدقاءه فلربما يكون معه، ولكنه تذكّر أنه لا يعرف رقم هاتف أيّ من أصدقاءه، بل لا يعرف من هم أصدقاءه، ازداد انفعاله الناتج عن قلة حيلته، والتي دفعته ليَهُب واقفًا متجهًا نحو غرفته ليرتدي ملابسه ويبحث عنه في أي مكان، حتى ولو سيقضي الليل في الطرقات والأزقة بحثًا عنه، ولكنه ما لبث أن دخل غرفته استعدادًا لتبديل ملابسه، حتى سمع المفتاح يدور بالباب لينفتح ويدخل الحفيد، اندفع الجد خارجًا من غرفته وهو يرتدي قميصه وسروال بيجامته قائلًا:

- انت شرّفت يا سعادة البيه؟؟ كنت فين؟
- كنت مع صحابي، اتغدينا في النادي وبعدين دخلنا سينما.

- صحابك؟؟ وليه مابتردش على تليفونك؟ انت عارف أنا كلمتك كام مرة؟ أنا كنت خلاص نازل أدوّر عليك في الشوارع.
- في إيه يا جدو حصل إيه لكل ده؟؟
- احمر وجه الجد الذي صاح غاضبًا: حصل إيه؟؟ حصل إنك برّة البيت بقالك أكتر من ١٢ ساعة، ومابتردش على تليفونك، قولّي انت المفروض أنا أفهم إيه؟ أنا إيش عرّفني إذا كان جرالك حاجة ولا إيه إللي حصل بالظبط؟
- التليفون كان في جيبي طول الوقت وأنا كنت ناسي صوته مقفول ماخدتش بالي، ولما شوفت المكالمات ماكانش معايا رصيد أكلّم حضرتك، قولت خلاص شوية وحاروّح، ما حصلش حاجة يعني.
- تاني حاتقولّي ما حصلش حاجة؟؟ اسمع يا واد انت، انت حالك مش عاجبني، وأنا الظاهر إني سكتّلك كتير، انت داخل في سنة دلوقتي عايش معايا، وكل يوم أقول لسة ماخدش على الجو، بكرة يتعدل، بكرة يتعوّد، وانت لا بتتعدل ولا بتتعوّد وسايق العَوَج على الآخر، لكن لو انت فاكر إنك قاعد هنا في أوتيل تبقى غلطان، البيت ده ليه نظام وانت لازم تمشي عليه، انت أبوك سايبك هنا أمانة ومش حاييجي عيل زيك وأنا في السن ده يخليني مش قد الأمانة، انت فاهم؟
- اتسعت عينا الحفيد في ذهول من ثورة جده، ليخرج عن صمته لأول مرة قائلًا: لأ يا جدو مش فاهم، عشان أنا مش عيل، أنا راجل، ومش شنطة فلوس ولا علبة ذهب متسابة عندك عشان أبقى

أمانة، أبويا فاكر عشان حبة الفلوس اللي بيرميهالي كل أول شهر والخمس دقايق اللي بيكلمهملي وهو مستعجل كل كام يوم هو وماما، يبقى هما كدة عاملين اللي عليهم، وحضرتك فاكر إنك لما تبقى عارف أنا روحت فين ورجعت إمتى وذاكرت ولا لأ، ده اللي يخليك قد الأمانة، بس اللي أعرفه إنك عشان تكون قد الأمانة بجد لازم تبقى أب تاني ليا، أنا بقالي سنة دلوقتي عايش معاك، عمرك سألتني مالك؟ كويس ولا لأ؟ بلاش، انت النهاردة بتقولي إني بقالي أسبوع عالحال ده، فكّرت تسألني بقى أنا إيه اللي مغيرني كدة؟

- نظر الجد إلى حفيده معاتبًا بعينين محمرتين تجاهدان أن تخفيا دموعهما، ثم أجابه بصوت متهدج محاولًا أن يتغلّب على هذه الغصة التي يشعر بها في حلقه، قائلًا:

فكّرت، بس انت اللي ما بتفهمش، إنت لو بتفهم كنت عرفت إني طول الوقت كنت عايزك تبقى قريب مني بس كنت مستنيها تيجي منك، كنت عايزك انت اللي تحكيلي بدل ما أنا اللي أسألك عشان ما تحسّش إني بتطفل عليك أو بتدّخل في خصوصياتك، لو بتحس، كنت حسّيت إني طول الوقت ده كنت أنا اللي محتاجلك زي ما انت محتاجلي، ويمكن أكتر، كنت حسّيت براجل عجوز عايش لوحده بقاله سنين وهو خايف، خايف كل يوم إنه ينام ومايصحاش، خايف لا تجيله غيبوبة سكر ولا يقع يتكسر ومحدش يحس بيه، خايف من كُتر الوحدة يلاقي نفسه بيكلّم الحيطان، ولا ينزل لوحده يتوه ومايعرفش يرجع، لكن انت

للأسف لا بتفهم ولا بتحس، بتلومني على إيه؟ عشان بسألك كنت فين وذاكرت ولا لأ، طيب على الأقل أنا بسألك على حاجة، لوم نفسك الأول وانت حتى صباح الخير ما بتردّش عليها عشان بتصحى حاطتلي السماعات في ودنك وكأنك لا عايز تسمع ولا تتكلم، انت كنت آخر أمل ليا، بس يا خيبة أملي فيك.

وقف الفتى مشدوهًا، لا يصدق كيف تطوّر الحوار بينه وبين جده إلى هذه المرحلة، كيف يحملان بداخلهما كل هذا الألم، ولا يدري أيّ منهما شيئًا عن تلك الحرب التي يخوضها الآخر كل ليلة بمفرده، حاول أن يتحدث ولكن الخجل الذي كان يشعر به آنذاك جعل صوته يخرج بصعوبة قائلًا:

– جدو أنا...

لكن الجد لم ينتظره ليكمل جملته، فما كان له سوى أن أدار ظهره وقال وهو يسير بخطى متثاقلة وظهر محنيّ نحو غرفته قائلًا:

– ادخل نام يابني، بكرة أول يوم في الكلية ولازم تروح فايق، تصبح على خير.

أخذ الجد يتململ في سريره، والساعات تمر ببطء، بينما هو يتقلّب يمينًا ويسارًا، حتى أعلن استسلامه ليقظته بعد أن ضل النوم طريقه إلى جفنيه، ظل يستحضر الحوار الذي دار بينه وبين حفيده وهو يشعر بالحسرة، لم يكن يتخيل أبدًا أن تتصاعد الأمور بينهما إلى هذا الحد، ولكن بالرغم من غضبه واستياءه مما قال الفتى، إلا أنه كان يعلم في قرارة نفسه أن كلماته كانت تحمل شيئًا من الصحة.

نهض الجد من مكانه متجهًا نحو غرفة الفتى ليطمئن عليه، فتح الباب برفق، ثم دخل متسللًا على أطراف أصابعه، ظل واقفًا إلى جانب سريره يتأمله، يتأمل هذا الفتى النائم كطفل، وإلى جانبه هاتفه الصامت الذي أخذ يدق مرة تلو الأخرى، وفي كل مرة كانت شاشته تنير باسم "نوران"، أهي حبيبته؟ رباه، إنه حقًا جاهل كل الجهل عن أي شيء يخص ذلك الفتى، هَمَّ ليخرج من الغرفة، ولكن عيناه التقطتا ذلك الكشكول الذي لم يكن موجودًا فوق المكتب في الصباح، فتح الباب خارجًا ولكن فضوله منعه أن يفعل، فقد كان كل ما يسيطر عليه آنذاك هو رغبته في معرفة أي شيء عن ذلك الفتى الذي ينام بالغرفة المجاورة له، ولو لمرة واحدة، اقترب من المكتب ثم أمسك بالكشكول الذي أخذ يقلّب بين صفحاته بأصابع مترددة حتى وصل إلى الصفحة الأخيرة وبدأ يقرأ

***

"الجمعة " ٢١/ ٩/ ٢٠١٩

لم أشعر بالخجل من نفسي أبدًا من قبل كما شعرت به اليوم، لقد نهرت جدي وقسوت عليه كثيرًا أثناء الشجار الذي دار بيننا اليوم، لم أقصد إيلامه، ولكني كنت متألمًا بما يكفي، لقد كذبت عليه حين أخبرته أنني كنت برفقة أصدقائي، وأنا لم أكن برفقة أحد سوى نفسي، لا أعلم إن كنت قد كذبت عليه لأنه لم يكن ليصدقني إن قلت له إنني قضيت أكثر من اثني عشرة ساعة بمفردي، أم أنني كنت أكذب على نفسي من قبله

محاولًا أن أقنعها ولو لمرة واحدة أنني لست بهذه الدرجة من الوحدة، فأنا لم يحدث يومًا أن كان لي أصدقاء سواء هنا أو في السعودية، مجرد زملاء، فعندما كنت هناك لم أكن أشعر أنني أنتمي إلى ذلك المكان ولا أولئك الناس، وعندما جئت إلى هنا عاملني الجميع على أنني لا أنتمي إليهم، لم يكن لي أصدقاء أو أشعر أنني أنتمي لأحد من قبل سوى "فرح"، هي وحدها من أنست وحدتي وطغت بوجودها على وحشة غربتي، ولكن حتى هذا لم يَدُم، فقد تركَتني لأعود وحيدًا كما تركني الجميع، ولكني صِرت معتادًا على ذلك، فأنا لم يختَرني يومًا أحد، بل ولم يعطِني أي شخص من قبل حق الاختيار، بداية من والديّ، ووصولا إلى "فرح"، فلطالما كنت مسيّرًا، ولم أعرف أبدًا معنى أن يكون المرء مخيّرًا، وحده جدي هو الذي يبدو أنني ظلمته حين ظننت أنه لا يختلف عنهم كثيرًا، لذلك ربما عليّ إعطاء نفسي وإياه فرصة ثانية لعلي أكون منجاه، ويكون هو فرصتي الوحيدة لألفة ودفء لم أختبرهما من قبل".

أغلق الجد الكشكول، وبرغم من حزنه على الفتى وما يشعر به، إلا أنه لم يستطِع أن يقاوم تلك الابتسامة التي تسللت رغمًا عنه إلى ثغره، إذًا فهناك فرصة ثانية، فرصة لن يسمح بضياعها مهما كلّفه ذلك، فلربما كانت هذه فرصته الأخيرة ليملأ ذلك الفراغ الذي يشعر به، ويقضي على شبح الوحدة الذي يطارده دائمًا، ولكن ثمة سؤال استوقفه ولم يكن له جواب، فإن كان هناك "فرح"، إذًا من هي "نوران"؟ لا زال يشعر أن

هناك الكثير ليعرفه عن ذلك الفتى، ويبدو أنه سيعرفه قريبًا، ولكن بطريقته الخاصة.

في صباح اليوم التالي كان الجد يجلس بالصالون على مقعده الهزّاز، يقرأ الجريدة كعادته كل يوم، حتى انفتح باب غرفة الفتى، ليخرج مطأطئ الرأس وهو ينظر إلى جده خِلسة في خجل، اقترب من مقعد الجد، ثم جلس على الأريكة المجاورة له وقال:

- صباح الخير يا جدو.
- أجابه الجد وهو يتصفح جريدته دون أن ينظر إليه: صباح النور.
- جدو، أنا آسف على اللي قولته امبارح، أنا...
- أجابه باقتضاب وهو لا يزال يدير وجهه عنه قائلًا: حصل خير، ماروحتش الكلية ليه؟
- ماعرفتش أنام امبارح خالص.
- هنا أغلق الجد الجريدة، والتفت للفتى قائلًا: انت حاتستعبط؟ إذا كنت أنا دخلت عليك الأوضة الساعة ٨ عشان أشوفك روحت الكلية ولا لأ، لقيتك نايم وبتشخّر كمان.
- ابتسم الفتى ابتسامته الطفولية المعهودة قائلًا: ما هو أنا نمت متأخر، فا معرفتش أصحى.
- قال الجد وهو يعود ليفتح الجريدة ويخفي وجهه الباسم بين صفحاتها قائلًا: مم، قولتلي.
- خلاص بقى يا جدو عشان خاطري ما تزعلش مني.

- ماشي مش زعلان، بس عشان تبقى فاهم سواء عجبك الكلام أو ماعجبكش، انت أمانة، زي ما أبوك كان أمانة، وزي ما الروح أمانة، كل هدية ربنا بيديهالنا أمانة، وانت أحلى هدية ربنا ادهالي، أنا بس اللي جايز ما بعرفش أعبَّر.

أكمل وهو يربت على خده في حنو قائلًا: ده انت اللي حاتمد في اسمي يا واد.

- اتسعت ابتسامة الفتى الذي بدا عليه أنه كان يفتقد حنان الأب الذي حرمه منه والده، زاعمًا أنه يجعل منه رجلًا، وما كان له سوى أن أمسك بيد جده وقبّلها، ثم سأله قائلًا: فطرت؟
- ابتسم الجد الذي اغرورقت عيناه بالدموع بعد أن قبّل الفتى يديه قائلًا: لأ لسة.
- طيب أنا حاعمل لنفسي فطار، تحب أعملك إيه؟
- ساندونش جبنة بيضا وحتة كيك، ومعاهم كباية شاي باللبن.
- نهض الفتى متجهًا نحو المطبخ، وهو يقول مازحًا: كل ده؟ يا ريتني ما سألت.

انفجر الجد ضاحكًا، وهو يشعر أن هذا الصباح سيكون مختلفًا تمامًا عن كل الصباحات السابقة التي جمعتهما.

- صاح الفتى من داخل المطبخ متسائلًا: سُكّرك قد إيه يا جدو؟
- أجابه الجد: معلقة واحدة.

ولكنه سمع شيئًا بدا له غريبًا، شيئًا جعله ينهض من مكانه ليتبع ذلك الصوت الذي لم يكن ببعيد، فقد كان يتردد على مسامعه صوت محمد عبد الوهاب يغني:

" لما انت ناوي تغيب على طول
مش كنت آخر مرة تقول، لما انت ناوي
بالليل أسيب نفسي لهمّي ولأفكاري
وأفضل أفكر فيك وانت ولا داري
وألقى البعاد طوّل أولع وتقيد ناري
لما انت ناوي
أشوف خيالك في الوحدة جه قدامي
أكلمك وأسمع حسك وأشكي غرامي
وأقوم أضمك ملقاش غير أوهامي
لما انت ناوي
ملقاش أنيس في الوحدة دي غير ألحاني
وأقول لنفسي ده مش ممكن راح يسلاني
لازم يهزّه الشوق ليا يرجع تاني
لما انت ناوي"

ظل يتبع ذلك الصوت الذي أسر قلبه حتى وجد نفسه بالمطبخ، نظر إلى حفيده متعجبًا، ثم سأله:

- انت اللي مشغّل الأغنية دي ولا الجيران؟
- لأ أنا.

- غريبة.
- هي إيه دي اللي غريبة؟
- لا أبدًا، أصلي عارف إنك مش بتسمع غير أغاني أجنبي، عرفت الأغنية دي منين أساسًا؟
- امبارح وأنا رايح النادي، سواق التاكسي كان مشغّلها، فعجبتني وسألته على اسمها.
- انت عارف مين اللي بيغني ده؟
- السواق قالّي محمد عبد الوهاب.
- ضحك الجد، ثم قال ساخرًا: قالّك؟؟ يبقى ما تعرفهوش، ده اللي بيسموه موسيقار الأجيال، لحّن أغاني لأعظم مغنيين في الوطن العربي في الوقت ده، عبد الحليم، وأم كلثوم، وغيرهم كتير، قولّي خلّصت اللي بتعمله؟
- آه تقريبًا.
- طيب هات فطارك وحصّلني.

جلس الفتى مواجهًا للجد، وكل منهما يرشف من كوب الشاي باللبن الخاص به، نظر الجد إلى حفيده نظرة ماكرة، ثم سأله قائلًا:

- مش ناوي بقى تقولّي مالك؟

أدار الفتى وجهه عن الجد ولم يُجِبهُ، فما كان للجد سوى أن اقترب منه وباغته سائلًا:

- انت بتحب؟

اتسعت عينا الفتى في ذهول، ولم يجِب مرة أخرى، فقد فاجأه السؤال لدرجة جعلته يفقد القدرة على الإجابة، أو حتى التفكير، عاد الجد بظهره إلى الخلف، ثم نظر إلى حفيده نظرة واثقة وقال:

- تبقى بتحب، اسمها إيه؟
- قال الفتى مترددًا: اسمها فرح، كانت معايا في الكلية.
- كانت؟؟ ليه راحت فين الست فرح؟
- سافرت، قدّمت على منحة في ألمانيا وسافرت من كام يوم.
- وعشان كدة بقى قالب وشّك؟
- هز الفتى رأسه بالإيجاب، أكمل الجد قائلًا: طيب وانت مكنتش عارف؟
- قالتلي بعد ما قدّمت، ولما سألتها ليه ما قلتليش من الأول، قالت عشان ماكانتش ضامنة إنها حاتتقبل وماكانتش عايزة تسبق الأحداث.
- وشوفتها قبل ما تسافر؟
- لأ راحت تشوف أختها في القاهرة وسافرت من هناك، قالتلي مش بتحب الوداع.
- وعشان كدة كنت بتسمع الأغنية؟
- فكّرتني بيها.
- طيب وبصراحة كدة، ليه ماروحتش الكلية النهاردة؟
- ماكنتش قادر، هي الوحيدة اللي كانت بتصبّرني على الكلية وغلاستها، أنا أصلًا ماكنتش عايز أدرس هندسة.

- أمال دخلتها ليه؟
- بابا هو اللي أصر، أنا أصلًا بحب الكتابة وكنت عايز أدرس إعلام، بس هو رفض إني أروح القاهرة لوحدي وقالّي دي كلية بنات، انت تدخل هندسة وأنا حارجع وأفتحلك مكتب، وسمعت كلامه كالعادة.
- نظر الجد إلى الفتى بتمعُّن، وسأله: وبتكتب كويس على كدة؟
- يعني على قدي، بكتب خواطر، وساعات شِعر.
- مم، طيب ابقى ورّيني الحاجات اللي انت كاتبها، أنا عندي واحد صاحبي صحفي، لو طلعت فعلًا بتكتب حلو، حاخلّيه يساعدك.
- انفرجت أسارير الفتى، وسأل الجد بلهفة قائلًا: بتتكلم جَد يا جدو؟
- طبعًا بجد، وأنا من إمتى بهزّر معاك يا ولد؟
- سرعان ما تبدّلت ملامح الفتى، وشرد للحظة وكأنه تذكّر شيئًا، ثم قال: طيب وبابا؟؟
- غمز له الجد وقال وهو يبتسم: سيبك منه.

صمت برهة، ثم أكمل قائلًا:

- انت أصلك فكّرتني بحكاية كدة.
- حكاية؟ حكاية إيه؟
- أصلي زمان كنت بحب المزيكا أوي، كنت مجنون بالغنا والآلات، روحت جبت عود وقولت لأبويا أنا عايز أدرس موسيقى في الكونسرفاتوار، ما نابني إلا تكسير العود وبهدلته ليا،

قالّي عايز تشتغل ورا العوالم والرقاصات؟ عايز تفضحنا؟ وحكم عليا إني أدخل كلية الشرطة زيّه، عشان كدة يوم ما طلعت معاش ماحستش إني زعلان زي بقية زمايلي اللي كانوا معايا في الخدمة، بالعكس ده أنا حسيت كإني أخدت إفراج، وعشان كدة مش عايزك تغلط نفس غلطتي، أنا فضلت أسمع الكلام لحد ما حسيت إني عايش حياة مش حياتي، مش أنا اللي مختارها، وأنا مش عايزك تبقى كدة يابني، خصوصًا إن أبوك واضح إنه ماخلّاش حاجة من جده، نفس الشدّة والسيطرة، مع إني عمري ما كنت كدة معاه، طول عمري سايبه يعمل اللي هو عايزه، يدرس اللي هو عايزه، يتجوز البنت اللي بيحبّها، يسافر مطرح ما هو عايز، وعشان كدة مش حاسمحله يعمل كدة فيك.

همَّ الفتى ليكمل حواره مع جده، ولكن قاطعهما هاتفه الذي كان يدق، نظر كلاهما إلى الهاتف الذي عادت شاشته لتنير باسم "نوران"، نظر الفتى متوجسًا إلى جده الذي لم يعطِه فرصة للتفكير، ونظر له قائلًا: رُد. أمسك الفتى بالهاتف، وأجاب قائلًا:

- ألو.
- أيوة يا ابني، ماجيتش الكلية ليه؟ أنا لما لقيتك اتأخرت كلّمتك كتير، قولت أكيد حاتصحى من صوت الموبايل.
- معلش كنت ناسي صوت الموبايل مقفول.
- مالك في إيه؟ انت كويس؟
- آه تمام، قاعد مع جدو بس حاكلمك كمان شوية.

- طيب مش تقول؟ عمومًا خلّص قعدتك معاه وكلّمني، عايزة آخد رأيك في الموضوع اللي قولتلك عليه.
- حاضر، مع السلامة.
- مع السلامة.

ما لبث أن أغلق الفتى الهاتف، حتى وجد جده يضع يده على خده، وينظر إليه نظرة مستفسرة، فهم الحفيد ما كان يدور في ذهن الجد، فقال دون أن ينتظر سؤاله:

- دي "نوران" زميلتي في الكلية، كانت بتشوفني ماجيتش النهاردة ليه، وكانت عايزة تتكلم معايا في موضوع تاني كدة.
- موضوع إيه؟
- أصل جايلها عريس وهي مش موافقة، ومش عارفة تعمل إيه مع أهلها.
- بقى هي الحكاية كدة؟
- آه هي أصلها بتعتبرني زي أخوها، وأنا كمان بعتبرها زي أختي.
- قال الجد بخبرة رجل حكيم: اتكلم عن نفسك.
- سأله الفتى مستفسرًا: يعني إيه؟
- يعني جايز تكون انت بتعتبرها زي أختك، بس أنا معتقدش إن هي بتعتبرك زي أخوها.
- ليه بتقول كدة يا جدو؟ ازاي أصلًا وهي عارفة إن "فرح" موجودة في حياتي؟

- قاطعه الجد قائلًا: قصدك كانت موجودة في حياتك، م اتضحكش على نفسك يا ابني وتضيع عمرك بتجري ورا أوهام، انسى اللي نسيك، واللي بيحبّك شيله في عينيك وحطّه فوق راسك.

ابتسم الجد وسأل الفتى: مش البنت حلوة وتستاهل؟

- من الناحية دي هي فعلًا حلوة وجدعة جدًا، بس بصراحة يا جدو أنا معتقدش إني حاقدر أنسى "فرح".
- كلّنا قولنا كدة وحياتك، وفي الآخر نسينا واتنسينا.
- إيه؟؟ تقصد إيه يا جدو؟

فكّر الجد مليًّا، وعاد برأسه إلى الخلف وشبح ابتسامة يلوح على وجهه، ثم نظر إلى حفيده، وقال:

- أنا هاحكيلك، هاحكي اللي عمري ما حكيته لحد.

اتسعت عينا الفتى اللتان كانتا تفيضان بالفضول واللهفة لسماع تلك القصة، القصة التي لا يعرفها أحد.

تنهد الجد، وبدأ حكايته قائلًا:

- زمان لما كانت مصر غير دلوقتي، كان فيها ناس من كل العالم، من كل جنسية وكل ملّة وكل دين، إشي صاحب مطعم يوناني، وإشي جواهرجي طلياني، وإشي مهندس فرنساوي، كانت كل الناس عايشة مع بعض كإنهم حاجة واحدة مفيش اختلاف، والخواجات كانوا ولاد بلد زي المصريين وأكتر، ما هو من العشرة يا ابني كنا بننضح على بعض، وإسكندرية دي كانت جميلة

ولا أوروبا، وأنا في سنّك كدة كنت بحب أجمل واحدة في شارعنا، كانت يونانية واسمها "إيلينا" عارف العمارة اللي في وشنا على الناحية التانية من الترام، دي كانت الفيلا بتاعة أبوها قبل ما تتهد، كانت زي القمر وجمال روحها كان مزوّد من جمال ملامحها، لما كانت بتمشي كنت بشوفها كإنها بتطير من على الأرض طير، تقول فراشة، فضلنا سنين نحب في بعض، لحد ما في يوم قابلتها وقالتلي إنها مسافرة اليونان مع أهلها شهر في إجازة الصيف، صدّقتها لكن معرفش ليه قلبي كان مقبوض، خصوصًا إن نظراتها ليا كانت غريبة، غير كل مرة، بعد ما سافرت بعتتلي جواب قالتلي فيه إنهم اتأمموا، وإنهم سابوا كل حاجة هنا ومش راجعين إسكندرية تاني.

- قال الفتى متشوقًا وكأنه يشاهد فيلمًا: طيب وعملت إيه؟
- عملت إيه؟؟ ده أنا كنت حاموت، قعدت بعدها شهور قافل على نفسي لا قادر أكلم حد ولا أشوف حد، ماكنتش بعمل حاجة غير إني أسمع أغنية كانت بتفكرني بيها وأعيّط زي الولايا، كنت حاسس إن الدنيا خلصت بالنسبة لي يوم ما هي مشِت، لحد ما بدأت أفوق، في الوقت ده بدأت أشوف جدتك بعين تانية، ما هي كانت بنت خالتي، طول عمري كنت بشوفها بنت خالتي وبس، لحد ما حسيت إني ماجاليش من الحب غير وجع القلب، وقررت إني من هنا ورايح مش حافكر غير بعقلي، وعقلي كان بيقولي إنها أنسب واحدة تنفع تبقى مراتي، عارفها وأهلها هُمَّ أهلي، عارف متربية ازاي وحاتربي ولادي ازاي، اتجوزنا وخلّفنا أبوك، لكن لا

أنا عمري نسيت "إيلينا" ولا هي نسِت، كانت دايمًا حاسّة إننا مهما قرّبنا، في حاجز لسة بيني وبينها، والحاجز ده كان هو "إيلينا".

- يعني ماحبِّتش تيتة يا جدو؟
- ماحبيتهاش ازاي؟؟ طبعًا حبيتها، دي جدتّك دي كانت ست الستات، آه والله، وعشرتها كانت جميلة، الله يرحمها ويحسن إليها.

مسح الجد دمعة أفلتت من عينيه، وأكمل قائلًا: في آخر أيامها، كانت تعبانة أوي، وأنا اللي كنت بخدمها، جت في يوم واحنا قاعدين وبنتسامر جتلها نوبة القلب وتعبت فجأة، روحت أجيبلها كوباية مية، رجعت لقيت السر الإلهي طلع.

- الله يرحمها.
- لحد ما في يوم وأنا قاعد لوحدي سمعت في الراديو الأغنية اللي كنت باسمعها لما "إيلينا" سافرت، كانت أول مرة أسمعها من ساعتها، قعدت أعيط زي العيال الصغيرة، وفي وسط ما أنا بعيط اكتشفت إني مش بعيط على "إيلينا" أنا كنت بعيط على جدتك، ما هي برضه سابتني فجأة ومشِت، حسيت في اللحظة دي إني كنت بحب جدتك أوي، ويمكن أكتر ما حبيت "إيلينا"، وزعلت لما اكتشفت إني ماودّعتهاش، وإنها واحشاني، بس للأسف كل ده ساعتها مكانش منه فايدة عشان لا هي عمرها عرفت أنا حبيتها قد إيه، ولا أنا عمري قولتلها، ومن ساعتها وأنا حاسس بتأنيب الضمير من ناحيتها، وندمان على كل يوم عدى عليا معاها

ومامليّتش عيني منها ولا قولتلها قد إيه كنت بحبها، وفضلت من اليوم ده كل يوم الصبح أشغّل الأغنية دي وأسمعها في الميعاد اللي كانت بتصحى فيه، وكإني بصبّح عليها.

- دي الأغنية اللي حضرتك بتسمعها كل يوم في الجرامافون؟
- أيوة ياخويا، واللي بسببها بتصحى كل يوم حاطط السماعات في ودانك عشان ما تسمعهاش.
- ابتسم الفتى في مكر، ثم سأل الجد قائلًا: طيب و "إيلينا"؟ ماشوفتهاش تاني؟
- شوفتها مرة واحدة من سنتين بالصدفة، كنت بشرب قهوة مع واحد صاحبي في فندق "سيسيل" وقابلتها هناك، كانت أول مرة تزور إسكندرية من يوم ما رجعت على بلدها.
- يعني شوفتها؟؟ أكيد اتخضيت وارتبكت طبعًا.
- اتخضيت آه، لكن ارتبكت أو حسيت بحاجة يعني لأ.
- يا سلام؟ ازاي بقى؟
- أصلي يومها بصيت في عينيها ومالقتهاش، ملقيتش "إيلينا" اللي عرفتها وحبيتها زمان، مش عشان عجّزت لأ، لكن عشان روحها اتطفت ولمعة عينيها اللي حببتني فيها مابقتش موجودة، يومها وأنا مروّح كان نفسي أجري على جدتك وأقولها ما تخافيش الحاجز اللي كان بينّا طلع وهم، أنا بطّلت أحب "إيلينا" من زمان، بطلت أحبها من يوم ما حبيتك، بس للأسف معرفتش أقولها أي حاجة من الكلام ده لإن كان فات الأوان.

تنهّد الجد ثم سأل حفيده قائلًا: غريبة، بذمتك مش شايف إن القصتين فيهم شبه من بعض؟

- أجاب الفتى في حيرة: بصراحة فيهم كتير، ويمكن لدرجة تخوّف.
- عشان كدة يا ابني بقولك انسى اللي ينساك وادي نفسك فرصة تحب اللي بيحبك، في جملة عظيمة قالها "إحسان عبد القدو القدوس"، بتقولك "حبك الأول هو حبك الأخير" عارف يعني إيه؟
- أكيد يعني الواحد ما بيقدرش يحب بجد غير حبه الأول، ولا يقدر ينساه.
- حمار، الجملة دي معناها إن آخر حب في حياتك، اللي بتكمّل معاه عمرك كلّه، اللي بينسّيك كل اللي كان قبله كإنه ماجاش، ينسيك كل وجع اتوجعته وكل فراق فارقته، هو اللي لما بييجي يرجّع قلبك يرقص وعينيك تلمع من الفرحة، كإن لا قلبك في يوم اتكسر ولا عينيك دمّعت، كإنك ماحبيتش قبل كدة، كإنه هو حبك الأول، هو ده الحب اللي بجد، الحب الأول والأخير، فهمت؟
- نظر الفتى لجده نظرة يملأها الحب قائلًا: فهمت يا جدو.

صمت للحظة ثم أكمل: حضرتك عارف إن بابا عمره ما قعد معايا قعدة زي دي؟

- ابتسم الجد وقال لحفيده: ولا أنا، عُمر أبويا ما قعد معايا قعدة زي دي.

نهض الجد من مكانه متجها نحو الجرامافون، ثم قال وهو يمسك بإبرة الجرامافون ليدير اسطوانته المفضلة:

- الظاهر يا هاشم يا ابني إنك ورثت مني كل حاجة، من أول اسمي لحد قدري، ويمكن ربنا مد في عمري لغاية دلوقتي واداني أنا وانت الفرصة دي عشان أكون جنبك في الوقت ده وماسيباكش كمان تورث مني غلطاتي.

دارت الاسطوانة التي ما لبث هاشم الصغير أن استمع إليها حتى اتسعت عيناه في ذهول ومادت الأرض به غير مصدقًا أذنيه، فقد أدرك من خلال حكاية جده كم هو يشبهه، لكن وبالرغم من كل ما قيل، إلا أن خياله لم يَكُن ليصور له أبدًا أن قدره مطابقًا لقدر جده إلى هذا الحد، حتى سمع صوت محمد عبد الوهاب يخرج من الجرامافون وهو يغني:

"لما انت ناوي تغيب على طول
مش كنت آخر مرة تقول
لما انت ناوي..."

- نظر إلى جده بعينين ذاهلتين: هي دي الأغنية؟
- أجابه الجد وهو يبتسم له ابتسامة تحمل معانٍ كثيرة: هي دي.

اقترب هاشم الجد من هاشم الحفيد، وضمه إليه في حنان لم يعرفه من قبل، وقال: أنا وانت يا هاشم ربنا عوّضنا ببعض عن الوحدة اللي كل واحد فينا كان حاسس بيها، وكل اللي حصل واللي قولناه ده كان علامة، وأنا ماتعودتش أتجاهل العلامات.

ترك الحفيد نفسه بين ذراعيّ جده وأخذ يبكي وكأنه طفل وجد أمه بعد أن فقدها، ولا يود أن يفلتها لعله يستطيع أن يعوّض كل لحظة قضاها شريدًا تائهًا في غيابها، أخذ كل منهما يغني، ويعلو صوته أكثر وأكثر، حتى بدأ جيرانهما بحي الإبراهيمية يخرجوا في الشبابيك ليختلسوا النظر ويسترقوا السمع إليهما، فبالرغم من أن هذه الأغنية ارتبطت لدى كل منهما بذكريات مؤلمة، إلا أنهما كانا سعيدان لأنهما أصبحا مشتركان في كل شيء سويًا، حتى ولو كان هذا الشيء هو الألم، ولن يبقى كل منهما حبيس ذكرياته وأوجاعه، فقد هدما الحاجز الذي كان بينهما، ولن يسمحا ببناءه مرة أخرى، وقف هاشم الحفيد بجانب جده محاولًا أن يستعلم منه عن طريقة تشغيل الجرامافون، وهو يبتسم لنفسه ساخرًا، فقد قضى عامًا بأكمله يضع السماعات بأذنيه متهربًا من إزعاج هذا الجهاز العتيق، ومن صوت عبد الوهاب، ولكنه لم يَكُن يتخيل أن هذا الصوت، هو نفسه الذي سيكون حبل الوصل الذي سيربطهما سويًا من الآن فصاعدًا، كل يوم، وكلما دقت الساعة العاشرة صباحًا.

إلى مَن فرّقتهم الأيام، ولم تفارقهم الذكرى، لتطل أمام أعينهم بكل تفاصيلها وكأنها كانت بالأمس، كلما اصطدموا بمن شاركوهم بها، وكلما استمعوا إلى عمرو دياب الذي لطالما كان يأتي صوته مُصاحبًا لها.

نعشق القمر

القاهرة ٢٠٠٢

فريدة

وقَفَت سلمى على باب المرسم الخاص بفريدة وهي تزفر في ملل، فقد هاتفتها مرارًا، ولكنها لم تجِب، وها هي الآن تدق بابها، ولكن دون جدوى، ظلت تنقر الباب بيدها، بينما هي تستمع إلى صوت الموسيقى الصاخبة القادم من الداخل، فهذه هي عادة فريدة، كلما أرادت أن تطلق العنان لأفكارها لتبدأ لوحة جديدة، اتجهت إلى صومعتها، وحين ترغب في الانفصال عن الواقع والابتعاد عن كل ما هو حولها، تدير الكاسيت الخاص بها وتفسح المجال للموسيقى لتتولى الأمر، انفتح الباب لتطل منه فريدة التي وقفت وقد تناثرت خصلات شعرها الحريري الذي كانت قد عقسته فوق رأسها وثبتته بفرشاة الألوان، وبدا

على ملابسها الملطخة بالأحمر والأسود والبرتقالي أنها قد بدأت لوحتها المنشودة، صافحتها سلمى، ودخلت إلى المرسم وهي تسألها:

- ساعة عشان تفتحي؟
- معلش المزيكا كانت عالية، ماكنتش سامعة.
- ما هو واضح، كلّمتك في الجاليري قالولي مش موجودة، وكلّمتك في البيت، طنط قالتلي إنك هنا.

دلفت سلمى إلى الداخل حيث وقعت عيناها على اللوحة التي كانت عبارة عن مزيج من الخطوط والأشكال عشوائية، والتي كانت بنفس الألوان التي لطّخت ملابس فريدة، نظرت سلمى إلى اللوحة بتمعّن مصطنع، ثم استدارت إلى فريدة وقالت مازحة:

- إيه القرف ده؟
- ابتسمت فريدة ابتسامة خافتة، ثم أجابتها قائلة: إيش فهِّمِك انتِ في الفن؟ خليكِ في البنك بتاعك.
- طبعًا حاخليني في البنك بتاعي، مش أحسن ما أبقى شبه "عيسوي" زيك كدة، "كائن بوهيمي يفعل ما يحلو له"؟
- انفجرت فريدة ضاحكة، ثم أمسكت بفرشاتها واستدارت لتكمل لوحتها، وهي تتمتم قائلة: جاهلة.
- تغيّرت ملامح سلمى إلى الجَد، وكذلك صوتها الذي خرج مترددًا لتقول: طنط قالتلي إن وصلِتِك دعوة فرح "رشا".
- صمتت فريدة لبرهة، ثم أجابت باقتضاب دون أن تلتفت لسلمى قائلة: آه وصلتني.

- طيب حاتعملي إيه؟
- في إيه؟
- أجابت سلمى بنفاذ صبر: في الفرح يا فريدة، حاتروحي؟
- لأ.
- لأ ليه؟
- وأروح ليه؟ انتِ عارفة أنا ماشوفتش "رشا" أصلًا من إمتى؟
- ما هو ده سبب أدعى إننا نروح، إنها اهتمت وعزمتنا بعد السنين دي كلها.
- التفتت فريدة إلى سلمى لتسألها متعجبة: عزمتنا؟
- قالت سلمى بصوت يرتعش خوفًا من تلك العاصفة التي كانت تعلم جيدًا أنها ستَهُب بوجهها بعد لحظات: آه عزمتنا، أنا كمان جاتلي دعوة.

صمتت قليلًا، ثم أكملت في تردد: ومش أنا بس، "شريف" كمان.

- شريف مين؟

" شريف الألفي"، قابلته من فترة قريبة في البنك، جه يفتح حساب عندنا، والنهاردة كلّمني وقالّي إنه وصلته دعوة الفرح، وكان بيسألني إذا كنت رايحة ولا لأ.

- ارتفع صوت فريدة الذي كان قد بدأ يحتَد قليلًا: مم، وقالّك إيه كمان؟
- قالت سلمى وهي تنظر إلى الأرض، دون أن تلتقي عيناها بعينيّ فريدة: قالّي إن واضح إن كلنا معزومين.

- صاحت فريدة قائلة: كلنا؟؟ مين كلنا دول فهميني؟
- كلنا، الشلة القديمة، أنا وانتِ و "شريف" و "أدهم" و...
- كمّلي "عمرو" و "شيرين" و " داليا " كمان معزومين، مش كدة؟

لم تستطِع سلمى أن تجيب في ظل ثورة فريدة، فاكتفت بهز رأسها بالإيجاب، جلست فريدة إلى جانب سلمى، ثم أسندت ظهرها إلى الأريكة في إنهاك قائلة:

- كل ده وبتسألليني مش عايزة أروح ليه؟ طيب ده كفاية أوي اللي انتِ قولتيه ده.

صمتت قليلًا وكأنها تذكّرت شيئًا، ثم أكملت متسائلة: وهو عرف منين إنهم معزومين؟

- كلّم "رشا" عشان يباركلها، وفهم منها في نص الكلام إنها عزمتهم.
- مم، طيب بصّي بقى، لو انتِ عايزة تروحي روحي، لكن أنا عن نفسي مش رايحة.
- ليه بس يا فريدة؟
- صاحت فريدة قائلة: انتِ بجد بتسألليني ليه؟، مش عايزة أشوفهم يا سلمى، أنا ما صدّقت قفلت الصفحة دي من زمان، ليه جاية وعايزة تفتحيها تاني دلوقتي؟
- عشان كفاية يا فريدة، ست سنين عدّوا وانتِ لسة واقفة عند اللي حصل في الليلة المشؤومة دي، ست سنين وانتِ قافلة على نفسك

ومش بتشوفي حد غيري تقريبًا، مستنية كام سنة كمان عشان تعدّي اللي حصل؟ عشرين سنة؟

- أنا عدّيته يا سلمى، عدّيته لما قفلت الصفحة دي ونسيتهم كلهم، لما كمّلت لوحدي وخرّجتهم من حياتي، وأنا كمان خرجت من حياتهم، ماتجيش دلوقتي تفتحي جرح اتقفل من زمان وتقوليلي انتِ ماعدّيتيش اللي حصل، لأ يا سلمى.
- و "رشا" إيه علاقتها بكل ده؟ آه هي طول عمرها صاحبتنا من أيام المدرسة، ومتربية معانا من واحنا صغيرين، بس عمرها ما كانت جزء من الصفحة اللي انتِ عايزة تقفليها.
- أنا عارفة، بس مجرد إني أشوف الناس دي كلها، ده حايرجّعني لأيام وحاجات أنا مش عايزة أفتكرها، يا ستي أنا مش مستعدة.
- طيب وإمتى حاتستعدّي؟ صدقيني يا فريدة دي فرصة، فرصة إنك تكسري الحاجز النفسي اللي بينك وبين الفترة دي، وتتغلّبي على خوفك من مواجهة اللي حصل.
- مش عارفة يا سلمى، بجد مش عارفة.
- صمتت لبرهة، ثم أكملت متسائلة: قوليلي انتِ بقى، إيه اللي مخليكِ عايزة تروحي أوي كدة؟
- بصراحة وبغض النظر عن أي حاجة حصلت، هما وحشوني أوي، وحشني صحابنا وأيام المدرسة، وما صدقت نتجمّع بعد السنين دي كلها.
- نظرت فريدة إليها في شك، ثم سألتها: بس؟

- ابتسمت سلمى في تفهّم قائلة: لأ مش بس، انتِ عارفاني أكتر من نفسي، وعارفة إنك حاتفهميني، جايز يكونوا فعلًا وحشوني، بس كمان حاسة إن جوايا حاجة عايزة أثبتها لنفسي، نظرة نفسي أشوفها في عينيهم لما يشوفوا أنا قد إيه اتغيرت، وإني مابقتش سلمى بتاعة زمان اللي الناس كانت بتتريق على تخنها.
- طيب وشريف؟
- ماله؟
- إيه حكايته؟
- مش عارفة، أنا قابلته من فترة قصيرة، ومن ساعتها وهو رجع يقرّبلي تاني، والنهاردة لما وصلته الدعوة كلمني عشان يشوفنا رايحين ولا لأ؟
- وقولتيله إيه؟
- قولتله حاشوف مع فريدة وأقولَك، أنا مش حاروح لوحدي.
- قالت فريدة مباغتة وهي تبتسم في مكر: مش لوحدك بقى، انتِ معاكِ شريف، بصّي هو صحيح قِفل حبّتين، بص بصراحة طول عمره راجل ومحترم، ومش هو الشخص اللي ممكن أخاف عليكِ منه.
- لا مبقاش قِفل خالص، انسي شريف اللي كنتِ تعرفيه زمان.
- طيب وتفتكري التغيير ده عادي كدة، التغيير الطبيعي اللي بحُكم السنين يعني، ولا ليه علاقة بيكِ وباللي سمعه زمان؟

- مش عارفة، أنا أصلًا لحد النهاردة مش عارفة هو سمع إيه، بس هو بيتعامل معايا حلو جًدا لدرجة مشككاني إذا كان سمع حاجة أصلًا ولا لأ، أنا حاسة إني محتاسة ومحتاجاكِ معايا، ها حاتيجي معايا بقى ولا لأ؟
- بلاش يا سلمى عشان خاطري، بجد مش حاقدر أشوفهم.
- قالت سلمى وكأنها وجدت الحل: وانتِ إيش عرّفك إنهم حاييجوا؟ مش يمكن يكونوا بيفكّروا زيك ومايجوش؟
- تفتكري؟
- وارِد جدًا طبعًا، خصوصًا عمرو وشيرين، أكيد مش حايكونوا قادرين يورّونا وشّهم.
- وإن جُم؟ أعمل إيه ساعتها؟
- ولا حاجة، هما اللي المفروض يتداروا مش انتِ، كفاية يا فريدة، حاتفضلي مستخبية لحد إمتى؟ هربتي وعذبتي نفسك بما فيه الكفاية.
- مش حانسى منظر أدهم لما روحت أزوره في المستشفى، يومها طردني وفضل يزعق ويقولي انتِ السبب، عُمر صورته في اليوم ده ما راحت من بالي.
- أدهم اتغير خالص، انتِ متعرفيش حاجة.
- قالت فريدة في لهفة: انتِ تعرفي؟
- حاحكيلك، كل اللي أعرفه حاحكيهولك.

استمرت جلستهما لأكثر من ساعتين، وسلمى تقُص على فريدة كل ما عرفته عن أدهم وما لحق به، بينما فريدة تنصت إليها وهي في حيرة من أمرها، فقد كان ما سمعته كافيًا ليجعلها غير قادرة على التمييز، إن كان ما عرفته عنه قد طمأنها عليه، أم قلقها أكثر، ولكنها لأول مرة منذ ذلك اليوم، وبعد كل ما حدث، تشعر أن لديها رغبة جارفة في أن تراه، تراه هو بالذات دونًا عنهم جميعًا، وتتحدث إليه لعل تلك السنوات الست تكون قد نجحت في إخماد النار التي أشعلتها هي بداخله، ثم أجبرها على الرحيل، ليجعلها تقضي كل ليلة منذ ذلك اليوم تعاقب نفسها، وتتساءل إن كانت تلك النيران التي أضرمَتها بين ضلوعه قد انطفأت، أم ليس بعد!

نظرت سلمى إلى ساعتها التي أشارت عقاربها إلى الحادية عشر ليلًا ونهضت، فقد مر الوقت سريعًا دون أن تشعر كعادتها في كل جلساتها مع فريدة، استأذنت للانصراف، وانطلقت مستقلّة سيارتها، تفكر فيما دار بينها وبين فريدة من حوار، أفاقت من شرودها على صوت هاتفها الذي كان يدق باسم شريف، أجابته قائلة:

- أيوة يا شريف.
- سألها في حماس: ها عملتي إيه مع فريدة؟
- ولا حاجة، زي ما توقّعت بالظبط، طلّعِت عيني طبعًا.
- طيب ووصلتي معاها لإيه في الآخر؟
- قالتلي ربنا يسهّل، بس أعتقد إنها حاتبدأ تشاور عقلها، بيني وبينك حسّيتها عايزة تشوف أدهم، أصل انت ماشوفتش، دي

كانت رافضة تمامًا، وأول ما قولتلها إنه معزوم فضلت تسألني عليه، وحسيت كدة إنها بدأت تفكر.

- مُتخيّل، لما أشوف أدهم بقى حايعمل فيّا إيه، تفتكري حاتفرق معاه لو قولتله إن فريدة عايزة تشوفه؟
- مش عارفة، انت روحتله؟
- أنا تحت بيته أهو طالع، ربنا يستر بقى.
- طيب كلّمني لما تنزل من عنده.
- ماشي حاكلمِك، مع السلامة.

أدهم

أخرج شريف مفتاح شقة أدهم من جيبه، وهمّ ليفتح الباب في قلق، فقد كان أعطاه الأخير والذي يسكن بمفرده مفتاح الشقة؛ لعله يحتاج إليه في حالة حدوث أي أمر طارئ، دخل شريف وأخذ ينادي أدهم باحثًا عنه في كل أرجاء المنزل، حتى وجده مستلقيًا على الأريكة بغرفة المعيشة، فصاح به قائلًا:

- حرام عليك يا أخي، عمّال أكلمك، تليفونك مقفول وتليفون البيت مش بترد عليه.
- نظر أدهم إلى هاتفه، ثم أجاب قائلًا: الموبايل فصل، معلش ماخدتش بالي.
- طيب وتليفون البيت؟
- شِلت الفيشة، أمي كانت بتحاول تكلمني، وأنا ماعنديش طاقة للمناهدة معاها بصراحة.

أخذ يتأمل شريف الفوضى التي حوله، أكواب القهوة الفارغة، المطفأة المملوءة بأعقاب السجائر، والأطباق التي لم تخلُ من بقايا الطعام، ثم نظر إلى أدهم، وإلى عينيه المحمرتين اللتان يحيط بهما السواد، وجلس بجانبه يسأله قائلًا:

- إيه الزريبة اللي انت قاعد فيها دي؟

- الست اللي بتنضف مجاتش.
- طيب وإيه منظرك ده؟ ما بتجيش الشغل ليه بقالك يومين؟
- مش قادر يا شريف، أنا ما بنامش.
- طبعًا، ماهو من جردل القهوة اللي عمّال تشربه واحد ورا التاني.
- أنا بشرب القهوة عشان مانامش، أنا خايف أنام.
- ليه إن شاء الله؟
- كوابيس، كوابيس مش عايزة تسيبني كل ما أدخل أنام، بحلم إن داليا ونادر وعلاء نازلين فيّا ضرب لحد ما أبقى حاموت في إيدهم، بصحى وأنا حاسس إن روحي بتطلع، ومن ساعتها وأنا عمال أشرب في قهوة عشان مانامش.

أشار إلى سلة المهملات التي كانت قد برزت منها دعوة فرح "رشا"، ثم أكمل قائلًا:

كله من الدعوة الزفت دي، رجّعتني ست سنين لوَرا.

- يا سلام؟ كل ده من حتة دعوة؟
- نظر له أدهم في حنق قائلًا: وانت مستهون بالدعوة دي؟ ليه انت مش عارف أنا لو روحت حاشوف مين هناك؟
- مين يعني؟ كل صحابنا بتوع زمان.
- صحابنا آه، صحابنا اللي لما حايشوفوني نصّهم حايفضل يجيبلي في سيرة اللي حصل عشان يوروني همّا بقوا فين وأنا بقيت فين، والنص التاني لو متكلموش بلسانهم، عينيهم حاتنطق، حايبان فيها

الشفقة، لإنهم مش حايشوفوا فيّا غير العكاز اللي في إيدي، ورجلي اللي بعرج بيها.

– مش حقيقي، انت عارف إن كلهم بيحبوك.

تنهد شريف ثم أكمل قائلًا: مشكلتك يا أدهم إنك فاكر إن كل الناس زيك، بيصحوا كل يوم مفيش في دماغهم ولا ليهم سيرة غير اللي حصل من ست سنين، بس الحقيقة بقى إنهم مش فاكرين أصلًا همّا أكلوا إيه امبارح، كل واحد فيهم بقى عنده حياته ومشاغله ومشاكله، محدّش بقى فايق لحد، صدّقني محدش فاكر اللي حصل ولا واقف عنده غيرك، سيب نفسك واطلع من القمقم اللي انت حابس نفسك فيه ده، سنين وانت بتعاقب نفسك، سنين وانت كل يوم بتلوم نفسك وتعذبها يمكن تتطهر من ذنبك، خلاص بقى، انسى وسامح نفسك، ده ربنا بيسامح يا أخي.

– مش مهم أنا أسامح نفسي، المهم ربنا يسامحني.

– حايسامحك، مش بيقولوا ربنا رب قلوب؟ وانت مفيش أطيب من قلبك يا أدهم، صدقني.

– ماشي، بس برضو مش حاقدر أروح الفرح.

– تصدّق إنك بارد؟ يعني أنا عمّال أهاتي معاك كل ده وفي الآخر تقولّي كدة؟ يا سيدي أنا نفسي أروح وعايزك تيجي معايا، ده أول طلب أطلبه منك، خلّي عند أهلك دم.

– ومين قالّك إن أهلي عندهم دم؟ هو لو كان عندهم دم كانوا رموني الرمية دي؟

- قال شريف متداركًا خطأه: أنا آسف، مكنتش أقصد.
- أجابه أدهم بلا مبالاة: ولّا تقصد، ما همّا فعلًا ما عندهمش دم، قولّي كدة مين فيهم عنده دم؟ أبويا اللي راح اتجوز وخلف ونساني، ولا أمي اللي اتجوزت وسافرت، وكل يوم مع جوزها في بلد شكل؟ الاتنين رموني لجدتي الست الكبيرة ونسوا إن ليهم ابن، كام سنة وجدتي ماتت وبقيت عايش لوحدي، عيل عنده ١٩ سنة عايش لوحده، متوقعين منه إيه؟ ده حتى اللي حصلّي ماهزّش فيهم شعرة.
- قاطعه شريف قائلًا: لأ يا أدهم حرام عليك، دي طنط جاتلك جري، وأنكل سفّرك أحسن مستشفى في أوروبا.
- ضحك أدهم ضحكته الساخرة، ثم قال: انت مصدّق نفسك بجد يا شريف ولا بتقول كدة بس عشان تخفّف عني؟ أمي اللي انت بتتكلم عنها دي جاتلي بالظبط ثلاث أيام وسافرت، كإني قايم من دور برد مش حادثة كنت حاموت فيها، حتى أبويا، اوعى تكون فاكر إنه سفّرني عشان مصلحتي، أبويا سفّرني عشان كان خايف من الفضيحة، كان خايف يتعرف إن ابن معالي الوزير مدمن، بيضرب مخدرات.

صمت برهة ثم أكمل بصوت متهدج، وقد غلبته دموعه قائلًا: تِعرَف، والله ولاده دول صعبانين عليا، أكيد فخورين بيه، ما يعرفوش إنه أبشع أب في الدنيا، أنا بس اللي عارف حقيقته، هو فاكر إن هو اللي المفروض يتكسف مني، بس الحقيقة بقى إن أنا اللي ما يشرفنيش إنه يكون أبويا،

عشان كل اللي أنا وصلتله ده هو السبب فيه، عمري ما حاسامحه لا هو ولا أمي.

- وضع شريف يده فوق كتف أدهم، ثم قال: طيب مالك بس، غمّقتها كدة ليه؟
- قال أدهم وهو يجفف دموعه بيده كطفل صغير قائلًا: يا عم هي غامقة طول عمرها، بجد يا شريف أنا مش عارف من غيرَك كان ممكن يحصلّي إيه، وقفت جنبي ومن ساعة اللي حصل ماسيبتنيش يوم، حتى شركة أبوك شغّلتني فيها.
- ما تقولش كدة يا عم، انت أخويا.
- قال أدهم وهو يبتسم: لا والله يا شريف، انت حسستني إني لسة ليا أهل، لدرجة إني بفكر أقولك يا بابا.
- انفجر كلٌ منهما ضاحكًا، ثم أمسك شريف بيد أدهم وجذبه لينهض قائلًا: طيب يلّا قوم نبُص على بدلة في دولابك، لما نشوف حاتلبس إيه في الفرح.
- نفض أدهم يده من يد شريف وقال: فرح إيه يا شريف؟ أنا مش رايح في حتة.
- يووووه، ليه بس؟
- هي سلمى رايحة؟
- آه.
- ولما هي رايحة، انت عايز مني إيه؟ مش فاهم إيه سر إصرارك ده بجد.

- قال شريف مباغتًا، وهو يفتح دولاب أدهم باحثًا عن الزي المناسب لحفل الزفاف: ما هو سلمى مش رايحة لوحدها، فريدة رايحة معاها.
- اتسعت عينا أدهم الذي جذب شريف من يده ليلتفت له ويسأله في لهفة: فريدة رايحة؟؟
- هز شريف رأسه بالإيجاب وابتسم لِما رآه على وجه صديقه، فإنه لم يَعُد يتذكر متى كانت آخر مرة يرى عينيه تلمع هكذا، ولكن سرعان ما طأطأ أدهم رأسه، وانطفأ وهج عيناه، ثم قال: بس هي أكيد مش حاتكون عايزة تشوفني بعد اللي أنا عملته فيها في المستشفى.
- اتسعت إبتسامة شريف أكثر، وقد أدرك أنه وصل إلى مبتغاه، وقال: ولو قولتلك إنها عايزة تشوفك؟
- بجد؟ إيش عرّفك؟ انت شوفتها؟
- لأ، بس سلمى قالتلي إنها أول ما جابتلها سيرتك فضلت تسألها عليك، وحسّت إنها بدأت تشاور عقلها في موضوع الفرح بعد ما كانت رافضة تمامًا.

أمسك شريف بإحدى بِدَل أدهم، ثم أخرجها من الدولاب، وأشار له قائلًا: بيتهيألي دي حاتبقى كويسة مش كدة؟

فما كان لأدهم سوى أن جذبها من يده، وهو يبتسم لشريف الذي نجح في إقناعه، قائلًا في استسلام: كويسة.

داليا

جلست داليا بجانب زوجها الذي كان يشاهد أحد أفلام الأكشن الأجنبية بمنتهى التركيز، وبيده طبق الفشار الذي أخذ يلتهم منه واحدة تلو الأخرى دون وعي، أخذت داليا تفكّر مليًّا، لا تعلم كيف تبدأ كلامها مع زوجها، ولا بِمَ تبرر له عدم رغبتها في حضور حفل الزفاف، استجمعت شجاعتها، ثم تنحنحت قائلة:

- محمد.
- أجابها دون أن يلتفت إليها: نعم.
- أنا مش عايزة أروح الفرح.
- ليه؟
- ده فرح مش إسلامي، وأنا جو الرقص والغُنا والكلام الفاضي ده مابقيتش بحس إني مرتاحة فيه.
- لأ يا داليا مش للدرجة دي، احنا آه بقينا بنفضّل الأفراح الإسلامية، بس برضو دي مجاملات، ما يصحّش إننا مانعملش اعتبار للناس اللي قدّرتنا، وبعدين دي صدفة حلوة أوي، العريس معايا في الشغل، والعروسة تطلع كانت صاحبتك من أيام المدرسة.
- قالت داليا في شرود: فعلًا صدفة حلوة.

- صحيح هو انتِ ليه عمرك ما جبتيلي سيرة صحابك بتوع المدرسة دول؟
- عادي، مجاتش مناسبة.
- انتِ ما كنتيش عازمة العروسة في فرحنا مش كدة؟
- لأ، أصلنا مش على اتصال من فترة طويلة.
- طيب شوفتي بقى، ده سبب أدعي إننا نروح، ذوق برضو منها إنها عزمتك وانتِ ماكنتيش عازماها.
- يعني انت مُصِر إننا نروح؟
- مش مسألة إصرار، بس أنا بحب زي ما الناس بتحترمني، أحترمهم.

أكمل وهو يمسك بيدها، وينظر إليها بحنان قائلًا: ده غير إني مش بحب أروح حتة من غيرِك.

- ابتسمت له وهي تفكر كيف تنجو من هذا المأزق، ثم قالت في قلة حيلة: خلاص اللي تشوفه.

شيرين

دخلت شيرين إلى غرفة ابنها النائم لتتفقده، جلست إلى جانبه وأخذت تتحسس شعره الناعم، وتمسك بأنامله الدقيقة، ثم ما لبثت أن بدأت تشعر بالنعاس يتغلّب عليها، حتى انزلقت إلى جانب طفلها بسريره، ضمّته إليها، ثم راحت في سُبات عميق، لم تَفِق من نومها سوى على صوت زوجها وهو يهزّها قائلًا:

- قومي يا شيرين.
- فتحت عينيها ببطء وصعوبة، ثم نظرت له قائلة: انت جيت يا عمرو؟ هي الساعة بقت كام؟
- واحدة ونص.
- وإيه اللي أخّرك كل ده؟
- كنت مع جماعة صحابي، قومي عشان ما تصحّيش الولد.

نهضت شيرين من نومها، ثم خرجت خلف زوجها بخطواتها المتثاقلة، وبطنها المنفوخ متّجِهة نحو غرفتهما، جلست فوق سريرها وقد انزلقت مرة أخرى لتكمل نومها، ولكن زوجها استوقفها قائلًا:

- استني، شوفتي دي؟

مد يده إليها معطيًا إياها بطاقة الدعوة لحفل الزفاف نفسه، أخذت تقلّبها يمينًا ويسارًا، وهي تسأله مستفهمة: إيه دي؟

- دي دعوة فرح "رشا".
- رشا مين؟؟
- رشا الحسيني.
- ياه، ودي إيه اللي فكّرها بينا؟
- مش عارف، هي غريبة فعلًا.
- والدعوة دي وصلتلك ازاي أصلًا؟
- بعتتها عالبيت عند أهلي.
- عند أهلك؟ وهي تعرف البيت منين؟
- انتِ ناسية إنها كانت بتاخد معانا درس فرنساوي في بيتي واحنا في تانية ثانوي؟ أكيد فاكراه من ساعتها.
- يمكن، هو يوم ١٨ ده حايطلع يوم إيه في الأسبوع؟
- خميس.
- كويس، عشان أعرف أسيب الولد عند ماما.
- ولد إيه وماما إيه؟ انتِ فاكرة إننا حانروح الفرح ده؟
- ومانروحش ليه؟
- لأ طبعًا.
- لأ ليه؟
- عشان احنا بالمقارنة ببقية الشلة القديمة ماكنّاش من أقرب الناس ليها، عارفة ده معناه إيه؟
- قالت بنفاذ صبر: إيه؟
- إنها مش عازمانا احنا بس، دي أكيد عازماهم كلهم.

- وإيه المشكلة في كدة؟
- المشكلة إني مش حابب نكون موجودين معاهم في مكان واحد.
- اعتدلت شيرين في جلستها، وقالت: ليه بقى إن شاء الله؟
- ليه إيه؟ انتِ ناسية اللي حصل زمان؟ ناسية الكلام اللي كل واحد فيهم سَم بدنّا بيه؟ أنا مش مستعد نروح نِحرِج نفسنا قدام الناس.
- ارتفع صوت شيرين الذي بدأ يحتد قليلًا، قائلة: قصدك قُدامها، مش قُدّام الناس.
- تقصدي إيه؟
- قصدي واضح، قول بقى إنك مكسوف إنها تشوفني معاك، ولا يمكن خايف تحنّلها تاني.
- إيه الهبل اللي انتِ بتقوليه ده؟
- ده مش هبل، دي الحقيقة، الحقيقة اللي بقالي سنين مصهينة عليها، احنا بقالنا دلوقتي ٥ سنين متجوزين، تقدر تقولّي مين صحابنا، بنشوف مين غير أهلنا والناس اللي معانا في الشغل، بلاش، تقدر تقولّي إيه آخر مناسبة روحناها سوا؟ طبعًا مفيش، عشان انت من يوم ما اتجوزنا وانت مخبّيني زي ما أكون غلطة مكسوف منها ولا واحدة متجوزها في السر، أنا مراتك قدام الناس كلها، أم ابنك اللي نايم جوة، والتاني اللي جاي في السكة، وإن كنت فاكرني ساكتة عشان قابلة تبقى غلطان، أنا ساكتة من زمان ولسة بسكت على حاجات كتير بافوّتها بمزاجي، بس ده مش عشان

خاطرك، ده عشان خاطر بيتي وولادي، وإن كنت بقالي كتير باجي على كرامتي، فمن هنا ورايح مش حاجي عليها تاني.

- يعني إيه الكلام ده؟
- تنهدت شيرين، ثم نظرت له متحدّية وهي تقول: يعني الفرح ده في كفّة، وجوازنا في كفّة يا عمرو.

الحفلة

في هذه الليلة، لم يَنَم أيّ منهم، فقد أعادتهم بطاقة الدعوة إلى ست سنوات مضت، وإلى تلك الليلة المشؤومة التي انقلبت فيها حياة كلٍ منهم رأسًا على عقب.

***

العجمي ١٩٩٦

كان والد سلمى يجلس برفقة الشباب في حديقة الفيلا، بينما كانت والدتها توزّع المهام على الفتيات، شيرين وداليا تساعداها في إعادة ترتيب مائدة الطعام بعد انتهاءهم من وجبة الغداء، أما سلمى وفريدة، فيَقُمن بترتيب المطبخ وإعداد الشاي، وقفت كلٌ من سلمى وفريدة تتهامسان، بينما تقومان بالمهام المُسنَدة إليهم.

- فريدة: أنا عايزة أفهم، انتِ إيه اللي خلاكِ تعزمي أدهم؟
- نظرت لها سلمى متعجبة: إيه الغريب في كدة، وأنا من إمتى ماكنتش باعزمه؟
- فريدة: إزاي تدخّليه بيتك بعد اللي عرفناه عنه؟
- سلمى: انتِ اللي بتقولي كدة يا فريدة، وانتِ طول عمرك أقرب واحدة ليه وأكتر واحدة عارفة الظروف اللي عدى بيها؟

- فريدة: غصب عني، مش قادرة أتقبّل اللي عرفته، أنا مابقتش بارتاح في وجوده، حتى عمرو، بيقول إن أدهم بقى بيتعامل معاه بطريقة غريبة، وكمان نادر وعلاء ماشيين وراه من غير تفكير، لحد ما حايضيعهم زي ما ضيّع نفسه.
- سلمى: والله أدهم ده مفيش أغلب منه، ادعيله ربنا ينجيه من اللي هو فيه.
- فريدة: ربنا يهدي، المهم سيبِك من الكلام ده وقوليلي.

ثم غمزت لها في مكر قائلة: إيه حكاية شريف بقى؟

لم تُجِبها سلمى، ولكن ابتسامتها ووجهها الذي احمر خجلًا كانا يحملان الإجابة.

كان شريف يجلس متململًا في مكانه، يتجاذب معهم أطراف الحديث تارة، ثم يسترق النظر نحو المطبخ تارة أخرى، ولكنه كان قد بدأ يشعر بالملل، فنهض من مكانه بعد أن نفذ صبره قائلًا:

- أنا حاجيب ماية، حد عايز حاجة؟
- والد سلمى: خليك يا حبيبي، يا سلمى..
- مفيش داعي يا أنكل، أنا حادخل أجيب.

دخل شريف متجهًا نحو المطبخ، وهو يفكر في حجّة مقنعة لدخوله، ولكن ما سمعه أفقده القدرة على التفكير، فقد كانت سلمى وفريدة تتهامسان بصوت خافت، ولكنه لم يسمع سوى صوت سلمى وهي تقول:

– ما ينفعش يا فريدة، عارفة يعني إيه أنا وشريف نبقى مع بعض؟ أهو ده بجد اللي يتقال عليه اتلم المتعوس على خايب الرجا.

لم تُجِبها فريدة، فقد جمدت مكانها حين التفتت لتجد شريف يقف أمامهما باهت الوجه، لا يعرف بِمَ ينطق، نظر إلى سلمى معاتبًا، ثم حاولت فريدة أن تسيطر على سوء الموقف، فقالت بصوت حاولت أن يخرج طبيعي وواثق:

– كنت عايز حاجة يا شريف؟

– قال وهو ما زال معلقًا بصره بسلمى التي ودَّت لو تبتلعها الأرض هربًا من عينيه اللائمة: عمو بيستعجل الشاي.

– فريدة: احنا جايين حالًا.

استدار شريف خارجًا من المطبخ، مطأطئ الرأس، ولكن استوقفته فريدة قائلة:

شريف، قول لداليا وشيرين يبدأوا يجهزوا، احنا حانشرب الشاي ونتحرّك، عشان نلحق نوصل الحفلة قبل الزحمة.

– حاضر.

في الطريق إلى الحفل، وعلى الرغم من حماس الجميع، ولهفتهم لرؤية عمرو دياب يغني على شاطئ الفردوس بالعجمي، وسماع رائعته الجديدة "نور العين"، إلا أن ثمة شيء مُبهَم فيما بينهم كان لا ينذر بالخير، أخذت فريدة تتجول بنظرها بين عمرو وأدهم متعجِّبة، فقد كانت تجهل سر تلك النظرات السامّة المتبادَلة بينهما، ثم حوّلت بصرها إلى كلٍ من شريف وسلمى، حيث كان شريف يرمقها بنظرات

غاضبة لترد عليه هي بعينين دامعتين تفيضان بالاعتذار والأسف، أما شيرين فقد بدت هادئة، شاردة على غير عادتها، على عكس داليا التي تعمّدت أن تبدو مُلفِتة كما تحب أن يراها نادر دائمًا، فقد ارتدت قميصًا ورديًا ربطته حول بطنها، وشورتًا ساخنًا يكشف عن ساقيها، أسدلت شعرها المجعّد فوق ظهرها، ووضعت ذلك القِرط الفضي ليزين أنفها، أما نادر وعلاء فقد كانا في وادٍ آخر، غير عابئين بالأجواء المشحونة، ولا التوتُّر الذي يسيطر على أغلبهم، اقتربت فريدة من شيرين، وربتت على كتفها قائلة:

- مالِك يا شيرين؟
- مالي؟
- مش عارفة حاسّة فيكِ حاجة متغيّرة، انتِ كويسة؟
- أنا كويسة ماتقلقيش.
- ماقلقش ازاي؟ هو أنا مش عارفاكِ؟ وبعدين احنا مش اخوات ولا إيه؟
- ابتسمت لها شيرين ابتسامة خافتة، ثم قالت: عندِك حق.
- عمومًا أنا مش حاضغط عليكِ، بس خلّيكِ عارفة إني جنبك، وإنك لو حبّيتي تحكيلي أي حاجة في أي وقت، حاكون دايمًا موجودة عشانك.
- ضحكت شيرين قائلة: ربنا يخليكِ ليا.

بدأ الحفل، وصعد عمرو دياب فوق المسرح، مرتديًا قميصًا وشورتًا باللون الأبيض، ومن ثمّ تعالت الصيحات والهتافات، أخذ يغني

والجمهور يصفّق ويغني معه في حالة استمتاع بالموسيقى والأغاني، فجميع الشباب مولعون بأغنيات عمرو دياب، ربما لأنها تأتي دائمًا بنكهة صيفية، تحمل نسيم الليل ورائحة البحر، ورقة بدايات قصص الحب الأولى، مما أضفى على الأجواء بهجة، وحماسًا، ونشوى استثنائية.

وقف الأصدقاء يرقصون مندمجين مع صخب الأغنيات التي نجحت بعض الشيء في تشتيت الأفكار التي كانت تسيطر على كلٍ منهم قبل الحفل، ما لبثت فريدة أن استمعت إلى عمرو دياب وهو يغني "نعشق القمر" حتى صاحت فرِحة قائلة:

- ياه فاكرين الأغنية دي، فضلنا نغنيها طول السكة واحنا راجعين من رحلة الأقصر وأسوان بتاعة ثانوي لحد ما كلنا صوتنا راح، كانت لسة جديدة أيامها.

أكملَت وهي تتشبث بذراع عمرو، وتنظر له بحب قائلة: وأنا وعمرو كنا لسة بنبدأ يبقى في حاجة بيننا.

ابتسم عمرو إثر كلماتها ابتسامة متحفِّظة، بينما لم يستطِع أدهم أن يتمالك نفسه، لتفلت منه ضحكة عالية ويقهقه ساخرًا، فقد كان مفعول زجاجة "البيرة" التي اقتسمها بينه وبين علاء ونادر في الطريق إلى الحفل بدأ يظهر عليه، رمقته فريدة بنظرة حادة ثم أدارت وجهها عنه وبدأت تغني، ويغني أصدقائها معها:

"نعشق القمر لما يجمع الصحاب لما
نبكي لو يفرّقنا نفرح لو نكون لمّة

يطلع القمر لينا يلمع ضيّه في عينينا
يسمع همس أغانينا يفرح لو تبسّمنا
بِدِك طب ما أنا بدّي يدّك دايبة في يدّي
مِدّي الخُطا مدّي عدّي لشط أحلامنا
يا أم العيون كحلى نمشي والطريق يحلى
رحلة بعدها رحلة نرسى والشطوط ضمّة
مدي للهوى قلوعي ده انتِ غربتي ورجوعي
خلّي قلبي في ضلوعي يفرح باللقا لما"

أخذ الأصدقاء يغنون هذه الأغنية التي كانت تحمل لهم الكثير من ذكريات الدراسة الجميلة التي جمعتهم سويًا، ظلّوا يتراقصون، بينما كان علاء يترنّح تحت تأثير الخمر، أما نادر فقد كان يتمايل على النغمات وقد ضم داليا إلى صدره وأخذ يغني لها بصوت خفيض وهو ينظر بعينيها مباشرة، مما جعلها تشعر وكأن ليس بالحفل سواهما، وأن عمرو دياب يغني من أجلهما فقط.

كان الحفل قد أوشك على الانتهاء حين أمسكت شيرين برأسها متألمة وقالت:

- أنا راسي حاتنفجر، مش قادرة.
- فريدة: مالك يا شيرين؟
- شيرين: مصدّعة أوي، عايزة أرجع الفيلا.
- فريدة: خُدي مُسكِّن حاتبقى كويسة.
- شيرين: لأ معلش أنا تعبانة وعايزة أنام.

- فريدة: يعني مش حاتخرجي تتعشي معانا؟
- شيرين: لأ، أخرجوا انتوا، بس حاولوا ماتتأخروش عشان عايزين نتحرك بكرة بدري.
- فريدة: طيب وصّلها يا عمرو.

حدّقت شيرين بفريدة في حَرَج، ففهمت الثانية ما أرادت أن تقول، وأكملت قائلة:

- إيه يا بنتي ده أخوكِ، يعني عايزاني أسيبك تروّحي لوحدك في وقت زي ده؟

ابتسمت لها شيرينُ ممتنّة، ثم رحلت برفقة عمرو دون أن تصافح أصدقائها، أو تنطق بكلمة واحدة.

انتهى الحفل، ووقف جميعهم يتناقشون حول إلى أين سيتجّهون، وأيّ مكان سيتناولون فيه وجبة العشاء، فبالنسبة لهم كانت السهرة ما زالت بأولها، كان ذلك حين اقترب أدهم من فريدة وهمس لها قائلًا:

- عايزِك.
- نعم؟
- عايز أتكلم معاكِ.
- تأففت قائلة: بخصوص إيه؟
- ارتفع صوت أدهم قائلا: في إيه يا فريدة هو أنا حاكلِك؟؟

شعرَت فريدة بمدى سخافتها، وإحراجها لأدهم، فسارت خطوات قليلة لتبتعد عن أصدقائها، تبِعَها أدهم، ثم وقفت أمامه وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها، وقالت بنفاذ صبر: أفندم.

- أخذ أدهم نفسًا طويلًا من سيجارته العالقة بين شفتيه، ثم قال ببرود: قوليلي يا فريدة، هو انتِ إمتى بقيتي غبية كدة؟
- اتسعت عيناها في غضب، وارتفع صوتها قائلة: هي مين دي اللي غبية؟؟ ما تتكلم كويس.
- ابتسم أدهم بنفس البرود قائلًا: انتِ اللي غبية يا فريدة، وغبية أوي كمان، لما تبعتي عمرو بنفسك عشان يوصّل شيرين، تبقي غبية.
- وإيه الغباء في كدة؟ شيرين دي طول عمرها زي أختي، وعمرو خطيبي وكلها كام شهر ويبقى جوزي، حاخاف على جوزي من أختي؟
- آه تخافي، عشان اللي انتِ ماتعرفيهوش إنهم فعلًا مع بعض، وإنهم بقالهم فترة بيستغفلوكِ، وانتِ نايمة على ودانك.
- قالت بنبرة حادة: أنا ماسمحلكش تتكلم عنهم بالطريقة دي، مين دول اللي بيستغفلوني؟ عمرو وشيرين؟ انت اتجننت ولا اللي انت شاربه لَحَس مُخّك؟
- وأنا مالي، خليكِ كدة لحد أما تلاقيه جايبها في بيتِك.
- صاحت به قائلة: انت قليل الأدب.
- أبقى قليل الأدب أحسن ما أبقى غبي وحمار زيّك، أنا غلطان إني خايف عليكِ ومش قادر أشوف حد بيإذيكِ، وأنا واقف أتفرّج.
- لم تتمالك فريدة نفسها، فقد استفزّها لدرجة جعلتها تُخرِج ما في جعبتها له قائلة: خاف على نفسك الأول من الهباب اللي انت بتشربه، ولا انت فاكرني مش عارفة؟ كل الناس بقِت عارفة انت

بتعمل إيه، ماسألتش نفسك ليه كل الناس بقت بتتهرب منك بعد ما كانوا كلهم صحابك وبيحبّوك؟ بس حاجة طبيعية برضو، ما هو من واحد بيحفظ قرآن وبيصلّي الفرض بفرضه والناس كلها بتحلف بأدبه وأخلاقه، لواحد مش بس ما بيركعهاش، ده حشّاش وسُكَري ومدمن كمان، متوقِّع إيه يعني؟ طبعًا لازم يخافوا منك، ولسة طول ما انت ماشي في السكة دي حاتفضل الناس كلها تبعد عنك، لحد ما تبقى لوحدك، وماتلاقيش حد يبُص في وشّك.

انتهت من كلماتها، وظلّت محدِّقة به في انتظار ردّه عليها، لعله يبرّر أو ينفي، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة، فقد كان يقِف أمامها كسيرًا، وسيلًا من الدموع ينهال من عينيه، وقفت تتأمله غير مُصدَّقة ما آل إليه حاله إثر كلماتها، فهي لم ترَه كذلك من قبل، حتى بعد انفصال والديه، أو وفاة جدته التي كانت بمثابة أمه، ودّت آنذاك لو استطاعت أن تمحي من ذاكرته كل كلمة قالتها، ولكن هكذا هي الكلمات، تخرج كالرصاص الطائش، وإن أصابت ما من رادٍ لها، وما من شيء يمكنه تضميد الجرح أو إيقاف النزيف الذي أحدثته.

لم تستطِع فريدة أن تنظر بعينيه اللتان كساهما الدمع أكثر من ذلك، حتى لا ترى فيهما ذنبها الذي اقترفته بحقه، فما كان لها سوى أن فرّت هاربة، لتدير سيارتها وتنطلق عائدة إلى الفيلا.

عندما وصلَت كان قد أنهكها التَعَب وشعرت برأسها يؤلمها إثر النقاش السخيف الذي احتد بينها وبين أدهم، ودَّت لو تَمُر بغرفة شيرين لتطمئن

عليها، وتسألها إن كان ما زال لديها بعض أقراص المُسكِّن الذي تناولته لتعطيها إياه، ولكن ثمة صوت سمعته جعلها تنسى ما كانت تفكر به، فقد كان يتردد على مسامعها صوت بكاء قادم من الحديقة الخلفية للفيلا، كادت أن تتجاهله، ولكنها لم تستطِع أن تقاوم فضولها، تسللت خفية دون أن تصدر صوتًا؛ حتى لا تسبب إحراجًا لذلك الشخص الذي انتهز فرصة وحدته وغياب الجميع ليطلق سراح الألم الذي يضيق به صدره.

اقتربت فريدة أكثر من مصدر الصوت، وأطلّت برأسها قليلًا لترى مَن الباكي، ولكنها ما لبثت أن نظرَت، حتى جمدت مكانها واتسعت عيناها في ذهول، فقد كان عمرو يضُم شيرين إلى صدره وهي تبكي قائلة:

- مش قادرة أستحمل يا عمرو، احنا بقالنا سنة على الحال ده، سنة وأنا شايفاك قصاد عيني وانت معاها وهي بتحبّك، لأ وكمان باعتاك توّصلني، وقبلها بشوية تقولّي انتِ أختي، أنا وصلت لمرحلة إني بدأت أكره نفسي، ثقتها فينا دي قاتلاني، ومش عارفة آخرتها إيه، بس كل اللي أعرفه إني مش عارفة أبطّل أحبَك ولا حاقدر أعيش من غيرَك.
- أنا عارف يا شيرين، بس معلش استحملي يا حبيبتي، هانِت، أنا عارف إنك صبرتي معايا كتير، بس أنا كل ما آجي عايز أفاتحها في موضوع إننا نسيب بعض، حبها واحتياجها ليا بيخلوها تصعب عليا، وأبقى مش عارف أنطق بوَلا كلمة، بس أوعِدِك إني أمهِّدلها للموضوع ده في أقرب فرصة.

كان ذلك حين اقتربَت منهم فريدة التي ما لبثا أن رآها حتى انتفضا ذعرًا، وهبّا واقفيْن وقد ابتعدا عن بعضهما بعد أن كانا متلاصقيْن، نظرَت لهما بعينين تفيضان بالدموع ويملأهما الألم والصدمة، فقد كانت ترتجف بمكانها، وساقاها لا تقويان على حملها، اقتربَت منهما أكثر وكأنها توَد أن تتحقَّق من أن ما تراه أمامها حقيقيًا، وليس بكابوس أو تهيؤات من نسج خيالها، استجمعت قواها الخائرة، وقالت بصوت متهدِّج يصعُب فهمه ويقطعه أنينها:

- صعبانة عليك؟ أنا؟ بعد ثمان سنين بقى كل اللي بيني وبينك بس إني صعبانة عليك؟ عمومًا أنا جيت أسهّلها عليك عشان مصعبش عليك تاني.
- شيرين: فريدة أنا...
- قاطعتها فريدة بحِدّة قائلة: بس، مش قادرة أسمع صوتِك، أصلًا مابقاش في حاجة تتقال، كفاية أوي اللي سمعته.

كان ذلك حين خلعت خاتم خُطبتِها وألقته بوجه عمرو، ثم فرّت هاربة متجهة خارج الفيلا، بينما كان صوت نحيبها العالق بآذانهما كافيًا ليجلدهما بسياط الخزي وتأنيب الضمير.

همّت فريدة لتركب سيارتها، ولكنها فاجأها شريف وسلمى اللذان جاءا يهرولان تجاهها وقد أربكهما بكاءها وشكلها المزري، ليسألاها بقلق واضح:

- في إيه؟ هو إيه اللي حصل؟؟

- قالت باكية: أدهم فين؟
- سلمى: فهميني يا فريدة إيه اللي حصل؟
- صرخت فريدة قائلة: بقولّك أدهم فين؟
- سلمى: رجع القاهرة، لما خلّص كلام معاكِ كان شكله مش طبيعي، قالّنا إنه راجع القاهرة دلوقتي، وسألنا مين عايز ييجي معاه، علاء ونادر خافوا يسيبوه يرجع لوحده وهو في الحالة دي، فركبوا معاه، حتى داليا، لما لقِت الموضوع كدة، قلقت على نادر من سواقة أدهم، فرجعِت معاهم، فهميني بس حصل إيه لكل ده؟

لم تُجِبها فريدة، بل ركبت سيارتها، وأغلقت بابها، وقد عزمت على أن تتجه للقاهرة، فقد كان كل ما يسيطر عليها آنذاك هو رغبتها في اللحاق بأدهم لتعتذر له عمّا بدر منها في حقّه، كيف جرأت أن تتفوه بهذه الكلمات المسمومة وتجرحه بهذه الدرجة! كيف وهو صديق عمرها وطفولتها منذ أن كانا في الثامنة من عمرهما، لقد كان أدهم مُحِقًا في كل كلمة قالها، نعم، إنها غبية، كيف لم تلحظ تغيّرهما، كيف تمكّن أدهم من اكتشاف ما بينهما، ولم تستطِع هي! أخذت تراجع تصرفاتهما في الآونة الأخيرة، تحفُّظ عمرو في تعامله معها، شرود شيرين ومزاجها المتقلّب، النظرات المختلَسة بينهما، ورغبة عمرو في أن ترافقهما شيرين دائمًا، لقد كانت تلحظ فريدة كل شيء، ولكن لم يخطر ببالها ولو للحظة أن تكون كل تلك الأحداث مرتبطة ببعضها البعض، وأن يكون عمرو على علاقة بشيرين، شيرين التي لطالما كانت أقرب

صديقاتها إليها، وأكثرهُن إئتمانًا على أسرارها وأدق تفاصيل حياتها، كم هي غبية حقًا!

في الطريق إلى القاهرة كانت الصور تتوالى أمام عينيّ فريدة، وكلما مر بذهنها ذكريات وتفاصيل أكثر، كلما ارتفع صوت بكاءها، وازداد نحيبها، ولكن لم يخرجها من متاهة ذكرياتها سوى ذلك الزحام الذي جعل طريق القاهرة الصحراوي يتوقّف تمامًا في الثالثة صباحًا، ازداد الزحام وطال الانتظار، فما كان لفريدة سوى أن خرجت من سيارتها، ووقفت على أطراف أصابعها، تحاول أن ترى سبب الزحام، ولكنها لم تفلح، سألت الرجل الذي كان قد خرج أيضًا من سيارته، ووقف بجانبها قائلة:

- هو في إيه؟ إيه الزحمة دي؟
- نظر إليها متعجبًا من هيئتها وعينيها المحمرتين، ثم قال وقد عاد لينظر إلى سبب الزحام قائلًا: حادثة.
- حد حصلّه حاجة؟
- بيقولوا شابّين تعيشي انتِ، وواحد وواحدة بين الحياة والموت، مش عارف أنا إيه الأهل اللي يسيبوا بنتهم تركب عربية في وقت زي ده مع تلات شُبّان، ولّا تلاقي أهلها ما يعرفوش عنها حاجة، يلّا ربنا يستر على ولايانا.

همّ ليركب سيارته متأففًا من الزحام، فقد كان كل ما يشغل باله آنذاك هو أن يعود ليستأنف طريقه الذي عطّله الحادث، وليس هؤلاء الضحايا أو ما سيَحِل بعائلاتهم إثر ما حدث، أما فريدة، فكادت كلمات الرجل

أن تفقدها عقلها، ثلاثة شباب وفتاة؟ أيُعقَل أن يكون هؤلاء الضحايا هم...؟ لا، لا مستحيل، مستحيل أن يعاقبها الله عقاب كهذا، مستحيل أن يحمّلها ذنب كلمات خرجت منها في لحظة غضب، لتكون هذه هي النتيجة، وتحيا هي ما تبقّى من عمرها تدفع ثمن كلماتها الطائشة، ثمن لن تستطيع سداده أبدًا، ولن يسمح ضميرها بإعفاءها منه مهما مرّت السنوات، حياة أصدقائها، أخذت تردد وهي تبكي وكل ذرة بجسدها ترتجف:

"ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به.. ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به".

لم تشعر بنفسها آنذاك إلا وهي تركض بكل ما كانت تملكه من قوة متجهة نحو الحادث، لعلها تؤكِد هواجسها، أو تنفيها، ويا ليتها استطاعت أن تنفيها!! فقد كان كل شيء جليّا أمامها لا يقبل الشك، فقد كانت هي، سيارة أدهم، أو بالأحرى حُطام سيارة أدهم، وقفت فريدة جامدة بمكانها، خائرة القوى، وساقاها بالكاد تحملاها، اقتربَت أكثر من موقع الحادث بقدمين مرتعشتين، وعينين زائغتين، لتتأمل السيارة التي انقلبت وضاعت معالمها، فتات الزجاج الذي تناثر فوق الأسفلت، والمقاعد الملطخة بالدماء، ولكنها لم تستطِع أن تتمالك نفسها، أو تتغلّب على ذلك الشعور بالغثيان الذي سيطر عليها عندما رأت رجليّ الإسعاف يحملان جثتين كل منهما مغطاة بملاءة بيضاء ملطخة بالدماء، اندفعت نحوهما لترفع عنهما الغطاء وترى وجهيهما، ولكن نهرها رجل الإسعاف الذي دفعها قائلًا:

– انتِ بتعملي إيه؟

- قالت وهي تصرخ والدموع تهطل من عينيها بغزارة: سيبني، دول صحابي، جرالهم إيه؟ قولّي جرالهم إيه؟؟
- نظر إليها في أسف، ثم أجابها وهو يحمل هو وزميله الجثتين داخل سيارة الإسعاف: شدّي حيلك.
- هرولَت نحوه وهي تسأله بإلحاح وصوت مرتعش بين نهنهاتها قائلة: طيب مين فيهم؟؟ قولّي والنبي مين اللي مات؟

كان ذلك حين جاء رجلا إسعاف آخرين يحملان داليا وأدهم، وقد كسَت الدماء وجهيهما، وتفرّقت الجروح في أنحاء جسديهما، لتدرك أن الجثّتين كانتا لنادر وعلاء، أخذت تبكي وتصرخ بأسمائهم، وتردد وهي تقترب من جسد أدهم الغائب عن الوعي:

- سامحني يا أدهم، أنا السبب، أدهم، رُد عليا، ماتعملش فيا كدة أرجوك، قوم عشان خاطري، قوم وقولّي إنك مسامحني، أدهم..
- دفعها رجل الإسعاف برفق، ثم قال وهو يغلق باب السيارة ليتجهوا بالضحايا إلى أقرب مستشفى: ادعيلهم ربنا يلطُف بيهم.

لم تستطِع فريدة الوقوف أكثر من ذلك، فما كان لها سوى أن جلست على قارعة الطريق وقد غطّت وجهها بكفيّها وأخذت تبكي، ونحيبها يهز أرجاء الطريق ويخلع قلوب المارّة، اقترب منها بعض من شهِدوا الحادث محاولين تهدئتها ومساعدتها على النهوض، ولكن بتلك اللحظة كانت فريدة قد صمّت أذنيها عن كل ما حولها، لتسقط مغشيًا عليها، معلنة استسلامها لقواها الخائرة، وهروبها من ألمها الذي لم تكُن

تحتمل منه المزيد، ويكون ذلك هو آخر ما تذكره عن تلك الليلة المشؤومة.

اللقاء

القاهرة ٢٠٠٢

في تمام الساعة التاسعة مساءً كان الجميع على أهُبّة الاستعداد لحضور حفل الزفاف المنشود، فقد ذهبت سلمى لاصطحاب فريدة خوفًا من أن تعدُل عن قرارها الخاص بحضور الحفل، وبمجرد أن ركبت فريدة السيارة، نظرت إلى سلمى ذاهلة وابتسمت قائلة:

"إيه يا سلمى الجمال ده؟ كنتِ مخبية ده كله فين؟؟؟".

تمامًا كما فعل شريف حين انتهى أدهم من ارتداء بدلته وضبط ربطة عنقه، أخذ شريف خطوة إلى الخلف، ثم أخذ يتأمل شعر أدهم الذي هذّبه، وذقنه الحليقة، ورائحة العطر التي تفوح منه حتى بدا كنجوم السينما، وهو يفكر، تُرى كم عامًا قد مر منذ آخر مرة رأى صديقه بهذه الأناقة، لم يعُد يذكر، ولكنه لم يكن له آنذاك سوى أن اتسعت ابتسامته وقال: "والله زمان يا أدهم!"

على عكس داليا التي استسلمت لإلحاح زوجها وإصراره على أن ترافقه إلى حفل الزفاف، بعد أن استنفذت كل أعذارها ليعفيها من الحضور، وخصوصًا بعد أن تعهّد لها ألا يستغرق الأمر أكثر من ساعة، فما كان لها سوى أن أحكمت ربط حجابها فوق رأسها، وسارت تجر قدميها

خلف زوجها بخطى مرتجفة، مترددة، راجية من الله ألا يتعرّف عليها أحد؛ حتى لا ينفضح أمرها، أو لو كان بإمكانها أن ترتدي طاقية الإخفاء، لعلها تستطيع أن تختفي عن الأعين، وخصوصًا من كانواعلى علم بأمر الحادث برمّته.

أما شيرين، فارتدت فستانها ووضعت زينتها، وقد حاولت أن تبدو أنيقة قدر الإمكان حيث كانت في شهور حملها الأخيرة ثم خرجت من غرفتها تتعجل زوجها الذي كان يجلس أمام التلفاز، وما لبث أن استمع إلى نداءها حتى أغلقه، وهبَّ واقفًا وهو يزفر في ضيق، فقد أخبرها مرارًا أنه لا يرغب في الذهاب، ولكنها أرغمته على ذلك، وبالرغم من تصاعد الأمور بينهما، إلا أنها بمجرد أن وصلا إلى الفندق، حيث يقام الحفل، تأبطت ذراعه وسارت إلى جانبه بخطواتها الثقيلة وبطنها المنفوخ، وقد رسمت على وجهها ابتسامة زائفة، وكأنها قد ارتدت لتوّها قناع السعادة ليكسو وجهها ويبدل ملامحها، ولكن هكذا هي شيرين، تريد دائمًا أن تثبت لكل من يرونها برفقة عمرو أنهما أسعد زوجين، حتى وإن لم يَكُنا كذلك، لعلها تستمد من نظراتهم إليهما ولو للحظة متعة الإحساس بأنها حقًا سعيدة.

دلفت كلٌ من فريدة وسلمى إلى الحفل الذي كان قد بدأ بالفعل، كانت فريدة آنذاك تتلصص النظر خلسة إلى المدعوين، فقد كانت تخشى أن يذكر لها أحد زملائها القدامى، والذين لم تلتقِ بهم منذ سنوات أمر عمرو وشيرين، ذلك الأمر الذي أفقدها ثقتها بنفسها وجعلها تنعزل عن

الجميع، أما سلمى فقد كانت على العكس تمامًا، دخلَت إلى الحفل بخطى ثابتة وهي تنظر بعينيّ كل من تعرفهم بنظرات واثقة، مستمتعة بعلامات المفاجأة والانبهار التي أطلّت من أعينهم التي يملأها الفضول، فقد كانت آنذاك تختبر شعورًا لم يتثنّ لها أن تشعر به من قبل، وهو أن تسير بين الناس بمنتهى الثقة والأريحية، وهي تراهم يتأملون جمالها ويتحدثون عن رشاقتها، بعد أن كانوا يتأملونها إشفاقًا عليها من سمنتها، ووزنها الزائد، ولكن كل هذه الأفكار تبخّرت عندما التقت عيناها بعينيّ شريف، الذي ما لبث أن رآها حتى عدّل من هيأته وهبَّ واقفًا وهو يبتسم ليكون في استقبالها، أما هي فقد ضاعت في نظرات العشق التي كانت تفيض بها عينيه آنذاك، تلك النظرات التي كانت كافية لتغنيها عن نظرات العالم كافّة، ولتنسيها أمر فريدة التي كانت تقف خلفها باهتة، متوترة وهي تصافح أدهم، الذي كانت لتوّها قد التقت به لأول مرة منذ ستة أعوام، حاول كلٌ منهما جاهدًا أن يخفي تلك المشاعر المتضاربة التي كانت تسيطر عليه آنذاك من سعادة وألم، نفور وافتقاد، غضب وأسف، ليستجمع أدهم قواه، ويخرج صوته المبحوح مترددًا: ازيك يا فريدة؟

- كويسة، ازيك انت يا أدهم؟
- استند إلى عكازة ليعود ويجلس بمقعده قائلًا: ماشي الحال، زي ما انتِ شايفة.

نظرت فريدة بدورها إلى العكاز، وما كان لفريدة سوى أن ابتسمت له متحرّجة وصمتت، فقد كانت عاجزة عن إيجاد الكلمات المناسبة التي يمكنها أن تجيبه بها في ظل ما رأت.

مر الوقت وجميعهم جالسين برفقة بعضهم البعض، ولكن دون أن ينطق أي منهم بكلمة واحدة، فقد كان شريف منشغلًا عن الجميع وحتى عن أدهم نفسه بالنظر إلى سلمى التي بدت في عينيه الأجمل بين كل مدعوات الحفل، وهي تبادله نظرات الحب الخجولة، بينما كان كلٌ من فريدة وأدهم يسترقان النظر إلى بعضهما خلسة، وما تلبث أن تلتقي أعينهما حتى يبتسمان بحَرَج، ويعودا ليديرا نظرهما عن بعضهما مرة أخرى، ظلوا جميعًا على هذه الحال، حتى عزم شريف على أن يقطع الصمت، وتنحنح قائلًا:

– منورين والله.

كان ذلك حين فهم أدهم مقصد صديقه، وقال متحججًا:

– طيب أنا حاقوم أشرب سيجارة.

– نظرت له فريدة متفهّمة، ثم التفتت إلى سلمى وهي تنهض قائلة: أنا رايحة الحمّام، شوية وجاية يا سلمى.

حدّقت سلمى بفريدة وأمسكت بيدها، حتى لا تتركها بمفردها برفقة شريف، ولكن ما كان لفريدة سوى أن ابتسمت لها في خبث، ثم أفلتت يدها من يد سلمى واستدارت خارجة من القاعة، وقد أدركت أن شريف قد عزم على أن ينطق بما كان يجدر به أن يقوله منذ سنوات.

وقفت فريدة أمام المرآة تضبط شعرها، وتعدّل من زينتها متلكئة حتى تعطي شريف فرصته في الانفراد بسلمى، ولكن ما لبث أن انفتح باب المرحاض ونظرت بالمرآة إلى هذه المرأة التي كانت تقف خلفها حتى تسمّرت في مكانها، وسرَت قشعريرة بكل جسدها، أخذت تتأمل تلك المرأة بوجهها المُحمِر وعينيها الدامعتين، والتي كان باديًا عليها أنها قد انتهت لتوّها من البكاء، مستغلّة المرحاض لتستتر من أعين الناس وفضولهم، ثم نزلت ببصرها فاصطدمت عيناها ببطنها المنفوخ، لتعود وتنظر بعينيها مباشرة من خلال المرآة، نظرة كانت تحمل الكثير من المعاني بين صدمة وارتباك وغضب، نظرة أعادتها إلى كل ما حدث منذ ست سنوات، يوم لم تَكُن تملك من الجرأة ما يكفي للمواجهة، ولكن كان يبدو آنذاك أنه قد حان لها الوقت لتتصدى لخوفها، وتتغلّب على ألمها، لتقف وجهًا لوجه أمام من تسببت بهما منذ ستة أعوام، وتواجه شيرين لأول مرّة.

أخذت فريدة تتظاهر بالعبث بحقيبتها حتى تستطيع أن تسيطر على أعصابها، وتبدو أكثر ثباتًا، ثم أخرجت أحمر الشفاة الخاص بها، وبدأت تصبغ به شفتيها ببرود مُفتَعَل، فقد كانت آنذاك أشبه ببركان يبدو ساكنًا لكل من يشاهده، وما من أحد يلحظ الغليان الذي يكمن بداخله، ولا الحِمَم الملتهبة التي توشك على أن تتطاير منه لتحرق كل ما هو حولها، ولكنها كانت توَد أن تُظهِر لشيرين كم هي غير مبالية بوجودها،

وكأنها طيف غير مرئي، أو ربما غريبة لم تلتقِ بها من قبل، كان ذلك حين خرج صوت شيرين المختنق ببكاءها، وقالت مترددة:

- حاتصدقيني لو قولتلِك إنك وحشتيني يا فريدة؟
- ضحكت فريدة ضحكة عالية، لم تخلُ من سخرية واضحة من كلمات شيرين، ثم وضعت أحمر الشفاة بحقيبتها، واستدارت لتحدِّث شيرين لأول مرة منذ ما حدث وجهًا لوجه، وعينا بعين قائلة: وحشتِك؟ أنا؟ ليه ده أنا حتى سايبالك حاجة من ريحتي؛ عشان تفكّرِك بيا دايمًا، إيه مش كفاية؟
- أطرقت شيرين، ثم قالت بكبرياء كسير: معلش، ليكِ حق تقولي أكتر من كدة، ما هو أنا اللي عملت كدة في نفسي من الأول، وأنا برضو اللي حطّيت نفسي في الموقف ده دلوقتي، أنا بس كنت عايزة أقولّك اللي أنا حسّاه في اللحظة دي.

همّت فريدة لتقاطعها، ولكن شيرين لم تعطِها الفرصة، فقد كانت تعلم ما كانت توَد فريدة أن تقوله، لذا أكملت وكأنها تجيب على سؤالها الذي لم تكن طرحته بعد قائلة:

أنا عارفة انتِ شايفاني ازاي من غير ما تقولي، بس أنا مش جايّة أدافع عن نفسي، ولا أبررلِك حصل كدة ليه، أنا بس عايزاكِ تفهمي إني عمري ما قصدت أوجعِك، أنا بس ضعفت، ضعفت لما لقيته بيقرّبلي وأنا اللي عُمر حد ما أخد باله مني ولا فكَّر فيا، طول عمري وأنا عارفة إني مش أكتر من تابع ليكِ، زي سنيدة البطلة كدة، كل الولاد كانوا دايمًا بيعجَبوا بيكِ انتِ، كل البنات عايزة تتصاحب عليكِ، كل المدرسين بيحبوكِ

ويشكروا فيكِ، إنما أنا عُمر ما كان في حد شايفني، كإني كومبارس صامت، الناس كلها كانت عارفاني على إني شيرين صاحبة فريدة وبس، ازاي بعد كل ده مش عايزاني أضعف وهو كان أول واحد يقرّبلي ويحسسني إني مهمة؟ صدقيني انتِ لو كنتِ مكاني..

- قاطعتها فريدة بحِدّة قائلة: لأ أنا عُمري ما كنت حابقى مكانِك، عارفة ليه؟ عشان أنا مش خاينة، عشان مستحيل إني كنت أقبل على نفسي إني أعمل كدة في صاحبتي اللي دخلت بيتها وأكلت معاها عيش وملح، وأهلها كانوا زي أهلي وأكتر، وحتى لو كنت مكانك فعلًا وشايفة نفسي سنّيدة زي ما بتقولي، وده مش حقيقي، لو كان هو الراجل الوحيد على وجه الأرض اللي حبِّني، ماكنتش حاعمل اللي انتِ عملتيه ده، كنت حاهرب، حابعد، كنت حاعمل أي حاجة عشان ماسمحش لده إنه يحصل، عشان الخيانة لو كانت جاتلي من أي حد، حتى لو كان عمرو نفسه كوم، وإنها تجيلي منِك انتِ كانت كوم تاني خالص، وفّري على نفسِك الكلام يا شيرين لإنه مش حايغير حاجة.
- بدَت شيرين آنذاك وكأنها متَّهم ذليل، أصدر القاضي لتوّه حكمه عليه بالإعدام دون أن يستمع إلى دوافعه، قالت بصوت متهدج ودموعها تسقط لتحرق وجنتيها: أنا عارفة إن الكلام مش حايغيّر حاجة، قولتلِك أنا بس كنت عايزة أفهِّمِك وخلاص فهِّمتِك، وعمومًا ماتقلقيش، ربنا أخدلِك حقك مني تالت ومتلِّت، أنا كنت متخيلة إننا لما نيجي الفرح سوا حادخل بين الناس وأنا رافعة

راسي زي أي ست وهي ماشية مع جوزها، بس هو ماكدِّبش خبر، كإنه حالف يجيب مناخيري الأرض، جاله تليفون، طلع يتكلم برّة، وفجأة كلمني وقالّي إنه مشي عشان جاله مشوار مهم، وشوية وحايرجع ياخدني.

- وإيه المشكلة في كدة مش فاهمة؟
- المشكلة إنه راحلها.

اتسعت عينا فريدة في ذهول، لتكمل شيرين وقد أدركت ما يدور ببال فريدة:

- آه بيخونّي، بس هو غبي ما يعرفش إني عارفة كل حاجة، وإني ساكتة بس عشان ابني اللي نايم في البيت، والتاني اللي جاي في السكة، وعشان ماخربش بيتي بإيدي، بس تعرفي، أنا كمان غبية، غبية عشان كنت فاكرة إنه يوم ما اختارني، اختارني عشان حبِّني بجد، ماكنتش أعرف إنه زي ما عمل كدة في يوم من الأيام عشاني، حاييجي اليوم اللي يعمل فيا أنا كدة عشان واحدة تانية، مش بقولِّك؟ ارتاحي يا فريدة، كله اتردّلي في الآخر.
- أجابتها فريدة مباغتة: ما أنا مرتاحة، بس مش عشان كدة، عشان انتوا الاتنين مابقيتوش تفرقوا معايا أصلًا، وعايزة أقولِك على حاجة قبل ما أمشي، انتِ مش صعبانة عليا خالص، عارفة ليه؟ عشان انتوا الاتنين تستاهلوا بعض.

ما لبثت فريدة أن انتهت من كلماتها، حتى استدارت متجهة نحو الباب، لتصفقه خلفها بعنف، وتترك شيرين التي كان قد ارتفع صوت بكاءها، لألمها يعتصر قلبها، وندمها يلتهمها.

خرجَت فريدة مُسرِعة وجسدها ما زال ينتفِض، فقد حاولت قدر الإمكان أن تبدو ثابتة، ولكنها ما زالت لا تصدق أنها تعرّضت لموقف كهذا، وأنها قد انهت لتوّها حوارًا مع شيرين التي لم تلتقِ بها منذ ست سنوات، أخذت تتساءل تُرى من أين أتت بكل هذه القسوة؟ كيف لم ترحم شيرين وهي تراها بكل هذا الضعف؟ أكانت حقًا تريد أن تؤلمها، كما آلمتها هي من قبل، أم أن هذه هي طريقتها في الدفاع عن نفسها كما فعلت من قبل مع أدهم؟؟ كان ذلك حين لمحت "أحمد كمال" زميلها القديم، يقف برفقة أدهم، فأدارت وجهها عنه لمعرفتها كم هو فضولي وثرثار، وأنها قطعًا لن تسلَم منه ومن سلوكه المتطفِّل، ولكنها توقّفت فجأة حين اخترقت كلماته لأدهم مسامعها، فقد كان يقول له:

– طيب ليه مافكّرتِش تروح ألمانيا تتعالج؟ الطب هناك متقدم كتير عن هنا، وأكيد حايلاقوا حل لموضوع العَرَج ده.

استدارت له فريدة وقد كسى وجهها الذهول، فقد كانت تريد أن تتأكد مما سمعت، غير مصدقة أنه وصل إلى هذه الدرجة من الفجاجة، ما هذه الجرأة؟ بل ما هذه الوقاحة؟؟ كيف يمكن لشخص أن يعبث بآلام الآخرين دون مراعاة لمشاعرهم أو احترام لخصوصيتهم هكذا؟

اتجهت فريدة نحوهما، ثم اقتربت أكثر لتتوسطهما، وتقطع حديثهما قائلة بتحفّز:

- ازيك يا أحمد؟
- فريدة، عاش مِن شافك، كنتِ فين يا بنتي السنين دي كلها؟
- أجابت باقتضاب: في الدنيا.
- قال أحمد هامسًا وكأنه يخبرها سرًّا هامًا: مش حاتصدقي شوفت مين هنا، عمرو وشيرين.
- ومصدقش ليه؟ ما أنا كمان شوفتهم.
- اتسعت عيناه في لهفة لما سيسمع، ثم قال: شوفتيهم؟؟
- أقصد شوفت شيرين يعني، فطبيعي يكون عمرو موجود.
- وإيه اللي حصل؟
- ولا حاجة.
- سأل في إحباط: ولا حاجة ازاي؟
- زي ما بقولك كدة ولا حاجة، أو بمعنى أصح ولا حاجة تنفع تبقى النمّاية الجديدة اللي انت كنت مستنيها.

ظل أحمد محدقًا بها، لا يعرف بِمَ يمكنه إجابتها، ولكنها لم تعطِه الفرصة وأكملت قائلة:

معلش، مضطرة أقطع الحوار اللطيف ده وآخُد أدهم منك، ابقى خلّينا نشوفك بقى يا أحمد، عن إذنك.

سارت فريدة، وتبعها أدهم مستندًا على عكّازه، وهو يهرول بقدر استطاعته محاولًا اللحاق بها، ما لبث أن اقترب منها حتى همست له في حنق:

- بني آدم مستفز، مش حايبطل العادة المهببة بتاعته دي، طول عمره بيموت في النَم ورغي الستات.
- نظر لها أدهم بامتنان، وابتسم قائلًا: جيتي في وقتك، انتِ أنقذتيني منه، مش عارف أشكُرِك ازاي.
- لا شكر على واجب، وبعدين الصحاب لبعضهم، مش كدة ولا إيه؟
- اتسعت ابتسامته قائلًا: كدة.

همّ أدهم ليدخل القاعة، ولكن فريدة استوقفته قائلة:

- استنى، بلاش ندخل دلوقتي.
- ليه؟
- سيب سلمى وشريف يقعدوا مع بعض براحتهم، انت عارف القعدة دي جاية متأخرة كام سنة؟
- معاكِ حق، طيب إيه، حانعمل إيه دلوقتي؟
- تعالى نطلع برّة شوية، حاسة إني عايزة أشم شوية هوا.
- زي ما تحبي.

نظرَت له فريدة، وإلى بطء خطواته وصعوبة حركته، ثم قالت:

- انت ممكن تسند عليّا على فكرة.

نظر إليها مُحرَجًا، ولكنها لم تعطِه فرصة للتفكير، فما كان لها سوى أن أحاطت ذراعه بذراعها، وسارت إلى جانبه، متلكئة على إيقاع خطواته، بينما كان هو يحاول جاهدًا أن يخفي تلك الابتسامة التي أنارت وجهه وهو يسير بجانبها في زهو.

دلف كلٌ من فريدة وأدهم إلى حديقة الفندق، ثم جلسا بجوار بعضهما على المقعد الخشبي العريض، ساد الصمت بينهما لعدة دقائق، ولكن قطعه صوت قدّاحة أدهم التي أخرجها ليشعل سيجارته، لاحظَت فريدة تَمَلمُل أدهم الذي كان يجلس إلى جانبها، يرمقها بنظرة خاطفة تارة، ثم يدير وجهه ويزفر دخان سيجارته العالقة بين شفتيه وهو يعتدل في جلسته تارة أخرى، شعرَت آنذاك أن ثمة شيء يريد أن يقوله أدهم، ولكنه لا يعرف من أين يبدأ حديثه، كان ذلك حين ابتسمت فريدة، وسألته:

- بيتهيألي مش محتاجة التفكير ده كله، عايز تقول إيه يا أدهم؟
- التفت لها وهو لا يزال شاردًا، ثم قال: إيه؟
- أصلي حسّاك قاعد مش على بعضك، شكلك عايز تقول حاجة، اتكلِم بقى، عايز تقول إيه؟
- نظر إليها، وهو لا يزال يفكر مليًا، ثم سألها مترددًا: هو انتِ بجد شوفتي شيرين؟
- آه شوفتها.
- وحصل إيه؟
- عايز الحق، ولا حاجة من اللي أنا قولتها للرذل اللي جوة ده، أنا كنت باغيظه بس.

- أومال إيه اللي حصل؟
- بصراحة، سمّعتها كلام زي السِم.
- وهي قالتلِك إيه؟
- ابتسمت في مرارة، وقالت: قالتلي إني وحشتها.
- وانتِ صدّقتيها؟
- حاتصدّقني لو قولتلك آه؟ أصل هي كمان ساعات كانت بتيجي على بالي، ورغم كل اللي حصل، برضو كنت بحس إنها واحشاني، كتير كانت بتيجي عليّا لحظات أقول يا ريتني كنت أقدر أفقد الذاكرة وأنسى كل اللي حصل، وأكلمها عادي ولا كإن حاجة حصلت، بس أول ما شوفتها ماعملتش ولا حاجة من دي، وفجأة لقيت نَفسي بطلّع فيها كل اللي كنت شايلاه جوايا وكان نفسي أقوله من ست سنين.
- عايزة نصيحتي، سامحيها يا فريدة، احنا مش حانفضل طول عمرنا نعاقب بعض على اللي حصل زمان، كفاية لحد كدة.
- نظرت له وهي تبتسم، ثم سألته راجية: أفهم من كدة إنَك سامحتني؟
- ابتسم بدوره لها ابتسامة ارتياح، كمَن يرفع حجرًا ثقيلًا عن صدره، ثم قال: أنا مسامحِك من قبل ما أشوفِك يا فريدة.
- بس انت قولتلي قبل كدة إني كنت السبب.
- ده لما كنا عيال وكل واحد فينا عايز يرمي ذنبه على التاني، بس بعد ما كبرنا كدة والسنين دي كلها عدِّت، اكتشفت إن الحالة الوحيدة

اللي ممكن يتقال فيها إنك كنتِ سبب في اللي حصل، إنك تكوني فكّيتي فرامل العربية مثلًا، وده ماحصلش، يبقى انتِ ملكيش ذنب.

- أيوة بس أنا عارفة إن الكلام اللي أنا قولتهولك كان صعب عليك تستحمله، وإنه كان سبب في حالتك الوحشة اللي سوقت بيها وخلّتَك عملت الحادثة.
- يمكِن كان سبب في حالتي الوحشة زي ما بتقولي، بس لو فكرتي كمان حاتلاقيني كنت سايق وأنا شارِب، وبجري على ١٨٠، متوقعة بعد كل ده إني أوصل سَليم؟ ريّحي نفسِك يا فريدة، انتِ بجد ملكيش ذنب.
- أسندت فريدة ظهرها إلى المقعد، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وكأنها تتنفس الصعداء، ثم قالت: ياه يا أدهم، انت عارف أنا بقالي كام سنة مش عارفة أنام؟ كام سنة نفسي أسمع الجملة دي؟ انت شِلت حِمل كبير أوي من على كتافي.
- اعتدل أدهم في جلسته ليسند ذراعه على المقعد ويلتَف بجذعه نحو فريدة، ويوجه بصره صوبها مباشرةً، ثم سألها قائلًا: إلا قوليلي يا فريدة، طول عمري وأنا نفسي أسألِك، هو انتِ حبيتي عمرو ليه؟
- قضب جبينها لسؤاله، وظلت صامتة لعدة لحظات، ثم التفتت له وهي تبتسم قائلة: حبيت عمرو ليه؟ تصدّق عمري ما سألت نفسي السؤال ده؟ بس بيتهيألي إن التوقيت كان هو السبب.
- ازاي يعني؟

- عمرو كان طول عمره صاحبنا، بس ما كانش قريب أوي ليا، لما بابا مات كنا في ثانوية عامة وانتوا كلكوا عارفين أنا كنت متعلقة بيه قد إيه، فجأة حسيت إني اتعرّيت، وإنه يوم ما راح إحساسي بالسند والأمان راح معاه، في الوقت ده عمرو بدأ يقرّبلي أوي، كان طول الوقت جنبي، بيطّمن عليا ومحسسني إني مش لوحدي، وإنه بيسندني وقت ما أضعف، ويسمعني حتى لو بعيد نفس الكلام مرّة واتنين وتلاتة، ساعتها حسيت إن ربنا عوّضني بيه وبعتهولي في الوقت ده؛ عشان يهوّن عليا ويرجعلي ولو جزء من الإحساس بالأمان اللي فقدته، وشوية شوية لقيت نفسي بحبه.
- وأنا ماكنتش موجود يا فريدة؟ ليه حبيتيه هو وماحبيتينيش أنا؟

اتسعت عينا فريدة وفغرت فاهّا من فرط الذهول، ولكنه أكمل قائلًا:

- هو انتِ بجد عمرِك ما شكّيتي إني بحبك؟
- قالت بصوت خفيض، والذهول ما زال يكسو وجهها: شكّيت في وقت، بس كدِّبت نفسي.
- ليه؟
- عشان انت عمرَك ما لمَّحتِلي بحاجة زي كدة، حتى لما عمرو بدأ يقرّبلي، ماحسّيتش إنك غيران، ماعملتش حاجة.
- عشان أنا طول عمري وأنا شايفِك كتير عليّا، مع إننا كنا صُحاب من واحنا صغيرين، بس دايمًا كنت شايفِك مختلفة عني في كل حاجة، انتِ مش زيي، وأهلِك مش شبه أهلي، ظروفِك وحياتِك غير ظروفي وحياتي، انتِ كنتِ بنت طبيعية خالص، وأنا عمري ما

كنت طبيعي، ولا حياتي كانت طبيعية، كنت مهما بقرّب منِك، بحِس إن اللي جوايا واللي أنا عيشته يخلّي في أميال بتفصِلني عنك، عشان كدة فضّلت إني ألعب دايمًا دور الصاحب الجدع مش أكتر، عشان أنا لو كنت دخلت حياتِك بصفة تانية كنت حادمّر هالِك، أنا أهلي دمّروني لدرجة خلّتني ممكن أدمّر أي حد يقرب مني، مهما كنت بحبّه، وحتى لو من غير ما أقصد.

أفلتت من عينه دمعة، ولكنه سرعان ما أدار وجهه عنها، وأخرج قدّاحته ليشعل سيجارة أخرى، ليزفر مع دخانها ارتباكه وتوتّره، ثم أكمل:

لما عمرو قربّلِك، ماكانش الموضوع مش فارِقلي زي ما انتِ فاكرة، بالعكس، ده أنا ساعات كنت بمسك نفسي على آخر لحظة إني أتلككِله علشان أضربه، وعُمْر ارتباطكم ما كان سهل عليّا زي ما انتِ متخيلة، بس ده اللي بيسمّوه بقى براعة التمثيل، كنت كتير ببقى عايز آجي أتخانق معاكِ، وأسألِك ليه شوفتيه هو وماشوفتينيش أنا؟ بس كنت كل ما أبُص عليكِ ألاقيكِ مبسوطة، وألاقيه هو الوحيد اللي عرف يطلّعك من الحالة اللي كنتِ فيها بعد موت عمو الله يرحمه، ساعتها عرفت إني لازم أقبل بالأمر الواقع، وأبعد ومبقاش أناني، عشان كُنت شايف وقتها إن عمرو حايكون أنسب لِك مني ١٠٠ مرّة.

- ابتسمت فريدة ساخرة، ثم قالت: طول عُمرَك وانت عندك بُعد نظر.
- وهو كان في حد فينا ممكن يتخيل إن عمرو يعمل كدة؟ عمرو ضحك علينا كلنا، وعشان كدة لما اكتشفت اللي بينه وبين شيرين،

ماستحملتش أفضل ساكت وقررت آجي وأقولِك، مهما كانت النتيجة، عشان أنا كنت محمِّل نفسي جزء من المسؤولية، إني سيبتِك في إيدين واحد مكانش يستاهلِك.

- يا بني انت حاتحمِّل نفسك ذنب كل حاجة؟ ارحم نفسك بقى.
- يا ريتني أقدر.
- بص يا أدهم، كل واحد فينا مسؤول بس عن اللي هو عمله، أي حاجة غير كده تبقى قَدَر، قدر إني أرتبط بعمرو، قدر إن الحادثة تحصل، قدر إن علاء ونادر همّا اللي يروحوا وانت ودواليا يتكتبلكوا عُمْر جديد، كل الحاجات دي كانت قدر، ربنا بس هو اللي عالِم حصلت لنا ليه وكانت إيه حكمته فيها، صدّقني يا أدهم، احنا ممكن نسأل نفسنا أسئلة كتير، نحتار، ضميرنا يأنِّبنا، بس في الآخر محدش حايشيل غير شيلته، وأهم حاجة إن كلنا نكون اتعلمنا من اللي حصل، وفهمنا الدرس كويس، عشان ربنا يسامح كل واحد فينا على الغلطات اللي كان مسؤول عنها.
- عندِك حق يا فريدة، هو فعلًا كان درس، بس درس قاسي أوي.
- انسى بقى يا أدهم.

شردَت فريدة للحظات وكأنها تفكر في شيء ما، ثم التفتت إلى أدهم من جديد وقالت:

- تفتكر يا أدهم لو نملك إننا نرجع بالزمن، إيه الفترة اللي كنت حتحب ترجعلها؟

- عاد أدهم بظهره إلى الخلف، وعقد ذراعيه فوق صدره، ثم شرد بعينيه بعيدًا ولاح شبح ابتسامه على ثغره، حتى بدا وكأنه يحلم وهو مفتوح العينين، ثم قال: فترة ثانوي، الوقت ده كلنا كنا فيه صحاب بجد قبل ما نتفرق ونتغير، وجدِّتي كانت عايشة معايا، بيتهيألي ده الوقت الوحيد في حياتي اللي حسيت فيه إني ليا أم بجد، كتير كنت بحس إن هي اللي أمي وإنها مش جدتي، عمري ما حسيت بالراحة والدفا قد ما كنت حاسس بيهم في الوقت ده.
- ابتسمت فريدة ابتسامة خافتة، ثم قالت: أنا كمان، ساعات كتير بحس إني نفسي الزمن يرجع بيا لأيام المدرسة، قبل ما أبقى مع عمرو، وقبل ما بابا يتوفى، بيتهيألي حاجات كتير أوي في حياتي كان ممكن تتغير.

عادت لتلتفت إلى أدهم، وتقول بحماس:

يبقى اتفقنا.

- اتفقنا على إيه؟
- إن احنا من هنا ورايح مش حانجيب لبعض سيرة أي حاجة بعد الفترة دي، كإننا فعلًا وقفنا عند فترة ثانوي، وأي حاجة جَت بعد كدة، كإنها ما حصلتش، وكإن السنين دي كلها ماعدّتش، ونرجع فريدة وأدهم الصحاب بتوع زمان.
- لم يستطِع أدهم أن يسيطر على ابتسامته التي اتسعت لتنير وجهه، فقد كان سعيدًا بفكرة فريدة التي جعلته يشعر للحظة أنهما ما زالا أدهم وفريدة ذوي الرابعة عشر من العُمْر، واللذان كانا يقضيان

معظم وقتهما خلال الفسحة المدرسية يجلسان على مقعد خشبي كالذي يجلسان عليه الآن، يتحدثان في كل شيء، وما كان له آنذاك سوى أن ابتسم مادًا يده ليصافحها قائلًا: اتفقنا.

ولكن ما لبثت فريدة أن مدّت يدها بدورها لتصافحه، حتى ضرب يده بيدها مرتين بطريقة طفولية، وهي طريقتهما الخاصة التي كانا يصافحان بها بعضهما وهما في المرحلة الابتدائية، انفجرت فريدة ضاحكة، ثم قالت:

- ياااه يا أدهم، انت لسة فاكر؟

- أجابها وهو ينظر إليها نظرة بدت لها مختلفة عن نظرته المعتادة إليها، أو ربما كانت هذه هي النظرة التي لطالما ودَّ من أجلها أن يتحلّى بالشجاعة الكافية حتى يستطيع أن ينظر إليها ويتأملها كما يحلو له، ولكنه نجح أن يواريها عنها لسنوات وسنوات، ثم قال: أنا فاكر كل حاجة يا فريدة.

بهذا الوقت، وأثناء حديث أدهم إلى فريدة بحديقة الفندق، كان كلٌ من سلمى وشريف يجلسان برفقة بعضهما بالقاعة، يتجاذبان أطراف الحديث الذي لم ينقطع تقريبًا منذ خروج صديقيهما، بدا كلٌ منهما سعيدًا، منتشيًا، كما لم يكُن من قبل، خصوصًا شريف الذي لم يكُن يصدق أنه أخيرًا قد زفر بالفرصة التي لطالما انتظرها على مدار أعوام، ولم تسنح له إلا الآن، قطع حديث شريف نظرات سلمى المتأملة، والتي أربكته، ودفعته ليسألها:

- مالِك؟ بتبُصّيلي كدة ليه؟

- قالت وهي تبتسم: أبدًا، بس حاسة كإني بتعرّف عليك من الأول وجديد.

قضب جبينه، ونظر إليها مستفهمًا، فأجابته: أقصد إنك اتغيرت كتير عن زمان.

- يا ترى للأحسن ولا للأوحش؟
- للأحسن طبعًا.
- كان ذلك حين سألها مباغتًا: يعني مابقيتش متعوس ولا خايب رجا؟
- اتسعت عينا سلمى في ذهول، لتشعر وكأن أحدهم قد هبط على رأسها بجردل من الماء المثلج، ولكن سرعان ما تبدل ذهولها إلى ابتسامة خافتة، وقالت: ياه يا شريف، ست سنين وأنا نفسي أعرف انت سمعت إيه في الليلة دي.
- قال وهو يدير وجهه عنها محاولًا أن يخفي الحَرَج الذي لطالما دفنه بقلبه، ولكنه فضحه وأطَل من عينيه: سمعتك وانتِ بتقولي لفريدة إن لو أنا وانتِ بقينا مع بعض يبقى اتلَم المتعوس على خايب الرجا.
- اتسعت ابتسامتها قائلة: بس كدة؟
- احمر وجهه في حنق، وقال: وهو في أكتر من كدة؟
- أمسكت سلمى ذقنه بإصبعيها لترفع رأسه، وتنظر بعينيه مباشرةً وكأنها تحدِّث طفلها، ثم قالت وابتسامتها ما زالت تعلو وجهها:

آه في، لو كنت قدِّمت خمس دقايق بس، كنت سمعتني وأنا بقول لفريدة إني بحبك.

- ما لبث شريف أن سمع كلماتها حتى رفع رأسه والتفت إليها مسرعًا، فقد ظن أنه خُيِّلَ له أنها نطقت بهذه الكلمة التي لطالما تمنى أن يسمعها منها، ولكن تلك النظرة التي كانت تلمع بها عينيها آنذاك، جعلته يدرك أن ما سمعه كان حقيقة طال انتظارها، اقترب منها أكثر، ولكنه تذكّر شيئًا، وهمّ ليسألها:
- بس ازاي بتحبيني وانتِ شايفة إننا ماينفعش نبقى مع بعض؟
- وقتها مكانش ينفع.
- ليه؟
- أسندت ظهرها إلى مقعدها، ثم صمتت لبرهة وكأنها تذكرت شيئًا لا توَد أن تذكره، ثم قالت: عشان وقتها أنا وانت يا شريف كان عندنا مشكلة، مشكلة ثقة، وأسوأ نوع من مشاكل الثقة هو الثقة بالنفس، أنا وقتها كنت تخينة وحاسّة دايمًا إن كل الناس لما يشوفوني بيضحكوا عليّا، وانت كنت مختلف تمامًا عن كل صحابنا، ملتزم وعاقل، ورغم إنهم كانوا بيحبوك، كانوا بيعرفوا يهزّوا ثقتك في نفسك ويحسسوك إن فيك حاجة غلط، في الوقت ده على قد ما كنت شايفة إنك شبهي في حاجات كتير وأكتر واحد بيفهمني، كنت خايفة من الشبه ده، خايفة يكون قربنا وانجذابنا لبعض ده عشان كل واحد فينا عارف إنه قدام التاني مش حايكون عنده أزمة الثقة اللي بيعاني منها مع باقي الناس، وإننا نكون اختارنا

بعض عشان خايفين إننا ما نبقاش اختيار كويس بالنسبة للناس التانية، اختيار آمن يعني، لإننا ببساطة عمرنا ما شوفنا نفسنا كفاية في عينين حد.

- هزّ شريف رأسه في تفهّم، ثم قال: طيب ودلوقتي؟
- سرعان ما تبدّل عبوسها إلى ابتسام، وقالت: دلوقتي لا أنا ولا انت سلمى وشريف بتوع زمان.
- نظر لها راجيًا، وسألها: يعني ممكن؟
- ابتسمت له مطمئنة إياه، ثم قالت بخجل: طبعًا ممكن.

اقترب شريف منها، وكذلك يده التي كانت تتسلل خلسة لتلامس يدها، التي سرعان ما سحبتها لتضرب بها على جبهتها، وتصيح قائلة:

- فريدة!! أنا ازاي نسيتها؟
- نظر لها شريف متعجبًا، ثم قال: أيوة صحيح، راحت فين هي وأدهم كل ده؟

كان ذلك حين اقترب منهما زميلهما السابق أحمد كمال، وقال:

- شريف الألفي؟ عاش مِن شافك يا راجل!
- صمت برهة، وأخذ يتأمل سلمى متحققًا، ثم قال لشريف في فضول: مش تعرّفنا؟
- نظر له شريف بعينين يملأهما الغيرة، وقال: أعرفك على مين؟ دي سلمى.
- سلمى مين؟
- سلمى توفيق.

- صاح أحمد قائلًا: مش معقول، سلمى؟ ده انتِ اتغيرتي خالص، أنا ماعرفتكيش.
- ابتسمَت له سلمى وهي تراقب نظرات شريف الغيورة، ثم سألته قائلة: ماشوفتِش أدهم وفريدة؟
- آه شوفتهم، أنا كنت واقف مع أدهم، وفريدة جَت تكلمه وكان شكلها عصبي أوي مش عارف ليه.
- وراحوا فين؟
- شوفتهم طالعين سوا ناحية الجنينة.
- نظرت سلمى لشريف في ذُعر، وقالت: يا خبر! لا يكونوا بيتخانقوا.

ما لبثت أن انتهت من كلماتها، حتى هبّت واقفة وأسرعَت متجهة نحو الحديقة، وبرفقتها شريف، أما أحمد فظل واقفًا بمكانه لم يبرحه، فقد كان يتابع بنظره تلك السيدة التي كانت تجلس بمفردها على بُعد عدة أمتار من حيث كان شريف وسلمى يجلسان، بينما كانت هي تنظر في ساعتها متأففة، ثم تعود وتتلفت من حولها، وكأنها تبحث عن شخص ما، اقترب أحمد منها أكثر وهو ما زال يخمن من هي، حتى لم تَعُد تفصله عنها سوى خطوة واحدة، أخذت تنظر لذلك القادم تجاهها مستفهمة، وكأنها تود أن تسأله ماذا يريد، ولكنها ما لبثت أن رأته حتى اتسعت عيناها، وأدارت وجهها عنه متظاهرة بالعبث بهاتفها، أخذ يتأمل هذه السيدة الوقورة التي ترتدي فستانًا أسودًا أشبه بالعباءة، وحجاب

طويل باللون الأبيض يصل إلى صدرها، ولكنه ما لبث أن أدرك من تكون حتى صاح مبتهجًا وهو يمد يده إليها ليصافحها بوِد قائلًا:

- داليا رفعت؟ يخرب عقلِك، إيه اللي عمل فيكِ كدة؟
- كان ذلك حين قبضت علي يدها اليمنى الفارغة متظاهرة في حركة تمثيلية أنها تصافحه، بينما كانت يده لا تزال عالقة في الهواء، ثم قالت: ازيك يا أحمد؟
- نظر لها مستنكرًا، ثم قال ساخرًا: وكمان ما بتسلميش؟ الله يرحم أيام ما كنا بنسلم ونبوس.
- زفرت في حنق، وقالت: أستغفر الله العظيم، ربنا هداني الحمد لله.
- وماله؟ ربنا يهدينا جميعًا.
- كان ذلك حين جاء زوجها من خلفها، ووضع يده فوق كتفها، نظرت له ثم قالت في قلق:
- داليا: روحت فين كل ده؟
- الزوج: شُفت جماعة صحابي معايا في الشغل، كنت بسلم عليهم.
- داليا: طيب أدينا عملنا الواجب والساعة عدِّت، مش يلا بينا بقى؟
- الزوج: حاضر يا حبيبتي حانمشي على طول.

كان ذلك حين نظر الزوج إلى أحمد متسائلًا مَن هذا، فقالت داليا مشيرة إلى زوجها:

- محمد جوزي.

ثم انتقلت بنظرها إلى الآخر قائلة: أحمد، كان زميلي في المدرسة.

- أخذ أحمد يتأمل هيئة الزوج، لحيته الخفيفة، والزبيبة التي تتوسط جبهته، ثم قال بفراسة مصطنعة: أكيد بقى يا بطل انت السبب إن داليا تتحجب.
- قال الزوج وقد قضب جبينه وتبدّلت ملامحه للجَد بعد أن كان مبتسمًا ودودًا: أنا؟ لأ أنا لما عرفت داليا كانت محجبة.
- آه يبقى أكيد بقى من بعد الحادثة.
- قال الزوج متفهمًا: آه تقصد حادثة العجمي.
- أكمل أحمد قائلًا: دي كانت حادثة بشعة، داليا وأدهم اتكتبلهم عُمْر جديد.
- اتسعت عينا الزوج في ذهول، وقال: أدهم؟ أدهم مين؟
- قال أحمد مستمتعًا بالثرثرة، وكأنه نسى أنه يحدِّث زوج داليا الملتزم: واحد صاحبنا من أيام المدرسة، أصلهم كانوا بيقولوا إنه كان سايق وهو شارِب، بس للأسف علاء ونادر بقى ربنا افتكرهم.

التفت إلى داليا التي كانت ترتجف وتنظر له بعينين يطل الرعب منهما، ثم قال: صحيح يا داليا، لسة بتسألي على مامة نادر؟

- أجابته مرتبكة: لأ بقالي كتير ماعرفش عنها حاجة.
- دي كانت بتحبك أوي، انتِ الوحيدة اللي كنتِ مهونة عليها فراق نادر.

عاد أحمد ينظر إلى الزوج الذي كان يرمق زوجته بنظرات حادّة يتطاير الشرَر منها، بينما كانت هي تنظر إلى أحمد بغضب، وكأنها تصب عليه لعناتها، كان ذلك حين أدرك أخيرًا خطورة ما قاله، والذي يبدو أن داليا

لن تسلم من توابعه، ثم استأذن للانصراف؛ حتى لا يتسبب لداليا في إحراج أكثر من ذلك، ليتركها تواجه زوجها بعد أن انفضح أمرها، وانكشف كل شيء.

التفت زوجها إليها لترى بعينيه نظرة مخيفة لم ترَها منه من قبل، وربما لم ترَها أبدًا ما حيَت، ثم قال بنبرة حادة محاولًا ألا تكون مرتفعة حتى لا يلفت أنظار مَن حولهم مِن المدعوين:

- إيه اللي أنا سمعته ده؟ وإيه حكاية الحادثة اللي كان بيتكلم عنها دي؟
- قالت بصوت متهدج حاولَت أن يبدو ثابتًا، بينما كانت عيناها تنطقان بقلقهما: ما انت عارف، حكيتلَك قبل كدة عن الحادثة اللي عملتها من ست سنين وأنا راجعة من العجمي.
- قال وقد بدأ صوته يرتفع قليلًا: قولتيلي إيه يا داليا؟ قولتيلي إنك كنتِ في العربية مع ثلاث شبّان وشاربين كمان؟ أنا أصلًا لحد النهاردة كنت فاكر إنك كنتِ في الحادثة دي لوحدِك.
- قالت داليا مُبرِّرة: أنا حاولت كتير أكمِّلَك الحكاية وانت ما سمعتِش، كل مرّة كانت بتيجي فيها سيرة الحادثة وأبقى حاكمِّل، كُنت مش بتديني فرصة وتغيّر الموضوع.
- عشان بحبِك، عشان ماكونتش عايزِك تتكلمي في حاجة تضايقك وتفكّرِك باللي حصل وانتِ قايلالي إنك يومها شوفتي الموت بعينيكِ.

صمت برهة، ثم التفت لها وكأنه تذكر شيئًا، وقال: ومين نادر ده كمان؟ كان معاكِ في الحادثة برضو مش كدة؟

- هزّت داليا رأسها بالإيجاب، ثم قالت وهي تنظر أرضًا: كنا مرتبطين واحنا في ثانوي، وكنا ناويين نتخطب، لحد ما حصل اللي حصل.
- كمان؟؟ أنا بجد مصدوم فيكِ، حاسس إني ماعرفكيش، طول السنين دي مقتنع إني عايش مع ملاك، وفجأة اكتشفت إنك..
- كان ذلك حين انفجرت داليا باكية، وقاطعته قائلة: إني إيه؟؟ ما تكمِّل؟ إني شيطانة؟ لعلمك بقى حتى موضوع نادر، أنا حاولت أقولهولك أكتر من مرة، حاولت أقولك إني زمان ماكونتش زي دلوقتي، ماكونتش داليا اللي انت عرفتها وحبِّتها، وفي كل مرّة كنت بتقولي إن مش فارق معاك تعرف أي حاجة عن اللي فات، غيّرت كلامك ليه دلوقتي؟
- عشان أنا ماتخيلتش كل ده، ماتخيلتش إنك كنتِ كدة! سهر وشُرب وركوب عربيات في أنصاص الليالي مع ولاد.
- أُمّال كنت فاكر إيه؟
- أنا قولت حاتكون حاجات عادية، آخرِك يعني تكوني اتحجبتي أو التزمتي متأخر مثلًا، بس، مش أكتر من كدة يعني.
- قالت وهي تنظر بعينيه لأول مرة منذ أن بدأ حديثه، وكأنها أخيرًا قد استعادت ثقتها بنفسها، وقالت: وأنا مش ذنبي إنك كوِّنتِلي في خيالك صورة مش حقيقية، أنا عمري ما خدعتك ولا قصدت

أخبي حاجة عليك، من أول يوم وأنا واضحة معاك، انت اللي اخترت إنك ماتعرفش حاجة، إنت عارف، أنا طول الوقت من ساعة ما اتجوزنا وأنا متخيلة إني شيطان بيحاول يبقى ملاك، لكن دلوقتي بس، وبعد اللي حصل ده عرفت إن أنا عمري ما كنت لا ده ولا ده، أنا بني آدمة، بني آدمة عادية جدًا بتغلط، مش معصومة من الخطأ، أنا غلطت وأذيت نفسي كتير، لكن في الآخر ندمت ورجعت لربنا، وأنا متأكدة إنه سامحني، عشان أنا كنت فعلًا صادقة لما رجعت ليه.

- سامحِك عشان ربنا.
- يعني إيه؟
- يعني ربنا ممكن يسامحِك، لكن أنا ماعتقدش إني حاقدر يا داليا.

صمت برهة ثم أكمل: أنا رايح أبات عند أهلي، وانتِ كمان أحسن تقعدي عند أهلِك اليومين دول لحد ما نشوف حانعمل إيه، تصبحي على خير.

وما لبث الزوج أن انتهى من كلماته، حتى رحل تاركًا إياها خلفه، تقف بمفردها ذاهلة، تنظر إليه وهو يبتعد في أسى، وعيناها المحمرتان تفيضان بدموعها الساخنة التي أخذت تهطل على وجهها دمعة تلو الأخرى لتحرق وجنتيها.

عندما دلف كلٌ من شريف وسلمى إلى حديقة الفندق، أخذا يتجولان بنظرهما باحثين عن أدهم وفريدة، ولكن لم يَكُن لهما أثر، أخذا

يسترقان السمع إلى أي صوت قد يرشدهما إليهما، فقد كان شريف يتوقع أن حيث يكون أدهم وفريدة وخصوصًا بعد كل ما حدث فقطعًا لن يكون الصوت الصادر من حيث يجلسان سوى صوت بكاء أو صياح، ولكن ما لم يَكُن يتوقعه أبدًا أن يتردد على مسامعه صوت قهقهة وضحكات عالية، نظر إلى سلمى متعجبًا، ثم اقتربا أكثر من مصدر الصوت الآتي من خلف شجرة ضخمة، ولكنهما لم يسعهما سوى أن يتسمّرا بمكانهما ويقفا مشدوهين في عدم استيعاب بمجرد أن شاهدا أدهم وفريدة يجلسان على المقعد الخشبي العريض غارقان في الضحك، فقد كان آخر ما يخطر ببالهما أن يعود كلٌ من أدهم وفريدة ليجلسان سويًا في جلسة ودودة كهذه، كأن شيئًا لم يَكُن! وكأنهما ذات المراهقين اللذان لطالما اعتادا أن يجلسا سويًا بفناء المدرسة، كان ذلك حين استمع أدهم إلى وقع خطوات تأتي من خلفه، فالتفت ليجد شريف يقف ذاهلًا، نظر لكلٍ من سلمى وشريف اللذان بدَت عليهما علامات التعجب، ثم قال موجهًا كلماته إلى شريف:

- مالكوا واقفين كدة ليه؟
- بصراحة، متفاجئين.
- متفاجئين؟ ليه؟
- قالت سلمى ضاحكة: أصلنا كنا خايفين نيجي نلاقيكوا بتتخانقوا، ما توقعناش خالص نيجي نلاقيكوا كدة.
- أطلقت فريدة ضحكة عالية ثم قالت: لا أنا وأدهم عملنا معاهدة سلام خلاص، انتوا عرفتوا مكاننا منين أصلًا؟

- شريف: أحمد كمال كان معدّي وسألناه إذا كان شافكم.
- صاح كلٌ من فريدة وأدهم في آن واحد: ييييه، هو استلمكم انتوا كمان؟
- ضحكت سلمى ضحكة ماكرة، ثم قالت: حاوِل بس احنا مادّيناهوش فرصة.
- كان ذلك حين لكز شريف أدهم بكتفه قائلًا: طيب ادخلوا جوة بقى انتوا الاتنين خلّونا نعرف نقعد.

تحرّكَت فريدة نحو أقصى اليسار ليقترب منها أدهم، ثم جلس بجانبه شريف الذي أفسح المكان لسلمى لتجلس إلى جانبه، التفت شريف إلى أدهم وكأنه تذكّر شيئًا، ثم قال:

- صحيح، هو انتوا كنتوا بتضحكوا على إيه لما احنا جينا؟
- قال أدهم ضاحكًا: أبدًا كنا بنفتكر الكوارث اللي كنا بنعملها أيام المدرسة.
- لمعت عينا سلمى بحنينها إلى تلك الأيام، ثم قالت باسمة: والله دي كانت أحلى أيام، تعرفوا، أنا لما بحاول أفتكر أنا إمتى كنت مبسوطة بجد، مش بلاقي حاجة أفتكرها غير الوقت ده.

شردت سلمى لحظات بدا عليها أثناءها وكأنها تستحضر صورًا أخذت تمر أمام عينيها تباعًا، ثم قالت وهي تحاول ألا تقطع ضحكاتها التي فشلت في السيطرة عليها كلماتها:

فاكرين لما أول يوم في المدرسة واحنا في ثانية ثانوي كلكم جيتوا متأخر، ومستر عبد الحميد المشرف عاقبكم بإنكم تلفوا الملعب الكبير عشر

مرّات جري، ساعتها فضلتوا تتحركوا بالسلو موشن، وتعملوا زي سعيد صالح وعادل إمام في مدرسة المشاغبين، ماجرّاكوش في الآخر غير عصايته اللي دوّرها فيكوا واحد ورا التاني.

- انفجر أدهم ضاحكًا، ثم قال: ياه يا سلمى انتِ ازاي فاكرة؟ ده مستر عبد الحميد ده ياما كسّر عليا عصايته دي، وأنا كنت أفضل أنُط وهو بيحاول يضربني وأقوله ماجَتش فيّا.
- قالت فريدة موجِّهة كلماتها إلى سلمى وهي ما زالت تضحك: طيب فاكرة لما كنت أنا وانتِ واقفين ورا باب الفصل بنتكلم، لقينا الباب فجأة بيتفتح افتكرناها داليا وكنا عايزين نغلس عليها، وفضلنا نزُق الباب جامد واللي برّة كمان يزُق عشان نفتح، أتاري اللي برّة كان نادر وهو كمان كان فاكر إن أدهم وعلاء هما اللي ورا الباب وبيغلِّسوا عليه، قام من غيظه فجأة زاقق الباب بعِزم ما فيه، وأنا وانتِ اتنطرنا ولزقنا في الحيطة.
- قهقه أدهم وأخذ يضرب بكفه على ساقه السليمة، مثلما كان يفعل دائمًا حين تأتيه نوبات الضحك، ثم قال: لأ مش كدة بس، ده حتى بعد ما فتح الباب فضل عمّال يزُق الباب ويزنقكوا وراه زيادة، لحد ما فجأة لاقاني أنا وعلاء قُدامه، بَص ورا الباب لقاكوا انتوا الاتنين لازقين في الحيطة شبه "توم آند جيري"، فضل طول اليوم هو يعتذرلكم وانتوا تفتكروا المنظر وتضحكوا.
- قال شريف: طيب فاكرين في امتحان الشهر بتاع التاريخ واحنا في أولى ثانوي لما الواد خالد شكري كان قاعد جنب داليا ومعتمد

بقى إنها طول عمرها شاطرة، ما يعرفش إنها جَت في السنة دي وكبرت دماغها، جالها بعد الامتحان قال إيه بيشكرها عشان نقل منها الامتحان كله، داليا اتصدمت وقالتله انت بتقول إيه؟ ده أنا اللي ناقلة منك كل حاجة، وفي الآخر طلعوا الاتنين حالّين أوحش من بعض وسقطوا هما الاتنين.

- قال أدهم: ولّا لما كنا عاملين عيد ميلاد علاء في الفصل، وكل شوية حد من العيال اللي في الفصول التانية ييجي ياخد أكل ويمشي، آخر ما زهقنا تربسنا الباب، قام عمر نبيل اللي كان في الفصل اللي جنبنا فجأة فاتح الشباك اللي كان على الكوريدور وناطط واخد التورتة بحالها وطلع يجري.
- قال شريف وهو ينظر لأدهم بعينيه الضيقتين: أنهي واحد عمر نبيل ده؟ فكّرني بيه.
- أدهم: كان في فصل أدبي، وكان قصير ورفيع كدة.
- شريف: أيوة أيوة افتكرته.

توالَت المواقف التي أخذوا يستعيدونها واحدًا تلو الآخر، وكأن صندوق ذكرياتهم المسحور قد انفتح لتوّه وابتلعهم، عائدًا بهم إلى الأيام الخوالي بطرائفها ونوادرها التي لا تنتهي، ارتفعت أصوات ضحكاتهم التي ضلّت طريق ثغورهم منذ سنوات، حتى كادت أن تشُق عنان السماء، وانشرحت لها قلوبهم التي كانت منذ ما حدث أشبه بأرض جدباء مقفرة، ولكن سرعان ما روَتها ضحكاتهم، لتعود خضراء مزهرة وتدب فيها الحياة من جديد.

لم يقطع ضحكهم سوى صوت بكاء آتي من خلف الشجرة، نظروا جميعًا إلى بعضهم البعض في قلق، ثم هبّوا من مجلسهم باحثين عن الباكي، الذي لم يَكُن سوى داليا التي جلست على الأرض وقد أسندت ظهرها إلى الشجرة الضخمة، وأخذت تبكي بحُرقة، ذعروا جميعًا لحالها، ثم اقتربَت منها كلٌ من فريدة وسلمى، وقالت فريدة:

- داليا؟ مالِك إيه اللي حصل؟

- رفعت داليا عينيها المتورّمتين من كثرة البكاء، ونظرت إليهم، ثم مسحت عينيها ونهضت من مكانها، لتقول في ثبات مصطنع: مفيش حاجة، أنا آسفة، ماكونتش أعرف إن في حد هنا.

همّت لترحل، ولكن سلمى أمسكت بمرفقها لتستبقيها قائلة: استني بس حاتروحي فين وانتِ في الحالة دي؟

- انفجرَت داليا في البكاء مرّة أخرى، وقالت: مش عارفة.

جذبتها فريدة من ذراعها لتجلس على المقعد الخشبي، ثم جلست كلٌ فريدة وسلمى إلى جانبها، ثم أدهم وشريف إلى جانبهما بالترتيب، انحنى شريف ليرى وجه داليا، ثم قال:

- احكيلنا بالراحة يا داليا، إيه اللي حصل؟

- قالت داليا بأنفاس متلاحقة: جوزي سابني.

- لم تستطِع فريدة أن تخفي عجبَها، وقالت: سابِك؟ إمتى؟ مش هو ده اللي كان داخل معاكِ الفرح؟

- هزّت داليا رأسها بالإيجاب، وقالت: أيوة، سابني من شوية، واحنا جوة في الفرح.

- أدهم: أيوة إيه اللي حصل يعني؟
- داليا: كان واقف مع ناس صحابه، رجع لقى أحمد كمال واقف بيتكلم معايا وبمنتهى الغباء، فضحني قدامه وحكى كل حاجة.

نظروا جميعًا إلى بعضهم بمجرد ذِكر اسم أحمد كمال، لتفلت منهم ضحكة لم يتمكّنوا من السيطرة عليها، نظرت إليهم داليا غاضبة، ثم قالت:

- انتوا كمان بتضحكوا؟ دي مصيبة، أنا بيتي اتخرب.
- قالت سلمى: احنا آسفين والله يا داليا ما نقصدش، بس أصل مفيش حد فينا النهاردة تقريبًا سِلِم من لسانه، كمِّلي، هو انتش ماكونتيش حاكياله؟
- داليا: لأ، كان دايمًا بيقولّي إنه مش فارق معاه يعرف أي حاجة عن اللي فات.
- سلمى: وقالِّك إيه لما عرف؟
- ابتسمت داليا في مرارة قائلة: قالي إنه ماتوقعش اللي فات ده يبقى كدة، ومشي وسابني.

تنهدت داليا، ثم أكملت قائلة: بس أقولكوا على حاجة غريبة، على قد ما أنا موجوعة من اللي حصل ومن الطريقة اللي عرف بيها، على قد ما أنا حاسة إني ارتَحت من جوايا، حاسة إن في حِمل تقيل اتشال عني، خلاص مش حادوّر وشي تاني لما أشوف حد من المدرسة، أو أدعي إنه مايشوفنيش، مش حامشي موطّية راسي زي اللي عاملة عَملة، خلاص مبقاش عندي حاجة أخبيها.

- فريدة: طيب وجوزك؟
- داليا: حايقعد يفكر مع نفسه ويوصل لقرار، وأيًا كان القرار اللي حايوصلّه أنا راضية بيه، وربنا شاهِد إن عمري ما خدعته ولا قصّرت في حقه، أنا من يوم ما عرفته وأنا مراعية ربنا فيه.

ساد الصمت بينهم للحظات، كانت سلمى خلالها تتأمل القمر الذي اكتمل حتى صار بدرًا، وبدا في أبهى صوره، قالت وهي لا تزال تنظر إليه بإعجاب:

- القمر شكله حلو أوي النهاردة.

لم يُجِبها أحد من أصدقائها، ولكن أتتها الإجابة من الداخل، من حفل الزفاف وصخبه الذي كان يصل إلى مسامعهم، ليخترق سكون الليل صوت عمرو دياب وهو يغني "نعشق القمر"، التفتت سلمى إليهم حين وجدتهم جميعًا بلا حِراك، وكأنهم لم يسمعوا ما سمعته، لتسألهم:

- هو انتوا سامعين اللي أنا سامعاه ده؟

لم تَكُن تدري آنذاك أنهم جميعًا قد سمعوا ما سمعته، ولكنهم أبوا أن يصدقوا آذانهم، فجميعهم لم يستمعوا إلى هذه الأغنية منذ تلك الليلة المشؤومة، ولكنهم لم يَكُنوا يعلموا إن كان ذلك بمحض الصدفة، أم عن عَمد منهم تجاهلًا لذكراها وما تحمله من ألم بين طيّاتها!

- داليا: الأغنية دي بتفكّرني برحلة الأقصر وأسوان.
- سلمى: فاكرين في الرحلة دي لما كنا راجعين كلنا من سوق الأقصر بأعواد قصب، وبقى كل اللي داخل يتمسك على باب الأوتيل ويتّاخِد منه القصب؟

- ضحك أدهم قائلًا: قومت أنا مخلّي فريدة تقلع البالطو اللي كانت لابساه، ولفينا فيه القصب بتاعنا، ودخلنا بكل ثقة، طلعنا بعد كدة أكلناه على الروف وبهدلنا الدنيا.
- شريف: أنا فاكر احنا في الرحلة دي مكُنّاش بننام تقريبًا، كنا بنفضل سهرانين سوا وعاملين دوشة لكل اللي في الأوتيل، وفي الآخر نفوِّت المزارات بتاعة الصبح وننزل نفطر واحنا بالبيجامات، وفي الآخر السياح اشتكونا للإدارة، بس والله كانت أيام حلوة.
- لم تَكُن فريدة تسمع أي شيء مما يقولون، فقد كانت شاردة في الأغنية، وفي ذلك الصوت العالق بخلفية المشهد، والذي جعلها تشعر بقشعريرة تسري في كل جسدها وأعادها أعوامًا عديدة إلى الوراء، بكل ما تحمله من مشاعر وأحداث، قالت وهي لا تزال شاردة: انتوا عارفين أنا ماسمعتش عمرو دياب من إمتى؟
- أدهم: من إمتى؟
- فريدة: من يوم الحادثة.
- شريف: عشان بيفكِّرك باللي حصل ليلتها يعني؟
- فريدة: لأ، عشان بعدها حسّيت إن عمرو دياب فقد معناه بالنسبة لي يوم ما انتوا مابقيتوش موجودين في حياتي، أصل أغانيه دايمًا كانت جزء من كل الأحداث اللي في حياتنا، كل صيف، وكل فسحة، وكل قصة حب، ذكريات كتير لينا مع بعض مش بفتكر حصلت إمتى أو يوم إيه ولا حتى سنة كام، بس دايمًا بفتكر كانت

مرتبطة بأنهي أغنية لعمرو دياب، يعني مثلًا "هلا هلا" بتفكرني برحلة الفيوم بتاعة أولى ثانوي، "خالصين" بتفكرني بدرس الفرنساوي لما كنا بنبقى مروّحين وسواق داليا ييجي ياخدنا، كنا نفضل نغنيها طول السكة، وكل ما تخلص نقولّه يرجعها تاني من الأول، "ميال" بتفكّرني بحفلة التخرج بتاعة المدرسة، "ما يتحكيش عليها" بتفكرني بنادر، كان دايمًا بيغنيها لداليا، "آيس كريم في جليم" بتفكّرني بعيد ميلادي لما طلعنا إسكندرية في عز البرد، وجيبنا آيس كريم ومشينا نغنيها في الشارع زي المجانين، "حاولت" بتفكرني بشريف، كان دايمًا بيشغّلها لما سلمى تبقى موجودة، هو عمره ما قال إنها ليها، بس أنا كنت ببقى عارفة، "راجعين" بتفكّرني بأدهم لما كنا في خطوبة أحمد وراوية اللي كانوا معانا في الكلية، وطلع غنّاها وخلّى الناس كلها قامت رقصت بعد ما كانوا قاعدين ما بيتحرَّكوش، حتى دلوقتي، لما أبقى ماسمعتش عمرو دياب من ست سنين، ويوم ما نتقابل ونقعد سوا زي زمان، ألاقي برضو "نعشق القمر" شغّالة في الخلفية، وبرضو زي زمان، كإن الزمن رجع بينا أربعتاشر سنة لورا، وكإن مفيش حاجة حصلت، يبقى كان ليا حق ماسمعهوش السنين دي كلها، كإني كنت مستنياكم عشان نرجع نبدأ تاني من مكان ما وقفنا.

ظل أدهم معلقًا بصره بالقمر الذي أضاء بنوره ليلتهم المعتمة، وبدأ يغني بصوته العذب الذي لطالما أحبه الجميع:

"نعشق القمر لما يجمع الصحاب لما
نبكي لو يفرّقنا نفرح لو نكون لمة
يطلع القمر لينا يلمع ضيّه في عينينا
يسمع همس أغانينا يفرح لو تبسّمنا"

كان ذلك حين بدأ أصدقائه يغنوا معه بحماس ملء حناجرهم، وكأن ليس بالعالم سواهم، وكأنهم قد عقدوا آنذاك اتفاقًا ضمنيًا فيما بينهم بأن يلقوا بالماضي خلف ظهورهم، ليشيدوا معًا حاضرًا ومستقبلًا لا يشوبه ندم، أو يعكر صفوه خوف.

بداية جديدة

الزمالك ٢٠٠٤

وقف أدهم إلى جانب فريدة وقد ضمّها إليه، وإلى جانبهما سلمى وشريف، أخذوا يلتقطوا الصور واحدة تلو الأخرى؛ احتفالًا بمعرض الفن التشكيلي الذي أقامته فريدة لتعرض لوحاتها الجديدة، والذي حضره ألمع فناني ومثقفي مصر، نظرت سلمى إلى فريدة بنفاذ صبر، وقالت:

– مش حاتورّينا بقى المفاجأة؟

– ابتسمت فريدة بمكر قائلة: لما داليا تيجي، كلميها شوفيها وصلت فين.

ما هي إلا بضع دقائق حتى دخلت داليا مهرولة وقد تخلّت عن عباءتها، ولكنها احتفظت بحجابها وملابسها الفضفاضة، أقبلت وهي تفتح ذراعيها لتحتضن فريدة قائلة:

- أنا آسفة والله على التأخير، خلصت شغل متأخر، والسكة كمان زحمة أوي.
- قالت فريدة متفهّمة وهي تربت على يدها: ولا يهمِّك.
- أخذت داليا تتأمل فريدة بنظرة فاحصة، ثم قالت وهي تبتسم: انتِ بقيتي في الكام دلوقتي؟
- في السادس.
- وحاتجيبيلنا إيه بقى؟
- وضعت فريدة يدها برفق على بطنها المنفوخ، وقالت وهي تنظر لداليا نظرة ذات معانٍ كثيرة: نادر وعلاء إن شاء الله.
- اتسعت عينا داليا التي أفلتت منها دمعة لم تنجح في حبسها، ثم قالت وهي تبتسم لفريدة بحنان: وإن شاء الله حايطلعوا أحسن منهم ومننا كلنا.
- اقتربت سلمى من فريدة، وقالت: وآدي داليا جَت، حاتورّينا بقى المفاجأة ولا نروّح؟
- فريدة: لأ تروّحوا إيه؟ المفاجأة قدّامكم أهيه.

رفعت فريدة أخيرًا الستار عن اللوحة الوحيدة التي لم يرَها أحد من الحاضرين بعد، والتي لم تَكُن أيضًا معروضة للبيع، وقف أصدقائها يتفحّصون اللوحة التي كانت عبارة عن خمسة أشخاص، ثلاث فتيات وشابّان يجلسون جميعًا على مقعد خشبي عريض وسط حديقة واسعة، ينظرون إلى أعلى يتأملون ذلك القمر المكتمِل بنوره الوهّاج، الذي استطاع أن يحيل ليلهم ظُهرًا، وأن ينير الطريق من أمامهم، نزلوا

ببصرهم إلى اللوح المعدني الذي يحمل عنوان اللوحة، ليجدوه قد نُقِشَ عليه "نعشق القمر"، اتسعت ابتسامتهم جميعًا، ونظروا إلى فريدة مبتهجين، فقد كانت اللوحة جميلة بلا شك، ولكن مشاعر فريدة التي وضعتها باللوحة، وتلك اللحظة الاستثناءية بكل ما كان بها من حب ودفء، والتي خلّدتها فريدة بريشتها، جعلت منها لوحة أكثر من رائعة، أشارت سلمى إلى اللوحة بطفولة قائلة:

- ده احنا، يا بنت الإيه!! تجنن يا فريدة.
- ربَت أدهم على كتفها بحنان، ثم نظر إليها بفخر قائلًا: تحفة يا حبيبتي.
- بينما قالت داليا: طيب أنا دلوقتي عايزة آخدها، وانتِ مش عارضاها للبيع، أعمل إيه؟

أما شريف فظل يراقب رَدة فعلهم، وسعادتهم باللوحة التي كانت مفاجأة بِحَق، ثم عاد ليتأمل اللوحة وهو يبتسم لنفسه في زهو، أخذ يتذكر أحداث ذلك اليوم الذي كان من تدبيره، والذي لولاه لما كانوا يقفون سويًا الآن يحتفلون بفريدة ونجاحها، وكأن سنوات القطيعة لم تَكُن، نعم، فقد كان شريف هو مَن دبّر أمر ذهابهم إلى حفل الزفاف برمّته، بدايةً من حساب البنك الذي قام بفتحه بعد ما علِم بمكان عمل سلمى، التي لم يَكُن آنذاك قد شُفِيَ من جرحها بعد، فقد كان يريد أن يراها، أو بالأحرى يريها نفسه وكيف تغيّر بعد كل السنوات التي مضت، ليثبت لها أنه لم يَعُد "خايب رجا" كما قالت عنه من قبل، ولكنه بمجرد أن التقاها نسى كل ذلك، وعاد قلبه يدق إليها من جديد، وخصوصًا بعد

ما تأكد أنها تبادله ذات الشعور، مرورًا بلقاءه بـ " رشا" التي دعته إلى حفل زفافها، وسألته إن كان يمكنها أن تدعو أصدقائه القدامى، أم أن الأمور بينهم ليست على ما يُرام، ولكنه أكّد لها أنهم على اتصال دائم، فيما عدا علاقة فريدة بعمرو وشيرين؛ حتى تبدو كلماته منطقية، وحتى دعوات الفرح التي تسلّمها منها وأرسلها بنفسه إلى منزل كلٍ منهم، الذي كان لا يزال يذكره جيدًا.

لم يُقدِم شريف على تنفيذ خطته إلا بعد ما حسب المكاسب التي ستنتج عنها جيدًا بدقة، فأولًا سينتهز الفرصة ليتقرّب أكثر من سلمى، وربما اعترف لها بمشاعره تجاهها، ثانيًا سيخرج أدهم من عزلته ويقضي على خوفه من مواجهة الناس الذي سيطر عليه بعد الحادث، ثالثًا ستسترِد فريدة كرامتها، وخصوصًا إن التقت بعمرو وشيرين اللذان لن يجرؤا أن يرفعا رأسيهما إليها وينظرا بعينيها، وأخيرًا سيتمكّنوا جميعًا من طي تلك الصفحة السوداء من أجل بداية جديدة، ولكن الأهم من كل ذلك أن شريف كان يريد أن يُكَفِّر عن ذنبه الذي اقترفه منذ ست سنوات، والذي جعله يعتقد أنه قد يكون السبب غير المباشر فيما حدث لهم جميعًا، فقد كان هو من أخبر أدهم عن علاقة عمرو بشيرين، وهو يعلم جيدًا أن أدهم لن يتهاون في أي شيء يتعلّق بفريدة، كما كان هو من أفشى سر صديقه وأخبر سلمى بأمر إدمان أدهم، فقد كان كل ما يرغب به آنذاك هو أن يجعل سلمى تتأكد أنه أفضل منهم جميعًا، فهذا يخون خطيبته، وذاك أدمن المخدرات، لعل ذلك يجعلها تتمسّك به وتتخلص

من اضطراب مشاعرها تجاهه، أدرك شريف فيما بعد كَم كان أنانيًا لا يفكر سوى بنفسه، وأنه بذلك كان كمَن يرقص على جثث الموتى، لذلك عزم على أن يكفّر عن ذنبه، وألا يتخلّى عن أدهم أبدًا مهما كلّفه ذلك من عناء، لم يَكُن شريف ملاكًا كما يعتقد الكثيرون، ولكنه كان نادمًا أشد الندم على فعلته، وفي أحيان كثيرة يكون هذا كافيًا، فثمة أخطاء لا يمكننا إصلاحها، ولكن يمكننا التكفير عنها.

– كان ذلك حين رفعت سلمى صوتها قائلة: شريف، يا شريف.

التفت إليها وهو لا يزال شاردًا، فأكملَت قائلة: سرحان في إيه كل ده؟ بقالي ساعة بنادي عليك.

– آسف ماخدتش بالي.

– طيب يلا عشان نتصور عند اللوحة.

وقفوا جميعًا إلى جانب بعضهم مبتسمين استعدادًا للصورة، ولكن سرعان ما اختفت ابتسامة أدهم وحل محلّها الذهول والذعر، بمجرد أن نظر تجاه الباب ورأى ذلك الرجل الذي دلف إلى المعرض، ليصيح: علاء!!

تمكّن الارتباك من الأصدقاء بمجرد أن اخترق الاسم آذانهم، لينظروا بالاتجاه الذي كان ينظر به أدهم، ويصابوا بالصدمة، فإذا برجل يرتدي بدلة كحلية ذو شعر بني يتخلله بعض الشعيرات الرمادية، ووجه مستدير ذو عينين زرقاوتين، أنف دقيق، وشفاه رفيعة، بدا لهم وكأنه علاء ولكن وهو في أوائل الأربعينيات، ذات الطول والهيئة والملامح، اقترب أكثر نحو فريدة، مادًا يده ليصافحها بأدبٍ جَم قائلًا:

- مدام فريدة الشناوي؟
- قالت والذهول لا يزال يكسو وجهها: أيوة أنا.
- أعرفك بنفسي، أنا عمر الكاشف، مهندس ديكور ومعجب بشغل حضرتك جدًا، وكنت حابِب إن يكون في بينّا شُغل.
- كان ذلك حين خرج أدهم عن صمته، وقال بصوت مبحوح: حضرتك تقرب لعلاء الكاشف؟
- قال الرجل في أسى: أخويا، الله يرحمه، حضرتك تعرفه؟
- طبعا احنا كنّا صحاب من أيام المدرسة، أكيد حضرتك أخوه اللي كان بيدرس في لندن مش كدة؟
- ابتسم الرجل في وِد: بالظبط كدة.

قطع الحديث صوت هاتف الرجل الذي أخذ يدق بنغمة أغنية عمرو دياب الجديدة "أنا عايش"، انتظرت فريدة حتى انتهى من مكالمته، ثم قالت:

- واضح إن حضرتك برضو بتحب عمرو دياب زي علاء.
- ومين مابيحبّوش؟
- عندك حق.
- طيب بمناسبة عمرو دياب، وبما إننا طلعنا معارف من زمان، أنا كنت ناوي أحضر حفلة عمرو دياب في مارينا الأسبوع اللي جاي، تحبوا نروح سوا؟ وأهو تبقى بداية لشغل وصداقة جديدة، إيه رأيكم؟

لم تُجِبه فريدة، ولكنها نظرت إلى أدهم، ثم إلى أصدقائها الذين بدوا متوجِّسين، ولكنها لم تستطِع آنذاك أن تغالب ضحكتها التي خرجت منها رغمًا عنها، أخذت تضحك أكثر وأكثر حتى قهقهت، فقد أدركت آنذاك أن مهما مرّت السنون، ومهما حاولوا أن يتنصّلوا من ماضيهم، أو يفرّوا منه هاربين، سيظل يلاحقهم أينما ذهبوا، ومعه صوت عمرو دياب، الذي كان ويبدو أنه سيظل دائمًا يأتي في الخلفية.

***

الفهرس

١- في شي عم بيصير	١
٢- يمكن حبيتك	٢١
٣- يا هوا بيروت	٤١
٤- احكيلي عن بلدي	٦٥
٥- اللقاء التاني – شو الحلو فيك	٩٩
٦- الطول و اللون و الحرية	١٢٩
٧- بيت جدتي	١٥١
٨- لما انت ناوي	١٧٧
٩- نعشق القمر	٢٠٣